الدكتور

محمد عزيز الحبابي

من المنغلق إلى المنفتح

عشرون حديثاً عن الثقافات القومية والحضارة الإنسانية

ترجمه عن الفرنسية

محمد برادة

أستاذ بجامعة محمد الخامس

مع مراجعة وإضافات قام بها المؤلف

طبعة ثانية

١٩٧٣

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

محمد عزيز الحبابي



عشرون حديثا عن الثقافات القوميّة والحضارة الإنسانية

ترجمه عن الفرنسيّة

محمّد برادة

مع مراجعة وإضافات قام بها المؤلف

١٩٧١

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

يقدم المترجم والمؤلف شكرهما الجزيل
للأستاذة السيدة فاطمة الجامعى — الحبابى
على مساهمتها فى هذه الترجمة

منتدى العقلانيين العرب
arab-rationalists.com

فى عام ، 1961 صدر هذا الكتاب بالفرنسية تحت عنوان :

« Du clos à l'ouvert » (Vingt propos sur les cultures nationales et la civilisation humaine) (1)

كما نشرت منه فصول بالإنجليزية فى مجلة جامعة كلفورنيا (The Personalist) بالولايات المتحدة، وفى (Civilisation) الصادرة ببروكسل ، وفصول أخرى بالأسبانية فى مجلة (Way Forum) .

ونقدم اليوم النص العربى ، بعد أن راجعه المؤلف نفسه وأدخل عليه تعديلات وإضافات ارتآها ضرورية .

كما نشير إلى أن صفحات من هذا الكتاب نشرت ، فى مجلات عربية ، مثل «دعوة الحق» ، و «التربية الوطنية» ، و «الأديب» ، و«الكاتب» ، و «اللقاء» .

يأتى هذا الكتاب وكأنه تكملة لـ «الشخصانية الإسلامية» (2) ، قصد ذلك المؤلف أو لم يقصده . وبالرغم عن كونه صدر منذ مايقرب من عشر سنوات فان فصوله تتخذ مواقف تمس حاضر العالم العربى، وكأنها وليدة تفكير فى فترة ما بعد النكسة الكبرى ، إنه كتاب علم وتأمل يعيد للعرب الثقة بماضيهم وبمستقبلهم.

فعسى أن يكون للطبعة العربية نفس الرواج والنجاح اللذين عرفتهما الطبعة الفرنسية .

---

(1) صدر عن لجنة المغرب للتأليف والترجمة والنشر (دار الكتاب).

(2) كتاب أصدره الأستاذ الحبابى بالفرنسية ، ثم نقله إلى العربية (القاهرة ـ دار المعارف ، ١٩٦٩) .

توطئــــة

الواقع الإنسانى مزدوج ، لكوننا «طبيعة» داخل الطبيعة . ونتيجة لذلك ، تسير الثقافات فى اتجاه ثنائى : إنها تحاول معرفة الإنسان ومعرفة العالم لتكوين نمط بشرى جديد ، وفقا لمثل معشرى أعلى . غير أننا نلاحظ ، فى هذه الحقبة من تاريخ الإنسانية ، أن الاهتمام موجه بالدرجة الأولى إلى «علوم الطبيعة» ، أكثر منه إلى علوم الإنسان. ذلك أن الحضارة الحديثة تميل إلى نصرة التقنيات على المظاهر الإنسانية لحياتنا . إنها تعمل بذلك على إخضاع الكائن البشرى (وهو الغاية) إلى ما يجب أن يظل مجرد وسائل تخدم رفاهية وتحرير هذه الغاية. إذن ، يتحتم إعادة التوازن فى هذه الحضارة . لقد أجمعت كل المذاهب الفلسفية ، على هذه النقطة ، وأرسلت صيحات الإنذار منبهة إلى الخطر .

كيف يمكن تحرير عقليتنا من الأفكار الثابتة ، والأحكام المسبقة [1] ، وتخليصها من المزاحمة المفرطة وجنون الربح المزيف ؟

كيف نتوصل إلى تخليص مجتمعنا من الترهات فنحرره ونؤنسنه ؟ طرح مفكرون كثيرون كل هذه الأسئلة واجتهدوا فى الإجابة عليها . وإن الأحاديث التالية محاولة متواضعة فى هذا المضمار .

---

(1) Les préjugés

اعتمد ، فى ترجمة هذا الكتاب ، على القاموس الفلسفى (فرنسى - عربى) الذى أصدرته كلية الآداب بالرباط بعنوان (مصطلحات فلسفية) تحت إشراف الأستاذ الحبابى .

من التفاهم ، والاتصال ، والتواصل وتبادل الآراء بين الناس (مثل التعبير عن الحقائق والقيم الأخلاقية) كل ذلك يتم بواسطة اللغة، ولكن ، عندما تكون اللغة محكمة ، أى على جانب عظيم من الدقة فى انتقاء الألفاظ المستعملة . والقضية، فى الواقع ، أكثر تعقيدا من ذلك ، فهى لاتنحصر فى مجرد انتقاء الألفاظ ، بل تتوقف أيضا على الأسس التاريخية والفلسفية التى تقوم عليها المجتمعات البشرية .

ومما لاشك فيه أن الغموض فى الألفاظ يولد الغموض فى الأذهان وفى العلاقات بين الشعوب ، كما أن الالتباس يحصل ، دائما وأبدا ، من سوء التفاهم والمنازعات . ولذا ، فان اللباقة فى التفكير وفى إيضاح الأفكار وتحديد المسائل هى الأساس الوحيد الذى ينقذنا من الفوضى الذهنية ، فالألفاظ تستخدم ، فى الواقع ، إما سبيلا إلى التفاهم ، وإما وسيلة لزرع بذور التفرقة والأحقاد . ولهذا السبب نفتقر ، فى عصرنا هذا أكثر من أى وقت مضى ، إلى التفكير وإلى التعمق فى بعض المفاهيم والقيم السائدة حتى ندركها إدراكا أكمل، ونقدرها حق قدرها ،ونطبقها عمليا فى حياتنا اليومية .

غير أن الإقبال على تحليل مكنونها الحقيقى يقتضى منا بعض التضحيات أهمها أن نتخلص من الأحكام المسبقة،ومن المركبات النفسانية المتأصلة فينا، لا سيما تلك الأحكام والآراء التى يرددها معظم الغربيين ، فى معرض كلامهم عن كل ثقافة غير متفرعة من التراث اليونانى — اللاتينى ، أو الآراء التى يبديها بعض المفكرين، فى آسيا وإفريقيا ، بشأن الغرب ، فيخلطون بين الاستعمار الغربى والثقافة الغربية ، ولا يميزون بينهما ، فيدفعهم اشمئزازهم من كل ما يتصل ، من قريب أو بعيد بالاستعمار الغربى ، إلى شىء من الطيش فى الأحكام وإلى الوقوع بين أحضان العنصرية ، عدوتنا الكبرى ، ويقعون فيما يفرون منه !

إن النزاهة الأدبية والتمسك بالموضوعية ، وانتهاج الطريقة العلمية المتجردة عن كل تحيز ، تتطلب منا أن نتجنب الأحكام المتحاملة ، وأن نسعى لتفهم الثقافات الأجنبية ، بنزاهة تامة ، أو بعبارة أخرى ، ينبغى لنا أن نلجأ إلى أسلوب الشك النقدى فى أبحاثنا ، لأنه أسلوب يضمن سلامة تفكيرنا وقد جعل منه (أبو حامد الغزالى) العنصر الأساسى لكل عقيدة ويقين ، واعتبره (ديكارت) فيما بعد ، شرطاً ضرورياً لكل استنتاج منطقى .

* * *

سنظهر فيما يلى ، أو سنحاول أن نظهر ، وضع الفرد الإنسانى فى المجتمع الحديث ، والمنزلة التى يجب أن يتبوأها ، والرسالة التى عليه أن يؤديها فى هذا المجتمع ، معتمدين على النظرية الفلسفية (الشخصانية الواقعية) التى تقوم على أساس احترام شخصية كل إنسان ، لأنه إنسان ، بقطع النظر عن أى اعتبار آخر .

ولبلوغ هدفنا ، سنكتفى بتقديم بحث نقدى عن مفهومين أساسيين من مفاهيم القيم الرئيسية ، هما : الحضارة والثقافة . بيد أننا لن نأخذ أياً منهما بصفة مطلق بل ، على العكس ، فى ارتباطات : إما فى سياق تكاملى (كالنسق الذى يربط ربطاً مبدئياً بين حضارة وثقافة) وإما فى نطاق ينطبقان فيه على أوضاع خاصة (كالنطاق الذى يعتبر فيه الإنسان كائناً مدنياً ، وعاملا يواجه الكون).

* * *

إن كل واحد منا يشغل مركزاً خاصاً فى بيئة فكرية تختلف عن البيئات الأخرى ، من حيث نظرياتها وموقفها من الكون ومن حيث المفاهيم التى

تكونها عن هذا الكون ، فما قام الفرد الإنسانى بعمل فى المجتمع البشرى ، إلا كانت له أصداء ، وكان له تأثير على الأشخاص الآخرين . هكذا نرى أن كل واحد منا ، بحكم طبيعة الحياة (وبشعور منه أو بغير شعور) يستخدم جميع المعارف الإنسانية المكتسبة ويؤدى ، بدوره ، خدمات أخرى للإنسانية . ولكن الثقافة الخاصة بشعب ما تندمج ، هى أيضاً ، فى مجموع الثقافات البشرية القائمة فى العالم . و تطورها يتوقف على حيوية هذه الثقافات وتأثير كل واحدة منها على الأخرى .

مهمة المفكرين ، إذا ما أرادوا خدمة الإنسانية ، هى أن ينقطعوا عن اجترار الأفكار، فى عالم من الأحلام والعواطف الجميلة ، ليواجهوا العالم بوضوح وأن يجسدوا الواقع بموضوعية.

ثم إن الثقافة القومية تعتبر ، بالنسبة إلى أى فرد أو أى شعب ، قواماً لكيانه . كذلك كل ثقافة ، أساسياً ، إنما تنمو وسط ثقافات مختلفة . فمجموع الثقافات العالمية بمثابة التربة الضرورية لنمو كل واحدة منها ، وهذه التربة هى الحضارة الإنسانية .

تنطوى مسألة التفاعل بين الثقافات القومية المتنوع على عدد كبير من المظاهر، إلا أننا سندع ، جانباً ، تطورها التاريخى ، والميزات الخاصة بكل منها ، لنحصر جهدنا فى محاولة اكتشاف وتحليل العامل الرئيسى الذى يلعب دور العنصر الجوهرى المشترك بين جميع الثقافات ، على اختلاف أنواعها.

الحديث الأول

تراث مشترك

جميع الثقافات مهما تعددت الفروق بينها ، تهدف إلى نفس الغاية ، هى تجهيز الشخص بأفضل الوسائل البدنية والعقلية والروحية التى تمكنه من الرقى على أحسن وجه ، وتكوين شخصيته على أكمل صورة ممكنة حتى « يصبح سيد الطبيعة ومالكها » ، كما يقول (ديكارت) . فإن ساغ لنا أن نحدد الثقافة القومية قلنا : إنها مجموع القيم ، ومجموع أساليب الحياة المادية والعقلية والروحية التى يبتكرها ، أو ينهجها ، شعب من الشعوب ، فى غضون تاريخه[1] .

* * *

لا يخفى أن الإنسان كائن مجتمعى ، بحكم غريزته الطبيعية التى تحمله على تأليف مجتمعات بشرية فى مناطق يتم فيها التبادل الاقتصادى واختلاط الشعوب والقيم الإنسانية ومن ثمة ، لا يمكن لأى مجتمع بشرى أن يحيا ، ويساير مجرى التاريخ ما لم يتصل بالمجتمعات الأخرى . فالثقافة ، إذن ، هى ملتقى معايير أخلاقية ، ووسائل مادية لتحقيق أهداف معينة يرجى من ورائها الوصول بالإنسان إلى مستوى أعلى مما هو فيه . إنها غائية لأنها ترمى إلى هدف. فكيان كل بيئة فى احتكاكها ببيئات أخرى ، وعن هذا الاحتكاك ، تنتج ، تارة ، قوة جاذبة ، وطوراً ، قوة دافعة . هذه الحركة المزدوجة هى المحور الفعال للحضارة الإنسانية الذى بفضله تسير إلى الأمام ، إذ هو الذى يجعل كل شعب يشعر ، فى آن واحد ، أنه جزء من كل ، وأن له كياناً موحداً خاصاً به .

---

(1) إننا لا نستعمل لفظة (روحى) فى معناها الدينى ، بل نعطيها مفهوما أشمل .

لذا ، كلما أدركت الثقافة القومية أصالتها ، شعرت بضرورة التفتح ،لأنها تعيش فى تكامل مع الثقافات الأخرى . فالثقافة ، أية ثقافة ، إن هى إلا تمارين ذهنية مكتسبة نتوصل بها إلى ما يجب أن نفهم ونعرف ، وليست مجرد مجموعة أشياء مفهومة ومعروفة تعاد لنتلذذ بإعادتها .

والحضارة ، من جهتها ، إنما تحيا بالعناصر المتنوعة التى توفرها لها الثقافات القومية المندمجة فيها . فهى لا تؤلف كياناً مستقلا بذاته ، لأن الكيان القائم بذاته يتركب دائماً من عناصر معينة محددة ، بينما الحضارة ينسجها التاريخ ، والتاريخ صيرورة وتفتح ، أو « مغامرة » على حد تعبير (مونيي) [2].

فكثرة العناصر وتنوعها ، ضمن الوحدة ، تلك هى الثقافات . أما عملية اندماجها المتنوع ، وانصهارها فى القالب الواحد ، فتلك هى الحضارة .

* * *

من الخطأ ، إذن ، أن يقال مع المفكر الألمانى (سبنجلر Spengler) بأن الثقافة كيان موصد ، ينعم باستقلال تام بالنسبة للثقافات الأخرى التى تسبقه أو تليه ، أو تتواجد معه ، لدرجة أن كل ثقافة تشكل كياناً فريداً من نوعه يستحيل فهمه على أبناء الثقافات الأخرى .

كل شعب من الشعوب يكون تاريخه الخاص ، فى سير جدلى ديالكتيكى ، وفى نفس الوقت ، يظل يساهم فى تكوين تاريخ البشرية العام . لذلك كان المذهب الفلسفى الشخصانى لا يكترث بالصور المجردة الخاطئة التى قد تعزى

---

(2) E. Mounier ' Qu ést-ce que le Personnalisme? Le Senil. Paris p 103

للأشخاص أو للشعوب، بل «يهتم بكل ما ينم عن شخصية الفرد الإنسانى الحقيقى من تصاوير وأساطير، وشعر (. . .) فمهمته، إذن، هى جمع العناصر التى يتألف منها الإبداع المستمر، ومحاولة ربطها بنظرة حضارية حتى لا تستأثر بها أقلية من الناس، أو يخنقها التعصب الفكرولوجى»[3].

فمن التعسف تقسيم الشعوب إلى نوعين: نوع يزعم أن له (بطبيعة عرقه، أو غير ذلك) قابلية ومؤهلات خاصة للثقافة، ونوع لا ثقافة له ولا مؤهلات طبيعية (ولم يسبق له قط أن ابتكر شيئاً فى خدمة البشرية لأنه يتعذر عليه أن يستنبط أى شىء جديد) إنه عقيم فى كل الميادين الفكرية، أى نوع من البشرية دون النوع الإنسانى.

لا يخلو مثل هذا التفكير من نزعة سياسية تعسفية مغرضة. فباسم «علم» مزيف للطبيعة البشرية تشوه طبيعة الإنسان، بغية تبرير سيطرة بعض الشعوب على شعوب أخرى. ولكن هذا التشاؤم المغرض الذى يستخدم كستار لتغطية الميز العنصرى البغيض، أثار ردود فعل صائبة بين ذوى البصائر السليمة، من أمثال رجل الأعمال البلجيكى السيد (دوباج) الذى يصرح:
«لقد أوجدنا، فى بعض مناطق الكونغو، الأوضاع التى تمكن سكانه الإفريقيين من أن يستوطنوا ويستقروا نهائيا، ويكونوا فى مأمن من أخطار حياة البدو الرحل. لكن، بقى علينا أن نساعدهم على أن يستفيدوا، هم أنفسهم، من ثرواتهم الطبيعية، إلى أقصى حد ممكن»[4].

---

(3) J. M. Domenach, Esprit, 1956 سنة، 2 عدد، p173
نقصد بـ (فكرولوجى idéologique) طبقا لاصطلاح اختاره د. الحبابى نفسه.

(4) H. Depage, Bulletin de l Institut Royal Belge, TxxIIIp. 13

وطلب السيد (دوباج) من مواطنيه أن ينفذوا واجباتهم الإنسانية إزاء الكونغو ، فيؤسسوا ، فى كل قرية وناحية ومدينة ، الأوضاع والظروف الملائمة التى تجعل الإنسان يحس بحرياته الفردية ، ويشعر بغيرة الدفاع عنها .

* * *

هكذا أخذت نظرية الشخصانية تتعزز وتنمو وتصعد فى وجه النظريات العنصرية المتشائمة . فكل من يستند على الدراسات الموضوعية للتاريخ ولطبيعة الإنسان العميقة ، ينتهى به المطاف إلى اتخاذ موقف متفائل يؤمن بمزايا تعاون مثمر بين جميع الشعوب ، على أساس التساوى .

ولم لا تكون النتيجة كذلك ، ما دام الأمر يتعلق بجنس بشرى واحد يتبع فى تطوره ، حسب رأى عالم بيولوجى معاصر ، خطا واحدا ؟ يقول المفكر الإنكليزى (جوليان هيكسلى) فى هذا الصدد :

« إن النوع البشرى ، عوضا عن أن ينقسم إلى فروع بيولوجية متباينة ، استمر يؤلف كيانا واحدا . أما الاختلافات البيولوجية والمجتمعية لهذا النوع ، فإنها تتقارب فى الأخير ، لتكون معشراً موحدا ، فكريا وعمليا يستفيد من نشاطه الجنس البشرى كله »[5] .

بما أن الحضارة ، فى حد ذاتها ، بشرية شاملة لجميع الأجناس ، فإن كل ما من شأنه أن يرقى بالفرد البشرى ، أو بشعب من الشعوب ، إلى المستوى

---

(5) للمؤلف نظرية يفسر بها سيلان التاريخ الانسانى تقوم على ما سماه بـ « النزعة الإنسانية التطورية » .

J. Huxley, Splendeur et misere de l'Orient, Paris p. 301 .

الإنسانى الشامل ، أو إلى المستوى الذى يصلح لأن يصبح شاملا ، لا ريب أنه إنما يشكل مصدرا من مصادر الثقافة . فالشغل ، (وكل الفعاليات بصفة عامة) هو الخاصية الأولى التى يتسم بها الكائن البشرى . إن العامل الذى ينهمك فى تكوين الأشياء ، إنما يعمل ، ضمنيا ، على تكوين ذاته . وكلما ازداد وعيا لذاته ، ازدادت هيمنته على الأشياء وعلى العالم . فالشغل يسير وفقا لقوانين حتمية ، كما يندمج فى بيئة مجتمعية ، فيعمل على إنشاء المجتمعات وتحويل البيئات . إن الشغل ، باعتباره دعامة لتكوين الشعوب ، كان لزاما أن يصبح المصدر الأول للثقافات .

فالثقافة بالنسبة لفئة إنسانية معينة ، ترجع ، فى الواقع ، إلى أن هذه الفئة أخذت تدرك كنهها بواسطة الأشياء والكائنات المحيطة بها ، فتنسق جهودها ، وتحصر قواها فى هذا الإدراك حتى يشعر الشخص بوحدته النفسانية التى لا تتجزأ . حينئذ ، تدخل هذه الفئة فى المرحلة الإيجابية البناءة من الثقافة ، وإذا بها تندفع فى طلب المعارف والفنون ، أى فى الطريق الصحيح الموصل إلى الحضارة الإنسانية .

* * *

إن الإنسان ، باكتشافه نفسه ، من خلال نشاطه الخلاق ، أعطى الحضارة وجودا عمليا . وهو ، كسائر الحيوانات ، لا يستطيع أن يحيا دون أكل . وبما أنه لا يوجد وجه شبه بين حياة الإنسان على الأرض ، وحياة «جنة النعيم» التى تصفها الكتب المقدسة ، لابد للإنسان من أن يكسب معيشته بعرق جبينه . ومن جهة أخرى ، أن العمل الحيوى يحمل العامل ، بطبيعة الحال ، على ولوج

باب العلم ، لأننا عندما نشتغل ، نطرح على أنفسنا أسئلة عديدة تخص الأشياء التى نستعملها ، والظاهرات التى نشاهدها دون تفقه تام لأسرارها .

هكذا :

« إن الرعاة الكلدانيين كانوا ، منذ ألوف السنين ، أول من راقب حركة الكواكب ، كانوا يسهرون على قطعانهم ، مما حملهم على التفكير فى شأن الأحداث الفلكية ، وجعلهم يضعون الأسس الأولى لعلم الهيئة ، وللمعلومات الفلكية التى لا نزال نستخدمها حتى اليوم فى مراصدنا [6] » .

يمكننا أن نضيف ملاحظة أخرى : أن الرعاة كانوا يشعرون أيضا بحاجة إلى « قتل الوقت » ، أى إلى التخلص من الملل ، أثناء السهر على قطعانهم ، فلجأوا إلى اختراع الناى ، على اختلاف أنواعه ، وكانو أول من استنبط الموسيقى الساذجة ، وأحس بإيحائها الشعرى . فلا جرم أن الشغل ، وإن كان ناتجا عن الضرورة ، فقد تولد عنه العلم وتولدت عنه أشغال الراحة والتسلية (أى الفنون الجميلة) .

* * *

نستخلص مما سبق ملاحظتين :

أولا : أن الشغل ، إذا بقى سالما من الشوائب التى أدخلتها عليه مجتمعاتنا الحالية ، تعنى إذا لم يتغير معناه الأصيل ، لابد أن يؤلف بين الجهد ، والابتكار

(6) H. Dubreuil, Le Travail et la Civilsation, Paris, Plon, 1953 P. 10.

والتحويل ، والتربية ، فيجعل من هذه العناصر كيانا متناسقا جديدا ، هو الثقافة .

وبما أن الشغل ، من ناحية أخرى ، يعتبر إحدى الدعائم الأساسية التى ينبنى عليها الكيان المجتمعى ، ساغ لنا التأكيد بأن الثقافة جزء من كينونتنا ، وأنها النطاق العام الذى تنتظم وتندمج وتترتب فيه الحوادث ، والذى يجد فيه الإنسان أصول واقعه البشرى .

لقد كانت الحياة البشرية ، دوما ، خاضعة للعلاقة القائمة بين الإنسان (باعتباره القوة المحولة) والأرض التى هى مصدر التغذية . هذه العلاقة هى المحرك الحقيقى الذى يدفع التاريخ إلى الأمام ، فى جميع العصور ، وتحت ظل مختلف أنظمة الحكم ، وعليها يتوقف التطور المجتمعى والسياسى ، فى مختلف مراحله (الاسترقاقية ، والإقطاع ، والتعاونيات الاشتراكية السوفياتية « الكولكوز » ، وطرق التصميم الصناعى ، وتوزيع الثروات بين الناس ، ...) .

الواقع أن الشعور بحقيقة الإنسان ينجم عن إدراك واختيار الوحدة القائمة بين الكائن وبيئته .

الانسجام بين النشاط الغذائى والنشاط الذهنى ، وما بينهما من توازن يرمى إلى الإبداع ، أى إلى العمل . إن نداء المعدة الخاوية تردد صداه ضربات المعاول فى الحقول ، وضربات المطرقة فى المصانع . . . فإذا كان الله ، كما ورد فى القرآن ، قد جعل الأرض صالحة للسكنى والاستخلاف ، فإنه فعل ذلك لكى نتمكن من التنقل فيها بحرية ، ومن العمل على إنتاج غذائنا

الآية (١٥ : ٦٧)[7] أجل ، إن الخالق يريد منا العبـادة :

« يا أيها الذين آمنوا ! إذا نودى للصلاة ، من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » . (١٠ : ٦٢)

ولـكن :

« فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ! » (١٠ : ٦٢) .

ثانيا : إن الثقافة تؤثر ، بدورها ، على العمل الذى أنتجها ، فاذا بها تنوعه، وتنظمه ، وتزيده قوة ، فتصبح سعيا مستمرا نحو التوازن بين مقتضيات الطبيعة وتدريب الإرادة والذهن، أثناء تـكيف المجتمع، وفقا لحاجاته ولسياق الحوادث.

بذلك تلتقى كل ثقافة قومية بـ « الحضارة الشخصانية » التى هى محصول منطقى لجدلية دياليكتيكية . فهناك من جهة ، تلاقى الثقافة بالعمل ، ومن جهة أخرى ، ما ينجم عن هذا اللقاء من تفاعل :

«إن المذهب الشخصانى ليس ملـكا لأحد ، بل هو رسالة دائمة متجددة ، وعمل مستمر لتحقيق كرامة الإنسان »[8] .

لقد كان الإسلام على حق عندما اعتبر الشغل ، على اختلاف أنواعه ، مقياسا لـكرامة الإنسان وللمروءة ، كما اعتبره ، مقياسا لـكيانه (فالشغل إما

---

(7) الرقم الأول يشير إلى السورة ، والثانى إلى الآية .

(8) دومناك ، المصدر السابق ، ص 164

فريضة دينية ، وإما نشاط مجتمعى أو عقلى أو روحى) . لقد شاء الله أن يكون كل إنسان مسئولا ، شخصيا ، عن التزاماته وأعماله ، لأنه سيحاسب عليها يوم لدين :

«ولا تزر وازرة وزر أخرى ،

وأن ليس للانسان إلا ما سعى ،

وأن سعيه سوف يرى ،

ثم يجزى الجزاء الأوفى» (٥٣ ، من ٣٧ إلى ٤١) .

* * *

خلاصة ماتقدم هى :

يمكن تحديد الثقافة القومية بأنها: التجسيد العلمى لعبقرية شعب من الشعوب، فى شغله، ونظرته للعالم ، وتصرفاته .

بينما يمكن القول بأن الحضارة : هى تجلى عبقريات جميع الشعوب ، فى جهودها ومساعيها المتضافرة ، على توالى العصور التى شهدها التاريخ الإنسانى : إنها تراث مشترك .

الحديث الثاني

حضارة المـــدن

يعرف (فولنى) الحضارة ، فى صفحات يرفض فيها نظرية (روسو) عن انحلال الحالة المجتمعية ، بأنها اجتماع الناس فى مدن : « فهى ليست شيئا آخر سوى حالة مجتمعية محافظة وواقية للشخصيات والممتلكات »[1] .

إن لفظة « مدنية » فى اللغة العربية ، مشتقة من « مدينة » ، وكذلك « حضارة » و « حضر » مشتقان من « حاضرة » (وضدها «بادية») ، كما أن نقيض « المتمدن » هو « البدوى » . الأول هو قاطن المدن ، والثانى هو الرحالة المتنقل . وفى الفرنسية والإنكليزية ، تشتق كلمة « حضارة » (Civilisation) من كلمة (Civitas) اللاتينية ، ومعناها : « المدنية » .

على ضوء هذا الاعتبار المستند إلى الاشتقاق اللغوى ، ذهب بعضهم إلى القول بأن كل من سكن المدينة هو « مدنى » ، بمعنى « متمدن » ، وبعكس ذلك ، فإن كل فلاح يقطن فى الأرياف « غير متمدن » ، مهما كان مستواه العقلى والأخلاقى والروحى . إن المقابلة مدنى — بدوى ، القار فى مدينة والمرتحل ، هى عند العرب فى نفس الوقت تعبير دارج ومنبع مخصب للملكة التصورية والفلكلور الشعبيين .

* * *

مثل هذا الاستنتاج غاية فى السذاجة . حقا ، إن الحضارة تبدو فى مظاهرها المادية ، داخل المدن ، ولكن المعامل والأبنية والقصور ، والمكاتب

(1) Volney Oeuvres Completes, Paris F. Didiot. 1837. p. 718.

الأنيقة ، ودور الملاهى ، والذوق السليم ، والرخاء والتفنن فى المعيشة ، وقواعد السلوك ، كل ذلك لا يمثل سوى الناحية العرضية ، أى الجانب الخارجى من الحضارة ، فى معناها الحقيقى . ومن ثمة ، أيجوز القول بأن بعض البلدان أكثر حضارة من غيرها لأنها تملك ثروات مادية طائلة ، (على الرغم من أن هذه الثروات لا يستفيد منها جميع السكان على السواء) ؟ وعلى سبيل المثال ، إن الولايات المتحدة الأمريكية تملك صناعة وتقنيات أرقى مما هى فى سويسرا وبريطانيا وفرنسا . فهل يكفى ذلك لتكون أمريكا الشمالية أكثر حضارة من تلك الأمم ؟

* * *

للحضارة حياة باطنية خاصة بها ، هى لها بمثابة قوة التنفس للجسد . فقولنا « تحضر الرجل » أو « تمدن » ، يعنى أنه يساهم فى نظام معشرى سياسى[2] ، بقدر طاقاته ، كما يعنى أنه راض عاداته وساسها حتى أصبح قابلا لحياة مجتمعية فى تطور دائم ، وأنه مستعد للنهوض بمهام مادية ، وأخلاقية ، وعقلية .

فى القرى والأرياف أيضا يؤلف « المواطنون » هيئة منظمة ، من الناحيتين المجتمعية والاقتصادية ، ولهم إدارة عامة تسهر على احترام الواجبات والفضائل المدنية . وهناك ، بعيدا عن المدن ، حياة معشرية وشعور بالشرف ، وقواعد أخلاقية ، وإحساس بما هو إنسانى ، مما يؤلف الحياة الداخلية للحضارة . وكثيرا

(2) أصل كلمة Civitas اللاتينية يقابل لفظة Polis اليونانية التى اشتقت منها Politique (= سياسة ، وسياسى) .

ما نرى هذه الأخيرة منحطة ، إن لم نقل مطعونة فى صميمها ، فى كثير من المدن ، حيث تطغى عليها مظاهر التمدن الخارجية . فى هـــذا الصدد ، يجوز القول بأن بعض القبائل البدوية وبعض قبائل (مدغشقر) مثلا أكثر حضارة وتمدنا من أناس عديدين يسكنون (موسكو) أو (نيويورك) . ولا عجب فى ذلك ، لأن الناس إذا جردوا من بعض الفروق السطحية ، ظهروا متساوين فى الإنسانية . فـكما قال العالم (شارل نيـكول) الحائز على جائزة نوبل فى الطب :

« كل واحد منا إنما هو ، دائما وأبدا ، نموذج من الجنس البشرى »[3] .

* * *

الرجل المتمدن هو نقيض السفيه أينما سكن ، كما أنه نقيض الرجل اللاواعى الذى يقتصر أفقـه على العمل الآلى ، ولا يأبه إلا بالإنتاج المحض، و« المتمدن » أيضا ، هو نقيض الإخصائى الذى أصبح عبداً لمهنته ، عبودية تعرقل سير الثقافة ، بل تخنقها تماما ، وبالتالى تعاكس السير الحضارى العام .

إن الصلة بين الحضارة والثقافة وثيقة جـــدا ، حتى أنك إذا فرقت بينهما وفصلت إحداهما عن الأخرى ، أنـكرت وجود كليهما . فـكل مدينة خالية من التربية والتهذيب ، ومن مختلف ضروب النشاط الثقافى ليست متمدنة . كما أن كل ثقافة غير مهذبة وغير متشربة من القيم العليا ذات الشمول الإنسانى لا تنطوى على أية فائدة أو اعتبار . فليست الثقافة بحثا عن الرخاء والراحة المادية أو المعنوية ، ولـكنها ضرورة مستمرة نحو تـكامل الشخصيـــة الإنسانية ، فهى واجبة على الجميع ، كما أن للجميع حقا فيها .

---

(3) Charl s Nicole, Bi logie de l'invention, Alcan, Paris 1932.

إن « Culture » تدل ، فى الفرنسية، على الفلاحةوعلى الثقافة لأن العمليات التى يقوم بها الفلاح والتى ترمى إلى إخصاب الأرض ، تماثل المجهودات الثقافية لتنمية المحصولات الفكرية والمعنوية .

* * *

قد تتوفر الثقافة لدى بعض الناس ، بحكم الظروف ، كما أن الأمطار قد تكون مواتية لنمو الزرع ، ولكن ذلك لا يعنى أن للمثقفين مؤهلات عرقية خاصة ، ولا أن الشعب المثقف حصل على الثقافة لكونه يحتل منزلة رفيعة سامية فى التطور التاريخى للجنس البشرى ، بل الأسباب ، فى كل ذلك ، ترجع قبل كل شىء إلى الظروف التاريخية الخاصة ، أو إلى الاستعدادات الشخصية ، أكثر منها إلى النزعة القومية أو إلى طبيعة الجنس . فلو لم يكن الأمر على هذه الحال لما كان من الضرورى أن نميز فى نطاق الثقافة القومية ، بين ثقافات مختلفة (مثل الثقافة الفنية ، والتاريخية ، والعلمية ...) وفقا لوجهة النظر الخاصة التى يحصر فيها الرجل المثقف عنايته واهتمامه .

كلمة «ثقافة» فى، اللغة العربية المعاصرة ، حافلة بالمعانى العميقة .فهى مشتقة من مادة : (ث .) و (ق.) و (ف.) وهو جذر يعنى : لاقى ، ووجد ، ثم حول ليصلح ويهذب ، وأخيرا ، حصل على مهارة وسرعة فى الفهم والإدراك .

* * *

تجد الحضارة قوامها وغذاءها فى الثقافات القوميـة . فالتيار الحيوى الذى يسرى فى الحضارة ، أنى ومتى كانت ، هو روح إنسانية شاملة . وإذا كانت الحياة فى المدينة لا تشكل غاية فى حد ذاتها ، فهل يكفى أن يعيش الإنسان

فى المدن ليكتسب دماثة الأخلاق ، وأن يساهم فى السياسة ، وفى بناء صرح المدنية ؟ طبعا لا .

* * *

فمنذ أن شاع استعمال لفظة « الحضارة » ، أصبحت التحديدات الكثيرة التى وضعت لهذا المفهوم تخلو من التلاؤم الدقيق بين الاسم والمسمى ، أى بين اللفظة والمعنى الحقيقى الكامن وراءها . فلكلمة « حضارة » معنى مبهم ، مما يجعل عسيرا كل محاولة تعريف خال من أى التباس . مثلا : لم تنشر الأكاديمية الفرنسية فى قاموسها كلمة « حضارة » ، للمرة الأولى ، إلا فى طبعة ١٧٩٨ ! ولكن ، يبدو أن اللفظة هى من ابتكار (ميرابو) إذ أنها وردت فى الصحيفة التى كان يديرها ، وذلك سنة ١٧٥٦ .

أما الكلمتان (civil = مدنى) و (Civilsé — متمدن) ، فنعثر عليهما فى مؤلفات (مونتين) القائل : « ليس لكل قطر فحسب مدنية ، بل كل مدينة لها مدنيتها الخاصة . . . »[4] .

وإذا رجعنا إلى التحديد الذى ورد فى قاموس (ليترى Littré) وجدنا أن « المدنية هى حالة ما يمدن ، يعنى مجموع الآراء والأعراف التى تنتج عن تفاعل الحرف والصناعة مع المعتقدات والآثار الجميلة والعلوم » (ج1 ،ص632)، نستنتج من هذا التعريف أن جميع الشعوب متمدنة ، لأنها جميعاً تملك ديناً ،

---

(4) Montaigne, Les Essais,
الفصل 13 ،ج1 . نشر هذا الكتاب فى سنة ١٥٨٠

وفنوناً جميلة (من زينة وصناعة يدوية) وعلماً ، (ولو كان نسقاً من تجارب يومية) وأدباً (شفاهياً وفلكلورياً) .

* * *

مهما يكن من أمر ، فإن التاريخ البشرى يثبت أن الحياة الحضرية ، فى مدن قارة مجرد ظاهرة عرضية ، غير طبيعية ، حياة ثانوية لا أصيلة . أما النمط الأصيل الأولى للحياة البشرية فيقوم ، دائماً ، على النزوح والتنقل ، والترحل الطويل الذى كان يفرض على الناس أن ينقلوا معهم أثاثهم وآلهتهم ، وهيا كلهم ، وأعيادهم الفصولية الموسمية ، وأغانيهم الشعبية ، ومجموع ما اكتسبوه من خبرة ، وصناعة ، ومعرفة .

* * *

وبصفة عامة ، كان القرن الثامن عشر ، يستعمل كلمة «حضارة» أو «مدنية» ، فى ثلاثة معان دقيقة :

(أ) مجموعة الخصائص التى تمتاز بها شعوب أوروبا ، باعتبارها الشعوب الأكثر ثقافة (علمية وتقنية) ، والأكثر رقة فى الشعور ورهافة فى الذوق .

(ب) القدرة على تثقيف الآخرين وتمدينهم .

(ج) عملية هذا التثقيف والتمدين .

نلاحظ أن هذه المعانى الثلاثة تكونت فى عصر الانبثاق الأعظم لحركة

التصنيع الـكبير[5] ، ولحركة القيام بالاستعدادات للزحف الأمبريالى الأوروبى على شعوب « ما وراء البحار » .

* * *

لقد كان (إنياس ميير سن) محقاً[6] عندما كتب الملاحظة التالية ، فى تعليق على كتاب يعالج بعض مشاكل الجغرافية البشرية ، فعبر عن الانطباع الشديد الذى تركته فى نفسه ظاهرة النزوح البشرى على وجه الأرض ، بصورة مستمرة ، سواء أكان ذلك فى غياهب الماضى الذى سبق التاريخ ، أم فى فجر التاريخ ، أم فى القرون التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة . وأما السكون الناتج عن الاتزان الـكامل بين الإنسان ومحيطه ، فليس سوى مسألة منفردة خاصة ، إذ أن الواقع لا ينطوى إلا على مظاهر ودرجات متفاوتة من الحركة .

وإذا كانت لفظة « حضارة » (Civilisation) مشتقة ، فى الأصل ، من حاضرة (Civitas) ، أفليست هذه مشتقة ، بدورها من (حضور) الناس وتجمهرهم ، حرصاً على مصالحهم الحيوية المشتركة ، ودفاعاً عن أمنهم وعن حريتهم ، أعنى عن حقهم فى الوجود وفى الحياة ؟

يدلنا هذا على أن فى كلمة « مدنية » قابلية للتمطيط ، وأنها تنطوى على عدم الدقة ، وأنها كثيرة النسبية والغموض والالتباس بين الدال والمدلول ، وبين ظواهر الواقع ومكنوناته . فتارة نستخدم كلمة « مدنية » ، للدلالة على الثروات

---

(5) يظهر أن التصنيع الـكبير بدأ حوالى سنة ١٧٨٠

(6) I. Meyerson, Journal de psychologie, p. 228, vol. 1656, Paris, 2

المادية والمظاهر الخارجية ، لما فى المدن من ازدهار ، وطوراً للدلالة على الثقافة المجردة والنظريات الفلسفية .

* * *

فالنوع الأول ، من هذه المدنية ينطبق على « المدنية الأمريكية » التى لم تفلح ، بالرغم من الازدهار المادى الهائل ، فى حل قضية خطيرة تناقض مفهوم هذه المدنية ، نعنى بذلك أن خمس سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعيش فى حالة يرثى لها ، كما ورد فى أحد التقارير التى قدمت للكونغريس الأمريكى فى سنة ١٩٥٥[7] .

أما النوع الثانى (مدنية فى معنى مرادف للثقافة المجردة) فلا ينطبق إلا على حضارة محدودة النطاق ، تنحصر فى نخبة من المواطنين ، وتبقى فى منازل الخواص دون العوام ، وهى ، فى كلتا الحالتين ، تذكرنا بمفهوم المدنية عند المفكرين الألمان الذين يسمونها (Kultur) ويعنون بذلك أسمى وأرقى وأشرف مقومات التراث المجتمعى . وهذا تحديد يضيق جداً مفهوم « مدنية » ويجعل منه حقاً موقوفاً على نخبة محظوظة .

فإذا فهمت الثقافة ، على النحو الثانى ، أصبحت لا تشمل النشاط المادى ، ولا يخفى ما فى ذلك من حل مصطنع للحياة الإنسانية ، ومن تجريد لها من نواح أساسية بغية الاحتفاظ بمظاهرها العقلية المحض . هناك مسافة شاسعة بين هذا المفهوم وما ترمى إلى تأكيده هذه الصفحات عن الثقافة والمدنية ، إذ نعلق أهمية

---

(7) للتعرف على هؤلاء الأمريكيين المحرومين ، راجع التقرير الذى رفعته إلى الكونجرس اللجنة الاقتصادية المختصة ، سنة ١٩٥٥ . Joint E.coomitee

كبرى على الصلات الوثيقة القائمة بين الحضارة ومجموع الإنسانية ، وعلى العلاقات التى تصل بين الثقافة ومفهوم الشخص الإنسانى (باعتباره كلا معنوياً ومادياً لا يتجزأ ، وله قابلية الارتقاء إلى الشمول) .

بفضل الميل إلى هذا الشمول ، تسير الثقافات القومية نحو الاندماج فى المدنية الإنسانية ، كما تنشأ الروابط بين مختلف الثقافات الموصوفة بالثقافة التاريخية ، أو العلمية أو الفلسفية ، والتى تدخل فى نطاق الثقافة القومية . فالتجربة الصوفية ، تجربة فردية ، لذا تعيش على هامش الثقافة القومية ما دامت لا تعكس اتجاها مشتركا يرمى إلى الشمول، بل اتجاها خاصا انفراديا .

* * *

إننا متفقون مع السيد (لويس جاردى) على أن « الثقافة تتجلى لنا مرتبطة بالنظام المجتمعى والسياسى »[8] فنحن كذلك ، وإن كنا نرفض المعارضة بين « ثقافة ومدنية » نعتقد أنهما يختلفان كيفا ، وخصوصا كما ، رغم ما بينهما من تداعى وتكامل . وبينما يرى (جاردى) أن المدنية يمكنها أن تكون قومية ، كما هو الشأن فى الثقافة ، نقتنع نحن بأن المدنية تشمل مجموع ثقافات مختلف الشعوب ، فبتفاعل الثقافات وتداخلها اللا منقطع ، تضمن للنوع البشرى التفوق على بقية الأنواع الأخرى ، والسيطرة على الظاهرات الكونية . وهكذا ، فإن لنمو المدنية ، المعنوى والمادى ، جذورا فى أعماق تاريخ الإنسانية العام ، الإنسانية بوصفها تاريخا يضطلع به دوما مجموع النوع البشرى ، تاريخا ساهم فيه وما زال يحياه ويحققه .

---

(8) Louis Gardet « Méditerranée dialogue de culture » in Etudes méditerraneenres, no 1, Paris 1957, P.4.

تشمل المدنية مجموع الثقافات المتنوعة الناجمة عن نشاط البشر الذين توصلوا ، بكفاحهم المستمر ، إلى ضمان تفوق الإنسان على الحيوان ، وسيطرته على قوى الطبيعة . إنها تستندإلى تاريخ الإنسانية العام ، فى تطوراته المعنوية والمادية ، الماضى والحاضر منها ، وعلى ما ينتج عنها من أفعال وانفعالات .

على أنه إذا كانت المدنية واحدة والثقافات متعددة ، وجب أن نلاحظ بأن الثقافات تؤلف المدنية فى تفاعل ديالكتيكى ، هو أشبه بالبوتقة التى تنصهر وتختلط فيها العناصر ، والتى يمكن فيها للثقافات الهزيلة ، ظاهريا ، أن تقوم بدور الخميرة فى العجين ، وأن تكون حافزا نحو تقدم جديد . وبالتالى ، فلا أساس من الصحة للمزاعم القائلة بأن مفهوم المدنية ينحصر فى هذه الفترة الخاصة من الحياة المجتمعية التى تحياها، حاليا ، الشعوب الأوروبية، أو القائلة بحصر المدنية فى المدن ، دون سواها .

* * *

الحقيقة أن المدنية هى الأفكار التى تم تحقيقها ، عمليا ، فى العالم ، بواسطة الشغل . فالأفكار لا تعرف معنى للحدود وليس لها تاريخ ، كما يقول (كارل ماركس) بل للأشخاص وحدهم تاريخ . والفكرة تصبح قوة عاملة متى نضجت فى فئة من الناس . وعندما تشعر فئة معينة باندفاعها وراء فكرة ، تؤثر ، لا محالة ، على فئات أخرى .

مثلا ، نعترف بواقع النشاط الصوفى ، ولكن لانصنفه من بين المظاهر الثقافية فى المجتمع ، لأن نشوة الصوفى المستغرق فى التأمل بالوجود لا تشبه المهمات الملقاة ، عادة ، على كاهل الناس ، ولا تعبر ، مطلقا ، عن ماهية الشخص

المثقف، فى أمة معينة وعصر معين . إن المتصوف والمتقشف نموذجان نادران ، مثل مفهوم القديس والبطل ، عند (برجسون) فى كتابه « منبعا الدين والأخلاق » ، فبمجرد ما تخضع الثقافة للاتجاه الصوفى ، تصبح غير مجتمعية ، فـ (أفلوطين) و (الغزالى) ، بعد أن تصوفا ، أخذا يدعوان إلى الهروب من العالم والعكوف على التأمل و « التحرر الداخلى » ، أو « الانعتاق الباطنى » ، وذلك إمافى «مدينة أفلاطون بعد تحويلها إلى دير » ، على حد تعبير (بريى)(9) وإما فى زاوية الصوفيين الذين يتباهون بإظهار وهن العقل البشرى ويستنكرون الحياة المادية والمجتمعية . . (10) .

بعد هذه الإيضاحات ، نعود فنطرح من جديد ، سؤالنا السابق : أيكفى أن يكون المرء من سكان المدن ليسمى متمدنا ؟

منطقيا ، لا يجوز لأحد أن يرد على هذا السؤال بالإيجاب ، فالأقدمون أنفسهم لم يعتقدوا ذلك . فـ(سقراط) ،مثلا ، يقول : إن للأخلاق صلة وثيقة بالسياسة، ومارسالة الفيلسوف إلا تهذيب الناس وإعدادهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين ، لقيادة الشبيبة ونخبة عصره ،أى ينبغى لعلم الأخلاق ، فى نظر (سقراط) أن يساير علم الواجبات المدنية ،جنباً إلى جنب ، ويتمنى (أفلاطون) ، هو أيضاً، إنشاء الدولة الكاملة المثلى ، وهذه لا تتحقق إلا عندما يسوسها الفيلسوف ،على وجه يجعل منها المجتمع الإنسانى المثالى. ثم أتى القديس (أغوسطين) نخصص مؤلفه الشهير «مدينة الله»، للموضوع نفسه . وفى القرن العاشر، ابتكر (محمد الفارابى)

---

(9) E. Bréhier, Page 18 de l'introduction a l'édition des Ennéades.

(10) انظر : المنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة .

ما سماه « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، وبعد ذلك بستة قرون نشر راهب إيطالى يدعى (كامبانيلا) كتاباً بعنوان « مدينة الشمس » حيث يتاح لكل شخص أن يمارس المهنة التى تلائم ميوله ومواهبه ، وحيث لا تتعدى أوقات العمل أربع ساعات كل يوم .

هكذا أعرب هؤلاء المفكرون ، بقطع النظر عن عدد كبير غيرهم ، عن رغبة مليئة بالتفاؤل ، ولكنها لا تخلو ، فى نفس الوقت ، من شعور بخيبة مرة : اشتياق إلى وضع مثالى يتصورونه ، وإن لم يسبق قط أن تم تحقيقه . فهذا النوع من الحنين الدائم ، لدى الإنسان إلى تجاوز ذاته ، هو العصب الحي للمدنية الإنسانية .

* * *

لا بد هنا من إيضاح آخر : إن « المدنية المثالية » وتجاوز الذات ليسا مجرد أمنيات حلم بها فلاسفة لا صلة لهم بالواقع ، بل العكس هو الصحيح . ففلسفة (أفلاطون) مثلا ، نتجت ، فى الأصل ، عن رغبة جامحة فى التغلب على العقبات التى تعرقل سير العمل حتى يتم إنجازه ، على أكمل وجه . وقد تبين أن المدرسة الفلسفية التى أسسها (أفلاطون) ، وسميت بـ « الأكاديمية » ، كانت فى الواقع مدرسة للعلوم السياسية ، متجهة نحو العمل ، ونحو الأبحاث النظرية ، على السواء . وكذلك القول ، بالنسبة إلى الفارابى الذى لم يكن ينساق وراء أضغاث أحلام لا مبرر لها ، عندما وضع « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، بل انقاد لرغبة عملية واضحة ، ولنظر واقعى ثاقب فى الأمور البشرية . يريد الفارابى أن يرى الناس ينعمون ، فى هذه الحياة الدنيا ، على هذه الأرض ، قدر المستطاع ، بأفراح وسعادة الحياة الأخرى (كما يتصورها من خلال ما جاء فى القرآن والسنة

عن الجنة والآخرة) . ويريد أيضاً للناس ، أن يستفيدوا من أنظمة العدالة المجتمعية والتضامن الإنسانى الواردة فى مدينة (أفلاطون) . أليس من واجب الفيلسوف أن يساعد إخوانه على الارتقاء نحو الكمال ، فى جميع النواحى ؟

يحدد الفارابى رسالة الفيلسوف بأن يعمل جهده كيما يشبه الخالق ، بقدر ما يكون ذلك مستطاعاً لدى الإنسان (11) .

كل أولئك المفكرين الذين شعروا بأمانى أحفادهم كانت تحدوهم رغبة إنسانية صادقة . وكلهم ، من (أفلاطون) إلى (وليام موريس) مؤلف « الانسجام الجديد » ، (12) مهدوا للاشتراكية ، ولم يستوحوا مؤلفاتهم من نسج الخيال الأوتوبى ، بما فيهم (توماس مور) الذى كان أول من ابتكر كلمة « أوتوبيا » وسمى بها كتابه الشهير (Utopie) ، أى (الجزيرة المثالية الخيالية) (13) .

* * *

لقد تبوأ الكتاب الأخير المنزلة الأولى ، فى عهد النهضة الأوروبية ، لا لأن مؤلفه تخيل فيه مدينة مثالية يستحيل تحقيقها ، بل لأنه دعا إلى تأسيس مجتمع إنسانى يمكن أن يتحقق . يعالج (توماس مور) ، فى كتبه ، مسائل عملية ، لا سيما ما كان منها متعلقاً بالإصلاح المجتمعى والسياسى ، مثلا : كيف يمكن

---

(11) انظر : ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ؛ ج II ، القاهرة ، ص 134

(12) William Moris صاحب New Hormony

(13) صدر هذا الكتاب بلندن عام 1516 ، وقتل مؤلفه (Thomas Morus) سنة 1535 ، ضحية للمبادىء التى آمن بها .

سن تشريع يجعل الشغل أكثر إنسانية . ويخولنا إنشاء حكومات ديموقراطية ؟
إن الأغنياء تعودوا أن يهضموا حقوق الفقير ، وينقصوا أجره ، إما بالغش وإما بالطرق القانونية ، أى بوضع تدابير تشريعية لهذا الغرض حتى يتسنى لهم استخدام شرائع الدولة لاستبقاء المظالم والعادات الجائرة . وهل هناك ظلم أبشع من أداء أهزل الأجور لمن ينتج الأكثر فى خدمة الدولة ؟

هذه خطاطة لنظرية (توماس مور) . إنها نظرية جريئة غنية بما لاحظته وبما تنبأت به منذ أكثر من أربعة قرون .

* * *

يتضح مما سبق أن الغاية من وضع « المدينة الفاضلة » و « الجزيرة المثالية الخيالية » « إيثوبيا » ليست فى إنشاء عالم خيالى ، أو تصور النعيم السماوى ، بل فى العمل على اشتراع قانون يضمن الرخاء على هذه الأرض لتتكون أسرة بشرية تسودها العلاقات الأخوية ، بين جميع الناس ، على السواء .

إذ ذاك ، وإذ ذاك فحسب ، تصبح الثقافات من مقومات إنسانيتنا ، متفتحة على آفاق جديدة تخول كلا منا أن يقول مع (غاندى) ، بكل ما لدينا من جرأة وما نحمل من إيمان :

« أريد أن تهب على بيتى ثقافات كل الأمم ، بكل ما يمكن من حرية . ولكنى أنكر ، على أى منها ، أن تقتلعنى من أقدامى .

إن مذهبى ليس ديناً مغلقاً ، ففيه مجال لأقل مخلوقات الله شأناً ، ولكنه يستعصى على الكبرياء العاتية ، كبرياء العرق ، أو الدين ، أو اللون » .

الحديث الثالث

إفلاس حضارة المدن

« ما قيمة حقيقة لا تحولنا إلى أفضل مما نحن عليه ؟ ... ان الفلسفة التى لا ترفع القيمة الإنسانية ، تعتبر لعبا تافها »[1] .

* * *

كثيراً ما نجد فى أيامنا هذه عزيمة قوية تدفع نحو التعالى على الحاضر والتطلع إلى تكوين مجتمع مثالى .

ولتلك العزيمة أشكال متباينة وأساليب مؤثرة ، سنتعرض إلى البعض منها .

تتجلى إرادة التحول والتعالى ، فى نفس الوقت ، كرغبة من جهة ، وكتعبير عن الاستياء ، من جهة أخرى ، لأن الإنسانية تظهر وكأنها قد ضلت الطريق نتيجة لخطأ جسيم فى التوجيه . لقد حادت الحضارة عن السبيل القويم ، فلاتستجيب لمطامعنا فى الكمال وإتمام الصلح والتناسق بين الإنسان وذاته ، ومساعدة (الأنا) على التفتح الملائم . فنظم الحكم المختلفة للحكومات المعاصرة ، وكذلك برامج جميع الثورات والمنظمات النقابية والمذاهب الفلسفية والاقتصادية والأخلاقية ، كلها نتجت عن انعدام التوازن بين مطامعنا وادعاءاتنا ورغباتنا ، وبين النزوعات للمستقبل وأعمالنا والنتائج التى حصلنا عليها حاليا . لذلك أصبحنا نعيش فى قلق عميق من جراء التباس الأوضاع الراهنة .

---

(1) Henri Mavit, Refus de l'absurde, Paris, La colombe, 1953. p. 5.

إن لـكلمة (مدنية) وقعاً مؤثراً وإيحاء « صوفيا » فى النفس الإنسانية ،
لـكن ، إذا ما قابلناها بالواقع المجرد من كل الأصباغ،فقدت هذا المعنى واتخذت
معنى آخر، إنها تشبه الأثوابِ الاصطناعية المبرقشة التى يرتديها الممثل ، على خشبة
المسرح ، فقد أعدت ، لتلمع تحت شمس الـكشاف الذى هو مصدر نورها ،
ولتستعمل فى حياة عالم مسرحى مصطنع .

* * *

فمنذ عرضت حضارة المدن بمقاييس العدالة والـكرامة بمقياس القوة والدخل،
وصنفت الناس إلى منتجين وغير منتجين ، أصبحت عظمة الدول تقاس بما لها
من قوة عسكرية[2] كذلك ، عندما آثرت حضارة المدن المزاحمة على التضامن،
ولم تحسن تنظيم وتقويم الاستعدادات الإنسانية ، عاقت الـكائن البشرى عن
أن يتحرر ويتجاوز ذاته ، أى أنها حالت بينه وبين أن يحقق شخصيته[3] .
وهذه الخيبة المريرة هى المصدر الأساسى للقلق والعبث والسويداء ، وغير ذلك
من التجارب والمفاهيم السائدة فى الأدب والفن الحديثين : كتب (كيركيجارد)
و (كافـكا) ، ونظرية « العدم » عند (هيدجر) ، « والعبث » عند

---

(2) يقول (كلود جيليان C. Julien) فى تحقيق صحفى كتبه عن الولايات المتحدة «لا تكون للمتحدث قيمة إلا إذا كان قويا ، وهذه القاعدة مطبقة فى أمريكا» (جريدة لوموند البارزية ، يوليو 1956)

(3) أنظر كتابنا : أحرية أم تحرر (Liberté ou libération ?) من 119 إلى 181 ، حيث عالجنا مشكلة المزاحمة والتضامن (باريس ، 1956 ، نشرات أوبيي) Aubier ، النص العربى لهذه الدراسة تحت الطبع عند دار المعارف بالقاهرة .

(كامو) ، وآراء (ما كيافيل) و (الماركيزدوساد) قد انتشرت على نطاق واسع ، لأنها تتجاوب مع حيرة المثقفين الذين خابت آمالهم ، ومع رد الفعل للوعى الحديث .

وعندما عكست الآداب هذا الشعور بالأزمة ، امتلأت بالاستبطان حتى أصبح الإنتاج الثقافى عبارة عن عرض للانهزامات الأخلاقية ، وإظهارا صارخا للتملق والانتقادات الذاتية ، وإبرازا لمحنة الضمير ، ... وهى صفات ينطبع بها عصرنا . وتدخل ، فى هذا المجال ، رغبة محمومة فى الهرب من الواقع ، عن طريق القصص البوليسية ، والعمل المجانى ، والفن التجريدى ، وقصص الشباب العابث ، وهناك الصحفيون المتخصصون فى كشف القناع عن الحياة الشخصية للنجوم السينمائيين ، وتتبع فضائح ومغامرات مشاهير الساعة . ويجب أن لا ننسى العدد الكبير من الدوريات التى تهتم ، أكثر من اللازم ، بالفضائح وبكل مثير للغرائز ، دون اعتبار المهام الكبرى التى يقوم بها ، كل يوم ، الملايين من الرجال البسطاء الذين يمارسون نشاطهم فى شجاعة وكرامة .. أليسوا ، هم أيضا ، جديرين بالاهتمام وممثلين لعصرنا ؟

يمكننا أن نذكر ، على سبيل المثال ، بعض الأعمال الفنية ل (بابلو بيكاسو) التى أنتجها بعد « الفترة الزرقاء » ، مثل لوحة « جيرنيكا » ولوحة « الحرب والسلام » . وفى ميدان الأدب ، نذكر مؤلفات (ادكاربو) و (جورج بيرنانوس) و (وليام فولكنير) و(دوس باسوس) و (عبد الرحمن الشرقاوى) و (ليلى بعلبكى) . وفى الأفلام السينمائية ، فيلم « بذرة العنف » (Graine de violence) ، و « جلسة سرية » (Huis clos) . إننا نذكر هذه الأعمال ، دون الحكم على قيمتها ، نذكرها كشواهد لهذه الفترة ، وعلى هذه الفترة ،

بما فيها من جمال وقبح ، ومن خير وشر . إنها شهادات على ما اعترى الأخلاق وقد تخلت عن دورها حتى أفلست الحضارة ، رغم احتفاظها بإمكانيات ثرية .

* * *

نتجت المأساة عن كون وعى الصدمة ظهر فى شكل منعدم التكييف ، لم يصبح بعد واضحاً متغلغلا فى نفوس الجميع. ثم هناك «خيانة المثقفين»[4]. فقد كان يرجى منهم أن يكونوا فى الطليعة ، بيد أن أكثرهم يفضلون « العمل المجانى » الذى دعا إليه (أندرى جيد) ، أو الرفض السهل المريح الذى نادى به (كامو) . وجد من بينهم من دعا إلى الالتزام مثل (إمنويل مونيي) و (سارتر) ، مما ولى المعركة وجهة جديدة لم تعد قائمة بين القدماء والحدثين ، أو بين أنصار الكلاسيكية وأنصار الرومانسية ، بل أصبح الصراع بين الذين يعتبرون الثقافة مسألة ذوق شخصى،وامتيازاً موقوفاً على ذوى أرستقراطية فكرية معينة ، وبين الذين يريدون أن تصبح الثقافة قوة مؤثرة فى المجتمع ، تعمل على ضمان الاستقرار والرفاهية ، للإنسانية جمعاء .

هناك تواز (من حيث النمو أو التمهتر) بين إيقاع وإحالة الثقافات القومية ، وبين سير تطور النوع البشرى : حركتان متكاملتان تستهدفان غاية واحدة ، هى أن تجعلا ، من التاريخ الإنسانى العام ، قوة انبثاق جديد ، قوة

---

(4) إشارة إلى الكتاب الذى ألفه الكاتب الفرنسى (Julien Benda) تحت هذا العنوان ، وكان له دوى قوى فى الأوساط الثقافية الغربية « La trahison des clercs »

حبلى بمولود يتجاوز ، اتساعاً وعمقاً ، حدود القوميات والأوطان . وذلك هو التوتر الدائم نحو الاكتمال للجميع ، وفى كل الميادين : الحضارة .

* * *

لم يتحقق بعد الأمل فى الوصول إلى ربط وثيق بين ما للمرء من تجارب ومعارف ، وبين واجباته كمواطن وكإنسان . فالتقدم العلمى والتقنى مضطر إلى أن يصحب بتنمية الوعى المجتمعى لتتحقق مفاهيم العدل والمساواة والحرية . نعنى أن الحضـــارة لا تتم إلا إذا استهدفت التعمق فيما يؤنسن الإنسان من حيث أبعاده كلها ، الامتدادية منها والعمقية (5) . فإذا لم يشارك التقدم العلمى والتقنى فى هذه المهمة الملحة ، انعدم التوازن الذى يدعم الحضارة الحق ، ويشخصن كيانها : ف « الحضارة المشخصنة » هى التى تخول كلا منا أن يجعـــل مجموع التزاماته وأفعاله تتحالف مع مجموع نشاط الآخرين ، إثباتاً حراً لكرامة إنسانية كل واحد من معاصرينا .

* * *

فى هذه الحالة ، وفيها وحدها ، يجوز لنا أن نقول إن لنا ثقافة قومية تساهم فى إثراء الحضارة الإنسانية . فى هذه الحالة ، يصبح لفظ « مثقف » لا يطلق ، على من له حصة من المعارف استخلصها من قراءة الكتب ، بل « المثقف » من يقدر على أن يكيف سلوكه بمعلوماته وتجاربه ، أن يدمجها فى مجموع الفعاليات

(5) أنظر كتابنا: De l' Etre à la Personne, Paris-B.U.F. (القسم الثانى) من ص 123 إلى 337 .

البشرية ، على مختلف المستويات ، محاولا أن يعين على خلق قابلية للتطور لدى النوع الإنسانى .

فالمثقف الحق ، إذن ، هو من يحاول أن يحيا فى تواصل مع نزوعات ومصير الإنسانية ، ويربط مصيره بمصير الآخرين . وعلى العكس مما سبق ، فالثقافة التى لا تعلنها حرباً شعواء على الحرب ، ولا تركز مجموع المنظومات على قيم واضحة، تجر ، حتما ، إلى الانحطاط وعدم الاستقرار والأمن ، وإلى الفتن ، « والفتنة أشد من القتل » (قرآن ٢ : ١٩١ و ٢ : ٢١٧) : إنه نفى مطلق للحضارة .

* * *

هناك إذن ، ثقافات صالحة كلها خير ، وثقافات كلها شر . فالأولى تلزم كل واحد منا بأن يتكفل بمسؤوليته نحو القيم العليا المشتركة ، كيما تتحقق الفائدة للجميع . أما الثانية ، فهى التى لا تلتزم بمقاومة الظلم والجهل ، وهما مصيبتان تلقيان بالبيئات فى الفوضى والفتنة التى « لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (قرآن ٨ : ٢٥) (6) . فدعاة النزعة الإنسانية (Les humanistes) ، فى كل العصور وبخاصة فى عصرنا ، يرغبون فى أن تتطور الإنسانية ، لا كأفراد ، ولكن كنوع ، أى أنهم يطمحون فى نموذجى يماشى صيرورة الحضارة المشتركة ، ويشمل الأبعاد المادية والفكرية والروحية ، فى آن واحد . إلا أن المحصولات الفكرية

---

(6) ويزيد القرآن ، فى آيات أخرى : بأن « الله لا يحب المفسدين » (64:5) ، وبأن الدار الآخرة : « نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً » (83:23) ، كما يأمر : « أحسن ، كما أحسن الله إليك ! ولا تبغ الفساد فى الأرض » (88 : 28)

والتقنية قد طغت على المحصولات الخلقية . لقد أصاب (أفلاطون)، فى «الجمهورية»، عندما اعتبر الثقافة خيراً مشتركا بين الجميع، وسخر من السوفسطائيين : «الذين امتهنوا توزيع الثقافة، وكانوا يزعمون بأنهم يضعون المعرفة فى الأرواح الفارغة منها، شأن من يبعث النور فى العينين المطفأتين ! . . » (الكتاب السابع، 518 ج).

الثقافة لا تكتسب أية قيمة إلا إذا اهتم المثقفون بمصالح مجموع البيئة البشرية وجعلوها موضوعاً لنشاطهم، متخلين عن « أبراجهم العاجية » ، « ليشاركوا فى الخدمات التى لا تقدر دائماً تقديراً مشرفاً » (افلاطون، نفس المصدر السابق 519، د).

* * *

يتخبط عصرنا فى مأساة الشذوذ، ذلك أنه كلما نمت الصناعة الثقيلة وتضخمت، أبدت تناقضات مفجعة قد تودى بالإنسانية جمعاء . يكفى أن نذكر، هنا، بعض الأمثلة لنأخذ فكرة واضحة عن البؤس المفجع الذى يحياه الكثير فى عهد الحضارة الصناعية .

عرفت بلدة (ليون) بفرنسا، فى القرن الماضى، مآسى، منها استخدام النساء 12 ساعة فى اليوم، وتشغيل صبيان لا يتعدى سنهم 11 سنة، مما كان يسبب لهم أمراضاً كثيرة ويخل بأجسامهم الناشئة . وتوجد أمثلة أخرى ليست أقل دلالة، مثل التى يثبتها بحث أجرى، سنة 1842 فى إنجلترا، عن أوضاع العمال من النساء والأطفال، داخل مناجم الفحم . وقد أرفق الباحثون تقريرهم بصور تجعل الناظر إليها يصاب بدوار أليم . هنا نتساءل فيما إذا كانت

الحياة تستحق أن تعاش بالنسبة لهؤلاء الأولاد الذين قست عليهم الأيام ، فى مرحلة مبكرة من عمرهم ، وبالنسبة لتلك النسوة اللائى أرغمن على ترك منازلهن وأطفالهن ، (وفى الغالب محبة أطفالهن) ، للتوجه إلى حفر سوداء ضيقة لا تتوفر فيها الشروط الصحية . وتظهر لنا إحدى تلك الصور امرأة تجر عربة من الفحم ، فى ممر منخفض لا يسمح لها أن تعتدل فى مشيتها ، فتضطر إلى الحبو على اليدين والركبتين لإنجاز عملها الشاق (7) . هكذا أصبح محتماً على الإنسان فى عهد الحضارة الصناعية أن يسير على أربع ! . .

تذكرنا هذه الصورة بعمال آخرين ، فى مجتمع آخر ، هم صناع الزجاج فى مصر القديمة (2500 عام قبل المسيح !) . فالماضى ما يزال ممتداً فى أشكال أخرى ، وان كانت أقل ضراوة ... إذا كان عدد ساعات العمل قد خفض ، فى بعض الدول الغربية ، فالأمر ليس كذلك فى جميع الدول . فمثلا ، نجد القانون الذى يحرم تشغيل الأولاد أكثر من عشر ساعات فى اليوم ، داخل فرنسا ، لا يرجع صدوره إلى أبعد من سنة 1898 ! وهذا القانون لا يطبق فى المستعمرات ، وفى كثير من شعوب العالم الثالث ، حتى فى سنة 1970 ! ...

ومما لا شك فيه ، أن أخطار العمل قد قلت نسبتها ، إلا أنه ما زال هناك حشد العمال فى الأماكن غير الصحية ، وفى « مدن القصدير » بالمراكز الصناعية ومازالت الفيضانات تكسح مساكن العمال ، ومازال الخطر منتشرا فى المناجم ، مثل فاجعة (مارسينيل) فى بلجيكا (غشت 1956) ، وفى كندا (نوفمبر 1956 ، وأكتوبر 1958) .

---

(7) انظر : مقال عن الثورة الصناعية فى Hutchinson Encyclopedia :

ان هذا النشز ، هذا التناقض الأليم ، بين مأساة العمال ونمو الصناعة ألا ـ منقطع ، يضع أمامنا ، مرة أخرى ، مشكلة القيم التي تأسست عليها الحضارة الصناعية الحالية ، ومشكلة الخلل القوى الذى يزعزع انسجام وكيان الشخصية الإنسانية ، مما يجعل الكائن البشرى ، فى القرن العشرين ، لا يقود حياته الأخلاقية بنفس المهارة التي يدير بها أعماله وآلاته . ومن ثمة ، فإن هذا الوضع المصيرى يتطلب مفاهيم جديدة وموحدة للحياة ، وللشغل ، وللحضارة .

* * *

كان المثقفون ، فى القرن التاسع عشر وإلى أوائل القرن العشرين ، معجبين بالتقدم الحضارى ، فعبروا عن حماسهم وغبطتهم فى شيء من الوجد الصوفى حيث أيدوا أفكار (سان سيمون) وأتباعه ، «والوضعية » ، سواء التي نادى بها (أو جيست كونت) أو (ستيوارت ميل) أو (ليطرى) أو (سبانسر) أو (رينان) ، كما أيدوا مذهب التطور ، والارتجال العلمى المتطرف [8] قبل أن ينساقوا مع تيار التفاؤل الذى امتاز به إذ ذاك المفكرون الأنجلو ساكسون ، من أنصار المذهب البراغماتى ، خصوصاً (فورد) و (طيلور) .

وبالرغم من ردود الفعل العنيفة التي شنها أمثال (بو طرو) و (برجسون) (وموريس بلونديل) وغيرهم ، فإن طفرة الصناعة والعلم والتقدم ، قد ظلت مزدهرة إلى أن وقعت الأزمة المشهورة ، أزمة سنة 1929 المعروفة بـ«اليوم الأسود» (24 أكتوبر The black Day) والتي زعزعت دعائم الرأسمالية الصناعية .

---

(8) نقصد (le seientisme) ونقترح ترجمته بـ « التعلم »

كان (إما نويل مو ني) وأصدقاؤه الشخصانيون أول من أحس بخطورة هذه الأزمة ، فحاولوا أن يستخلصوا من عواقبها خطاطات لعمل الإنقاذ ، فأسسوا سنة 1932 ، « حركة الفكر » ومجلة تحمل نفس الاسم (Esprit) . وفى تلك السنة ، أيضاً ، ظهر أهم كتاب لـ (برجسون) «منبعا الأخلاق والدين» ، حيث عنون المؤلف آخر فصل بـ « ملاحظات أخيرة» . ويحتوى هذا الفصل على إنذار يمتاز بتنبئه وصدق لهجته :

« إن الإنسانية تئن ! فالتقدم الذى أحرزت عليه يكاد يسحقها . إنها لم تع تمام الوعى أن المستقبل يتوقف على إرادتها . فالأمر يرجع إليها ، أولا وأخيراً . عليها ، وعليها وحدها ، أن ترى ، قبل كل شيء ، هل تريد أن تستمر فى الحياة ، وعليها أن تتساءل، بعد ذلك ، هل تريد أن تحيا فحسب ، أم ، على العكس تود أن تبذل الجهد اللازم لتتحقق ، على أرضنا المتمنعة هذه ، الوظيفة الأساسية للكون ، وهى أن الكون آلة لصنع الآلهة » .

غير أن الكون ، وبخاصة منذ مطلع القرن العشرين ، لم يعد يتجلى كـ«آلة لصنع الآلهة » ، بل كعالم أمست معاييره الأولى هى العمليات البنكية ، والمزاحمات التجارية ، حيث تحبك الأزمات ، وتشن الحروب الاستعمارية — الأمبريالية ، والحروب « الأهلية » ، وحروب الإقصاء والنفوذ ، ... دون أن ننسى الحروب الباردة ! ..

* * *

حقاً ، إنها مفارقة ، وتناقض مفجع ! فى سنة 1815 ، مثلا ، كان السلم هو الشرط المرتجى ليتسنى للصناعة أن تزدهر ، وللإنتاج أن ينمو ويتضاعف . أما اليوم ، فإننا نجد بعض رجال الصناعة لا يتورعون عن تحبيذ قيام الحروب لأنها،

فى رأيهم ، فرصة للازدهار الصناعى وللربح ! ولا يفوتنا أن نشير إلى التصريح المهول الذى أفضى به عضو فى الكونغريس الأمريكى ، قائلا : « نفضل الحرب على الأزمة ! » . ومنذ هذه الصيحة المؤلمة والنكبات تتوالى . واليوم تأتى القنبلة الذرية ، والقنبلة الهيدروجينية ، والإنسان الآلى ليطرحوا ، من جديد ، موقف القيم الأخلاقية من الصناعة ، أو بصفة أعم ، من الأبحاث العلمية . لكن ، هل يجب علينا أن نفرط فى التشاؤم لنصرخ ، مثلما فعل (جوزيف كايو Caillaux) : « قيدوا ابرو ميثيوس الجديد . أوقفوا تيار العلم ! » ؟[9].

الواقع أن صياغة السؤال ، على هذا النحو ، لا تضع المشكل فى إطاره الحقيقى ، إذ لا يمكن أن ندين التقدم، إجمالا ، دون أن نقع فى الخطإ : حقاً، إذا انحط العلم ، أحدث انحطاطه أثراً سيئاً فى قيمنا وعاداتنا الأخلاقية والمجتمعية. لكن، ليس معنى هذا أن الشر يدخل فى تكوين العلم ، فالعلم وسيلة وليس قضاء غاشما وقدراً محتوما . فى الواقع ، إن الكثير من رجال السياسة ، وبعض العلماء ، يستعملون النتائج العلمية فى غير ما وضعت له ، فيسيؤون إلى الحضارة وإلى الإنسانية ، بل وحتى إلى العلم أيضاً . فالعلم إنما هو طرق للوصول إلى معرفة الواقع ، وليس غاية فى ذاته : إنه محايد . فعندما أخذ النازيون الملايين من السجناء وأجروا عليهم تجارب «علمية» ، كما تجرى عادة على الحيوانات ، كانوا واعين لما يفعلون . فالإنسان ، إذن ، هو الذى ينحرف بالعلم عندما يسخره لأعمال تتنافى والكرامة الإنسانية .

---

(9) (Prométhée — ابروميثيوس) : بطل أسطورى ، فى الميثولوجيا اليونانية ، أتى إلى البشر بهدية ثمينة ، هى النار ، ففتح بذلك طريقاً للتقدم وللمدنية .

الحديث الرابع

لاداعي لتقييد (ابروميثيوس) !

كثير من المحدثين يتشاءمون من التقدم الحضارى المعاصر ، ظانين أن خلاص النوع البشرى فى إيقاف نشر العلم والتقنيات . لذا نراهم ينادون ، مع (جوزيف كايو) ، بضرورة تكبيل (ابروميثيوس) .

رداً على (جوزيف كايو) نجيب بأنه لا داعى لتقييد (ابروميثيوس) ، فما نحن فى حاجة ملحة اليه ، هو أن نتعلم كيف نحمى أنفسنا من عبث الذين يعملون على تحجير الحضارة وتحويلها إلى وسائل تقنية للإنتاج لأكثر ، جاعلين العلم مجالا للبحث عن وسائل لإرضاء إرادة السلطة والشعور بالعظمة ، فحسب . علينا أن نوجد قوانين تمنع القوة من أن تحل محل الحق وتتيح للعلم أن يؤدى دوره فى خدمة الناس أجمعين . ومتى حققنا ذلك ، لن يعود التقدم مرادفاً لسيطرة أقليات على أكثريات ، بل ترقية النوع البشرى ، وتحسين سلوكه والاستجابة الشاملة لميله الطبيعى فى التعالى . لا نريد من ذلك أن نوقف سير التقدم التقنى الذى هو سير ضرورى ، وانما نريد أن ننبه إلى ضرورة الاهتمام العاجل بإيجاد إصلاحات أخلاقية ومجتمعية ، على الصعيد العالمى ، تطابق التطور الصناعى والتقنى الذى حققناه . فاذ لأمرن يتعلق بوجوب اعتبار التقنيات ، دائماً ، مجرد وسائل مسخرة لإسعاد الإنسان ، لا غاية فى ذاتها .

* * *

حقاً ، إن التقدم التقنى يقضى على الجوع ، إذ يندر ، فى وقتنا ، أن يموت أحد جوعاً فى بلاد صناعية . لا أنه ، إذا كانت أغلبية الناس تعيش فى أوضاع أفضل بكثير من تلك التى كان يعيش عليها أجدادهم ، فانهم يعرفون ، اليوم ،

ألوانًا أخرى من البؤس ، مثل البطالة وتضخم الحاجات التى تظل غير مشبعة عند السواد الأعظم .

لم تقدم الأنظمة الرأسمالية حلولا لتجنب الأزمات ، عيبها الأكبر ، هو المزاحمة الجنونية التى كثيراً ما انتهت بنشوب حرب ، أو سحق شعوب برمتها للاستعمار والاستغلال . وهنا يكمن أساس المأساة الراهنة[1] . ومما يبعث على القلق ، أنه قد انتاب إنسانية اليوم (وقد دخلت العهد النووى) جنون التسابق والمزاحمة أكثر من دافع الحماسة . يدل على ذلك ، أن الولايات المتحدة ، التى تعد فى طليعة هذا الميدان ، تعتقد « أن الحرب وحدها هى الكفيلة بالقضاء على مشكلة البطالة التى لم يستطع برنامج (روزفيلت) أن يحلها . فالولايات المتحدة تعلم ، أيضاً ، أن هذا الخطر محقق حتما ، إذا عم السلام ، لأن التقدم التقنى يعمل على مضاعفة المصانع الحربية »[2]

* * *

من غير شك أن السبب ، فى هذا الاضطراب وفى هذا القلق ، يرجع فى جزء كبير ، إلى الفوضى الأخلاقية والاقتصادية التى تسود بيئاتنا ، إذ نظم الحياة السياسية والاقتصادية لم تحدد بعد أهدافًا لخدمة الإنسانية تحديداً صادقًا واضحاً . فأجهزة التوزيع غير منسجمة مع وسائل الإنتاج المتزايدة باستمرار .

فلكى نصل إلى حضارة حق ، ذات طابع إنسانى ، يتحتم علينا أن نعيد النظر ، بصفة عامة ، فى الوسائل الفكرية والمجتمعية المطبقة داخل بيئاتنا .

---

(1) انظر كتابنا : « أحرية أم تحرر ؟ » ، من ص 119 إلى 181 ، باريز (أوبى) ، 1956 . (النص العربى : تحت الطبع ، دار المعارف ، القاهرة)

(2) André Ribard, La prodigieuse histoire de l'humanité, Paris, ed. Petit Luxembourg, 1956, p. 665.

إن الحضارة ليست مثلا أعلى ، ولكنها أمر واقع نحياه . ومع ذلك ، فان العدد الأكبر بيننا يفتقر إلى الكثير من الضروريات في حين أن أقليات تكاد تختنق رخاء ! وبقدر ما تواصل الحضارة سيرها ، بقدر ما يضاعف التطور خطواته . وإذا كانت معلوماتنا العلمية ، ووسائلنا التقنية ، وطرق الإنتاج والتوزيع تتغير دوماً ، فان أخلاقنا تظل ثابتة جامدة . فرغم التقدم الذى حققناه ، في جميع الميادين ، مازلنا بعيدين عن الحضارة ، كما حدد مفهومها (كوندورسي Condorcet) بقوله : « كلما انتشرت الحضارة في أرجاء العالم ، تلاشى شبح الحرب ، وقلت مظاهر الاستعباد ، مثل الرق والبؤس » (عن كتاب « حياة فولتير » سنة 1789) .

* * *

إننا أمام اختيار غامض مفجع : إما أن يستمر هذا الطلاق « البائن » بين الأخلاق وتطور الصناعة اللامنتهي ، فتستمر حضارتنا زوجة لشبح الإفلاس وإما أن تتطور فيحصل الإنقاذ .

يثير الجانب الثانى ، من هذا الاختيار المرير ، مشكلة عويصة . فعندما يطرأ تغير على المبادىء الأخلاقية ، لا تعود أحكامنا عن الخير والشر ولا شعورنا بالواجب مرتكزة على أساس وطيد . ومع ذلك ، فإن للتاريخ منطقا يقضى على الأخلاق بأن تعمل ، دائما ، على ضبط التوازن فى هذا العالم المتغير دون توقف ، فإن هي لم تفعل (أى إن الأخلاق لا تساير التطور) أصبحت الحضارة مجردة من الجانب الدينامى المبدع ، وصارت فى تدحرج إلى الاندثار .

إن قانونا صارماً يحكم على كل ماهو إنسانى بأن يتقدم أو أن يتقهقر ، فالتاريخ لا يعرف السكون . وليس الخطر فى تغير المبادىء الأخلاقية بقدر ماهو فى دوامها ثابتة . يحصل الخطر من إقامة قواعد تعتبر خالدة ، مع أنها فى محيط مؤقت ومتغير باستمرار . ومادامت الأخلاق من القوى الأساسية التى تسير الحياة الشخصية للإنسان ، وتنظم علاقاته مع الآخرين ، وجب أن تكون قابلة للصيرورة ، مثل بقية الأشياء التى لها علاقة بالإنسان وبالمجتمع .

* * *

بفضل هذه النسبية الظاهرة ، تلتصق الأخلاق بالتاريخ كامل الالتصاق ، وتساعد على تعميق المعانى والأبعاد الإنسانية وتوسيعها . من هنا ، فيما يظهر لنا ، تأتى علاقة « الفلسفة الشخصانية » « بالواقعية » لأن قانون الإصلاح المستمر يطبق ، سواء عن رضى ، من جانب العلم والدين ، والأخلاق ، والفلسفة ، أو بالرغم عن معارضة العلماء ، ورجال الدين ، والفلاسفة ، والأخلاقيين .

إلى جانب مبادىء الأخلاق « الكلاسيكية » العالمية (مثل محبة الغير ، وكبح الشهوات وإتيان المعروف ، ...) ، هناك مبادىء أخرى فرضتها متطلبات خاصة بعصرنا ، مثل الدفاع عن السلام ، والتسامح ، ومحاربة التعصب العنصرى والفكرلوجى ، والنعرة الوطنية الضيقة ، ومثل توفير حق العمل والثقافة للجميع [3] .

كلما تشبثت الأخلاق بالجمود ، أمام التطور الهائل للعلم والتقنيات ، أدارت

---

(3) لذا يفرض الإسلام على خطباء الجمعة والعيد أن يطرقوا موضوعات الساعة، طبقاً لقانون التكيف المطرد .

الإنسية (L' humanisme) ظهرها للحضارة التى نصفها بـ « الحديثـة » ، أو « الغربية » ، أو « الصناعية » . يقول (موني) : « إننا نتـكلم عن التقدم عند ما يكون هناك تقـدم من أجل الإنسان ، ليستـكمل كينونته وسعادته وعدالته » [4] ، أى تقـدم يعمل على تحويل « الاشتراكية التقليدية » إلى « اشتراكية جديدة » [5] .

* * *

رغم مظاهر عديدة للتقدم لا يمـكن نـكرانها ، تشعر الإنسانية بأمارات إفلاس الحضارة ، من بعض الجوانب فى مرحلتها الحاليـة . إن مسئولية كل ذلك تتحملها الفلسفـة التى لم تضطلع بمهمتها كأداة ديناميكية للتواصل بين القوة الثقافية التى تعيش فى ثورة متصـلة ، وبين القوة الأخلاقية الجامدة التى تلفظ أنفاسها الأخـيرة . إن الفلسفـة ، بعد أن تخلت عن رسالتها كحـكمة ملتزمة مكافحة ، لم تعد قادرة على حفظ التوازن الضرورى بين مجال المبادىء الأخلاقية التى تعطي للحياة محتواها الإنسانى من جهـة ، وبين المجال الحيوى المادى الذى يتيح للمجتمعات أن تتـكون وتقوم ، من جهة أخرى .

لقد فقـدت الفلسفة اتجاهها الطليعي الخلاق ، نتيجة لتنازلها عن مهامها الطبيعية ، ولجوئها إلى الحلول الوسطى العربية الـكسلى . ولذلك انحدرت الى أسفل ، حتى أصبحت ذيلا تابعـا للأنظمة السياسية القائمة . نعم ، لم تعد رقيبا وشاهدا منيرا للجهد من أجـل إيجاد التلاؤم ، والإصلاح والتفـكير التقويم ، كما أنها لم تعـد مجهودا للتحليلات الـكاشفة للأوضاع وتدعيم القيم ، بل باتت

---

(4) Rencontres internationales de genére, 1947, p. 198.

(5) Jean Lacroix, Socialisme, Paris, p. 21.

تتنكر لوظيفتها الأساسية ، فانغمست فى الشعوذة ، وأكثرت من الأصباغ فوق وجهها لتلمع فى الأضواء الاصطناعية ، وكأنها مومس أمام مرآة مشوهة .
نعم ، قد أصبحت الفلسفة مسالمة تتحاشى إثارة الزوابع والاصطدامات ، متجنبة كل خطر ، حتى أضحت (قصدت ذلك أم لم تقصده) مبررة للظلم والطغيان (بل هى نفسها التى توجد فكرلوجيات لتبرير ذلك ، أو ، على الأقل ، تغمض عينيها عن كل مايدور حولها) . وأحيانا ، تكتفى الفلسفة بأن تقدم احتجاجا بسيطا ، فى الأشكال المقبولة ، بصفتها سيدة مواطنة ذات مستوى مرموق ، وكأنها فى ذلك تشبه الصورة التى وردت فى الكتاب المقدس عن محاولة إسقاط أنياب الأسد بالمسح على ظهره باليد !

* * *

إن دور الفيلسوف ، بصفته شاهداً ، ورقيباً أخلاقياً ، ومصلحاً ، ومناضلاً ، لا يتجلى ، على حد تعبير (فرانسيس بيكون) : فى كتابه أشياء ، خلال الفراغ ، لتقرأ فى أوقات الفراغ ، ولكن مهمة الفيلسوف هى إيجاد أسلحة للحياة النشيطة »[6] .

هذا الالتزام يتطلب كرما وشجاعة ، والشجاعة ، كما يفهمها (جوريس) هى البحث عن الحقيقة و إعلانها.[7] إن الشجاعة ترفض قانون الكذب المنتصر العابر ، وترغمنا على أن نرفض تسخير أرواحنا ، وأفواهنا ، وأيدينا ، للتصفيقات الجوفاء والهتافات المتعصبة .

---

(6) F. Bacon, De Augomentis, 1, 7, p 715,

(7) Jean Jaures, « Discours à la Jeuresse », Paris, Rieder, 1928 (Pages choiries).

نجد فى القرآن دعوة إلى التوازن الواقعى الذى يبتعد عن الطرفين المتناقضين، أى عن الزهد الخالص وعن العبادة العمياء ركوعا أمام عجل الذهب :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض .

وابتغوا من فضل الله » (62 : 10) .

ويحضنا القرآن على ألا نترك المال يسيطر علينا ويستعبدنا ، مثلما حصل لقارون :

« إن قارون كان من قوم موسى ، فبغى عليهم .

وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة .

إذ قال له قومه :

— لا تفرح ! إن الله لا يحب الفرحين

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة !

ولا تنس نصيبك من الدنيا ،

وأحسن ، كما أحسن الله إليك ،

ولا تبغ الفساد فى الأرض !

إن الله لا يحب المفسدين » (28:76) .

* * *

من المؤسف جدا أن نرى أمم اليوم تصيح ، بملء حلقومها ، مثل شعب موسى ، دون جدوى ، معلنة غضبها لتحذر القادة الذين ما فتئوا ، مثل قارون الفرح المغرور ، يقدمون كل ما هو إنسانى قربانا إلى معبد الإله القاسى المشؤوم

ذى الأوجه المختلفة ، إله عصرنا الحديث : الإنتاج ! الربح ! المال ! التملك!..

فلكى ننقذ الحضارة ونعطيها طابعها الإنسانى الأصيل ، ومعناها المشروع الأولى، يتحتم أن نرفض عبادة الصنم العتيد ،الإنتاج للإنتاج داخل نظام المزاحمة ، فيقتصر معنى المال على دوره الحقيقى : كوسيلة للتبادل لا غاية فى ذاته .

علينا قبل كل شىء أن نجرد أخلاقنا من بقايا تأثير مذهب النفعية الذى دعت إليه المدرسة الإيكوسية ، فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأتباعها الذين يعتبرون الحضارة على صلة مستمرة وقوية بالثروة المادية (أو كما يقال اليوم : على صلة بنجاح وازدهار العمليات التجارية) . وبصفة عامة ، يجب أن نحذر النزعات الفردانية التى تجعل من المصلحة الشخصية أساساً لجميع القيم ، سواء فى ميدان المعرفة أو فى ميدان العمل . فمثلا ، يعتبر (آدام سميث A. Smith) أن العمل أساس للثروة ، ولكنه يزيد بأنه يجب ، أيضاً ، اعتبار المزاحمة أساساً طبيعياً لسير الاقتصاد، وأن هذا المبدأ لا يجوز ، مطلقاً، إخضاعه لأى قيد . ويرى (Bentham بانثام) أن القاعدة الوحيدة التى يسير عليها سلوك المرء هى الفوائد الخاصة بهذا المرء .

* * *

الواقع أننا نساهم فى الحضارة الإنسانية عن طريق الثقافة (فى معناها الواسع)، وهذا ما يشير إليه(ديدرو Diderot) فى قوله : « ان تثقيف أمة يساوى تحضيرها، وحرمانها من المعارف معناه إرجاعها إلى البدائية لأن الجهل مشترك بين العبد والمتوحش » [8] . كما نجد (كانط) ،يقرن نمو الثقافة بتقدم العقل ، أى بارتقاء ضرورى من أجل تحقيق السلام بين جميع الشعوب ، وهو الهدف الأسمى

(8) Oeuvres, ed. Assegat, t 3, p 429.

للحضارة . لذلك يعتقد (كانط) أنه يجب تعويض العاطفة بالقانون ، وتأسيس دستور عالمى .

* * *

منذ قيام الآلية الحديثة ونمو التقدم التقنى العتيد ، أخذ الغرب يعمل على توسيع انتشار الفردانية ، بكيفية تبعث على التملق . يجدر بنا أن نؤكد بأن هذه الفردانيــة ليست قاصرة على البورجوازية ، بل أنها تفـــرخ ، أيضاً ، عند كثير من البروليتاريين ! .. فمثلا ، نلاحظ أن ملتمسات وشعارات النقابات العمالية كثيراً ما تنصب على مطالب مادية عاجلة لا تتعلق إلا بالبروليتاريا القومية ، فى الدولة الواحدة ، ولا تهتم أحياناً إلا بجزء خاص من هذه الطبقة . وبالتوازى مع الفردانية ، قد أنجبت الصناعة الحديثة نظاماً تزاحمياً أعمى ، وفرضت مذهباً أمبريالياً استغلالياً عدوانياً .

هكذا ، علاوة على الحــــروب الاستعمارية التى ترافق الإمبريالية فى كل مراحلها ، كما يترافق الشىء مع ظله ، نستنتج من معطيات الواقع ، أن حضارة المدن قد أفلست ، أو على وشك الإفلاس . إلا أن هناك من يحاولون تبرير الأمبريالية بأن الاستعمار يحمل رسالة حضارية لكنهم ينسون أن الواجب الأساسى لحضارة المدن (التى تعتبر الأمبريالية ابناً لقيطاً بالنسبة لها) هو أن تقوم بالدفاع عن حرية الشعوب . أليست المدن ، كما عرفها (ليترى Littré) : « الأراضى التى يحكم فيهـــا السكان أنفسهم بقوانينهم الخاصة ؟ » [9] . لقد ظهر مرض

(9) القاموس ، جزء 1 ، ص 630 .

الأمبيريالية العضال منذ نشأة حضارة المدن [10] . ومن هـذه الفترة وهى تحسن مناهجها ، وتوسع انتشارها ، خصوصاً مع تطور ونمو الرأسمالية الصناعية .

* * *

إننا لا نريد هنا أن نتحدث بتفصيل عن الأمبيريالية ، فقد تكلمنا عنها فى مكان آخر [11] . بل كل غرضنا أن نشير إليها بصفتهـا إحدى مظاهر التناقض والإنذار فى حضارة المدن . فنحن وإن كنا لا ننكر أن الصناعة الثقيلة قد أعطت فوائد جمة ، نطرح السؤال الآتى :

إلى أى حد أفادت الإنسانية من التقدم الذى حققته ؟

إنها كثيراً ما كانت تخدم مصالح الأقلية على حساب الأغلبية . نجد مثلا النقابيين فى أمريكا الشمالية ، وهي أغنى دول عالم اليوم ، يتطلعون إلى مستقبل باسم ، ولكنهم فى نفس الوقت لا ينسون الحاضر ، هذا الحاضر الذى وصفته (كلود جوليان) فى جريدة (لوموند ، فى يوليو 1956) بأنه :

« يشتمل على الأكواخ القذرة فى حى (بورتوريكان) ببلدة (نيويورك)، وعلى المساكن غير الصحية فى (شيكاغو) حيث تتكدس ، كل شهر ، ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف من السود (...) ثم هناك التناقض الناتج عن وجود أمريكا جد ثرية فى عالم تعيش فيه الملايين من الجائعين » .

* * *

---

(10) للتوسع فى موضوع الاستعمار عند الاغريق ، يمكن الرجوع إلى كتاب :

E. Miréau « les poémes homériques et l'histoirè grécque,» Paris, Hachette.

(11) انظر كتابنا Liberté ou libération? من ص 165 إلى ص 168 ، أوبيي باريز .

لقد سمحت الأخلاق للفردانية وللمزاحمة أن تصيرا من أهم خصائص التمدن المعاصر ، لأنها بقيت ثابتة جامدة . كما أن الحروب الناجمة عن هذه الوضعية بلغت درجة عالية من الإتقان والكمال أمسى معها مصير النوع البشرى مهدداً ، باستمرار ، كلما احتدم الصراع بين الدول . هكذا أصبحت كل الشعوب تعيش فى خوف مزعج لا ينقطع .

لقد آل الأمر بالحضارة إلى تخلف الأخلاق وعدم مسايرتها للتقدم الفكرى والتقنى ، فاستمر الانحطاط يتفاقم ، كما آل الأمر بالأخلاق ، وقد جف معينها ، إلى أن تجعل الحضارة تائهة ، تتعثر . ذلك أنه صار بالإمكان محو دول كاملة ، فى رمشة عين ، وأضحت قوة المال هى التى تفرض القوانين ، فارتبطت القيم بتغيرات الأسواق ومتطلبات الآلة ، وانحط الضمير الإنسانى ، وأشرف عالمنا على الإفلاس ، نتيجة لتقدم أساليب الطغيان والكذب .

الحديث الخامس

مهام ينبغي الاضطلاع بها

فى البداية ، كان البعض يعتقد ، خطأ ، أن الفرد ملزم بأن يضطلع بواجبات نحو نفسه ولفائدته فحسب ، متجاهلا أن الإنسان مجتمعى بطبيعته . لذا يفرض الإسلام على كل واحد منا أن يكون على وئام مع ضميره ، وفى ذات الوقت يلزمه أن يؤدى واجباته المجتمعية باعتباره من أعضاء أسرة ومعشر وأمة .

ان الرضى الساكت المتخاذل ، أمام العبودية التى تهشم القيم الإنسانية وتعوق تأنسن العالم والثقافات ، قد أدى إلى نشوء الفردانية كنسق للسلوك ، أى بوصفها القاعدة المعتمدة فى الأخلاق العملية والنظرية ، فكثيرا مانرى من ينجح فى تدعيم مكانته المجتمعية يعوق الآخرين عن التفتح ، ويجعلهم يتقاعسون عن الاندفاع برغبة صادقة نحو المنجزات الجديدة ، وتحقيق مجتمع إنسانى يسوده الإخاء . يقتصر الوصوليون على العيش فى الترف والرخاء ، وفقا لميولهم الفردانية الأنانية . فهم لايتقدمون على الشكوى أو الاحتجاج إلا عندما تعرض مصالحهم الخاصة للمضايقة أو الضرر ، وإذا بالحضارة الصناعية تسحق أغلبية الناس ، على مرأى ومسمع من الخاصة ، بلا رحمة ولاتمييز ، تحت وطأة الظلم ، والتفاوت ، والأنانية .

لقد فكرت الحضارة الصناعية فى كل شىء ، ماعدا الإنسان ، ولم تمنح الأخلاق إلا القدر النزر من اهتمامها . فالإنسان ، هذا المبدع الأول للثقافات ، والعنصر الفعال فى الحضارة ، لم يعد يعتبر الغاية من الثقافات والحضارة ، بل نظر إليه كوسيلة للنمو الاقتصادى ، وكمجرد « يد عاملة » أى قوة من بين القوى الآلية المنتجة صناعيا . فالمبادىء الأخلاقية والأسس الفلسفية التى تعكس

نظرتنا إلى الإنسان أضحت غير صادقة ، منذ تعودنا أن نسلخ عنها فى علاقاتنا بالآخرين ، داخل عالم الإنتاج والشغل : إننا نحيا على معايير تتغير حسب قانون « العرض والطلب » الذى يسير عليه نظام الاقتصاد الحر والمزاحمات .

* * *

هكذا وجد الإنسان نفسه وسط الدوامة الآلية التى لا ترحم ، وكأنه جزء منها ، وأوشك أن يصير الآلة النموذجية فى الحضارة الصناعية : قذف بنفسه فى هذه المدنية التى تلتقى فيها العمارات الضخمة ، والقصور ذات الهواء المكيف وكل أسباب العيش الرغيد ، بالأكواخ ؛ بالجرائم ؛ بالمصفحات ؛ بالقنابل . والأتون التى تحرق فيه الأشخاص حية . فما أكثر وأفظع أنواع التنكيل ، والتعذيب التى عرفتها الحرب العظمي الثانية ، والحروب الاستعمارية !

* * *

لقد كان رد فعل الشخصانيين على هذا الوضع المؤلم من أوعى الردود وأبلغها أثراً ، ذلك أنهم أبرزوا أهمية النزعة المجتمعية التى يمتاز بها الإنسان ، فميزوا بين الفرد والشخص ، وأزالوا الالتباس الناجم عن الخلط بينهما ، كما أكدوا وجود وحدة بين الشخص والمجتمع : « إذ ليس المجتمع سوى أشخاص يكونون معشرا يرتكز ، فى كيانه ، على جماعة إنسانية »[1].

---

(1) E. Mounier, Rèvolution personnaliste et communautaire, Paris, Montaigne p 91,

ويمكن الرجوع أيضاً إلى كتابنا :

De l' Etre a la Personne, pp 102, 155 a 230 et 306 ā 316.

كان الإسلام محقا فيما أعطى لكلمة « أمة » من مدلول خاص : فهى ، فى نظره ، ليست مجـــــرد جمهرة من الأفراد ، بل ، على العكس ، إن الأمة ، نظام فكرلوجى وسياسى وعاطفي تنضوى تحته معاشر من الأشخاص . يطلق هذا التحديد على مفهوم الالتزام السياسى ، والالتزام المجتمعى على العموم ، بمعناه الحصرى الدقيق . لذا يركز الإسلام أسس الحياة المجتمعية على مبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . وبحكم هذا المبدأ ، ينبغى لكل شخص أن يسهر على حسن سير الأخلاق فى المجتمع الإنسانى :

« ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ،

ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ،

وأولئك هم المفلحون » (3 : 104) [2] .

لا بد هنا من الاعتراف بأن بعض المسلمين يسيئون ، أيما إساءة ، القيام بهذا « الالتزام » النبيل الذى فرضه الله على المؤمنين ، وذلك بسبب المعارضة بين العقل والإيمان التى اصطنعها الجامدون ممن نصبوا أنفسهم « رجال الدين » ! ونعنى بهم أولئك الذين يعتبرون أنفسهم الممثلين الرسميين للإسلام ، دون أن تتوفر لهم الكفاءات الضرورية للاضطلاع بهذه المسؤولية [3] .

لقد جعلوا العقل والإيمان متناقضين ، ناسين أن الدين ، فى صميمه ، يعمل

---

(2) أما فيما يخص الشخصانيين ، من جماعة « Esprit » ، فلم يوجهوا مجلتهم نحو خدمة الثقافة والإخبار ، كما تفعل جل المجلات ، ولكنهم أرادوها لسان حركة ذات مواقف (سياسية ومجتمعية) من ما جريات العالم .

(3) زيادة على أنه ليس للإسلام « رجال دين » ، ما دام ديننا للجميع وما دام جميع المسلمين والمسلمات « أهل الدين » .

على تناول الواقع الإنساني بكليته ، فيزود وظائف الحواس انتظاما وانسجاما ، عن طريق العقل ، أي أنه يطالب بتطبيق مبدأ « الاجتهاد » الذيهو أصل من أصول الإسلام .

* * *

.. وما الاجتهاد ؟

انه الجهد العقلي الذى يبذله الإنسان لتأويل نصوص القرآن والسنةوتطبيقها على الأوضاعالجديدة ، انسجاما منه وتكيفا مع البيئة التى يحيا فيها . فالاجتهاد ، إذن ، كفيل بالقضاء على ذلك التنافر الذى يوجد بين نوايانا وأعمالنا ، أى بين الأخلاق المبدئية (النظرية) التى تلتزن لنا ، والأخلاق العملية التى تقتضيها مختلف أصناف النشاط اليومى .

* * *

إذا كان من واجب المسلمين ، كأمة ، أن يمارسوا مبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، فذلك لا يعنى البتة أن المسؤولية أصبحت موزعة شتاتا ، تفرض على الجميع فلا يأخذ بها أحد ، ولا يؤاخذ على نبذها تارك ... كلا ! إن المسئولية تبقى ملقاة على كاهل كل شخص من أعضاء الأمة ، أى أن من واجب كل واحد أن يكون رقيباً على مجموع ما حوله وعلى كل من حوله لحماية سلامة الأخلاق والسلوك المجتمعى العام . هذا التزام يتعهد به كل فرد لخدمة المصلحة العامة ، وينطوى على ثلاث درجات وفقا لمدى إيمان كل شخص وطاقته المعنوية ، كما ورد ذلك فى حديث رواه مسلم ، فى صحيحه :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، (وهنا يفرض على السلطات وضع القوة فى خدمة العدالة والنظام الأخلاقى) ؛

فان لم يستطع فبلسانه (وهذا واجب رجال الصحافة مثلا ، ورجال الفكر والقلم ، والوعاظ ، وكل من له نفوذ معنوى بفضل مواهبه الكتابية أو الخطابية) .

فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (يعنى الاستنكار الباطنى الصامت وهذا يشكل نوعا من الاحتجاج ، أو على الأقل ، رفضا للتواطىء مع الظلم ، وخضوعا مؤقتاً للأوضاع الراهنة ، كراهية لا طوعا، ترقبا لفرصة القول ، ثم العمل باليد) .

ان مبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، إذا ما فهمناه على هذا النحو ، يجعلنا نكون فكرة عن المسلم المثالى . يجب أن يكون رجلا نموذجيا ، أى قدوة حسنة وشاهدا بين الناس ، كما كان محمد نفسه « الإنسان — النبى »، و « النبى — الإنسان » ، وكما كان الصحابة وغيرهم من أعلام الإسلام الكثيرين الذين جاهدوا فى سبيل العدالة ، ليكونوا رسل الدعوة للأخوة الإنسانية . فالحديث النبوى المتقدم ، ينبغى أن ينطبق ، فى نظر الإسلام ، على الجميع : فنحن مسؤولون ، فردا فردا ، وحسب وسعنا ، عن سير العالم .

* * *

لا بد هنا من الإشارة إلى أن الحديث الآنف الذكر تعمد ولا شك لفظة « المنكر » لأن ما فيها من غموض يزيد مفهومها شمولا . إنها تعنى، على السواء، الهفوة ، والخطأ الجسيم ، وكل ما يستوجب العقاب ، والجريمة ، والظلم ، والفسق ، والعمل السيىء ، والتوانى عن الواجب ، والخطيئة . . . وفى أى حال من هذه الأحوال ينبغي على كل عضو من أعضاء الأمة سواء أكان مسلماً أم غير مسلم،

أن « ينهي عن المنكر » . ومن واجباته ، أيضاً ،التجرد من الأنانية والإخلاص فى النوايا :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها .
فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله .
إنه لا يحب الظالمين » (42 : 40)

إن المسلم الحقيقى يتجنب البغي :

« الذين يظلمون الناس ،
ويبغون فى الأرض بغير الحق ،
أولئك لهم عذاب أليم
ولمن صبر وغفر ، إن ذلك من عزم الأمور » (42 : 42 - 43) .

* * *

طبقاً لهذا الاتجاه ، يمكن تأويل الآية التى تقول بأن الله جعل من المسلمين « أمة وسطا » بين سائر الأمم ، ومعشراً من الشاهدين المثاليين الأوفياء للأخلاق السامية :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا ،
لتكونوا شهداء على الناس ،
ويكون الرسول عليكم شهيدا » (2 : 143) .

ولكن ، لكى نبلغ هذا المستوى ، يجب أن يرتضى كل فرد من أفراد الأمة المساهمة فى تطبيق القواعد الأخلاقية العملية القائمة على التضامن ، حسب

قول النبي : « المؤمن للمؤمن ، كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا » . (البخارى) .

يروى لنا البخارى أن النبي كان يشبك أصابعه ليعطى فكرة محسوسة عن متانة التضامن الذى يدعو إليه الإسلام[4] . إنه تعاون مجتمعى ، ولكن فى مجتمع لا تقرب من أفراده لحمة الدم بقدر ما يقرب بعضهم من بعض الإيمان المشترك فى المقاييس الأخلاقية والقيم التى يطعمها الدين ، ويرعاها بقواه المعنوية والإقناعية .

هناك حديث آخر يرويه البخارى يحضنا فيه رسول الإسلام على أن نكف عن الإضرار بالمسلم وبغير المسلم ، كما يحضنا حديث ثالث على أن نكون رحماء، حتى بالحيوان ، لأن « فى كل ذى كبد رطب صدقة » .

* * *

بموجب مثل هذه النظرية الشخصانية ، يسوغ لنا أن نأخذ على الحضارة الصناعية مأخذين :

أولا : أنها وسمت شقة التمييز بين العمل والأخلاق ، وهى تفرقة ورثتها عن « حضارة المدن » .

ثانياً : أنها توانت عن القيام بمهمتها التى تقتضى التوفيق بين ما هو فردى وما هو مجتمعى .

---

(4) طبقاً للاتجاه الإنسانى الشمولى الذى ينبنى عليه الإسلام ، يجوز أن نؤكد أن هذا الحديث النبوى لا يقصد بـ « المؤمن » المسلم فحسب ، بل كل من يؤمن بكرامة الإنسان ويحترم المبادىء المقدسة المشتركة بين البشرية جمعاء .

كان عليها أن تعترف بكون الإنسان هو أثمن مخلوق وأكرمه ، وأنه جزء من كل ، وعنصر أساسي من «بنيان مرصوص» ، على حد تعبير الحديث الذى أوردناه آنفا ، وكان عليها أيضاً أن تساعد كل فرد على تحقيق ذاته بواسطة معونة سائر الآخرين ، وأن يستفيد المجموع من مجهودات كل شخص. لو أنها قامت بتلك المهام لتحسنت الأوضاع البشرية ولتم التقدم فى شمولية إنسانية وتعميم لا يقتصر على الفكر المجرد وحده ، أو على التقنيات وحدها . لقد حاول الإسلام ، نوعا ما ، أن يسكب فى نظام منسجم متماسك ،هذه النظرية الشخصانية التى لما تتوصل الحضارة الصناعية إلى إحرازها . فقد أوصى حديث شهير أن يقيم كل إنسان اتزانا كاملا بين نشاطه الروحي والأخلاقى ، من جهة ،ونشاطه الفكرى والمادى ، من جهة أخرى ، إذ أن الإنسان ليس حيوانا محضاً . ولا ملكا صرفا ، ومن ثمة ، عليه أن يولى عنايته للحياة الدنيا وللآخرة على السواء ، كما قال نبي الإسلام :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا .

واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

تلك هى أسس الأخلاقية الواقعية فى الاتجاه الشخصانى الإسلامى .

* * *

ولكى يبقى الضمير الأخلاقى فى يقظة واعية ، يجب على الإنسان أن يجعل من « النية » أساساً لكل أعماله ، وأن يعترف ، فى نفس الوقت ، بصدى أى نشاط فردى داخل مجموع العلاقات الإنسانية فالخالق لم يرفع قيمة النوع البشرى فوق بقية المخلوقات إلا من أجل امتياز لا تقدر قيمته ، هو حياته الباطنية (الروحية) والأخلاقية :

« ولقد كرمنا بنى آدم ،

وحملناهم فى البر والبحر ،

ورزقناهم من الطيبات ،

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (قرآن 70:17) .

* * *

من الضرورى «لمن يعمل لدنياه ولآخرته » أن يصل إلى توازن قويم فى السلوك ، طبقاً للإشعاع الروحى المتجذر فى الواقع الإنسانى والمجتمعى . فالصوفى الذى يدعى تجاوز ميدان العقل و نطاق الواقع المحسوس ، يقوم بتجربة خاصة ، خيرها وشرها لا يتعدياه ، فلن تكون ، أبداً ، قاعدة مطردة عامة . إن مثلها كمثل تجارب العباقرة والمجانين : فهؤلاء جميعاً يحيون فوق الواقع العام بكثير ، أو تحته بكثير . إن الصوفى ، والعبقرى ، والأحمق ، ليسوا معايير ، وليسوا نماذج : إنهم حالات شاذة . فالكائن البشرى العادى ، الكائن الذى تأنسنت شخصيته ، ترتوى قواه الروحية من معين « التوتر النفسانى» ، كما عند أصحاب علم الظاهرات ، أو « النية » ، كما يسميها الإسلام . إن الفعل ، أى فعل ، يتبلور فى سلوكنا ، ونتبناه ، ونسأل عنه ، لأنه نتيجة للنية . النية تؤنسن الأفعال . وتجعلها أفعال — « نا » . والنية لا تعطى مدلولا للفعل وتربطه بالتفكير الواعى، وبالقوة الإرادية فحسب (لأن الفعل المجانى ، هو أيضاً ، يصدر عن نية) ، بل ان النية أداة وصل وثيق بين عملية التفكير فيما يمكن القيام به ، والإرادة المنجزة ، من جهة ، والضمير من جهة أخرى . لذا ، قال نبى الإسلام :

« إنما الأعمال بالنيات .

وإنما لكل امرىء مانوى » .

لقد فطن المحدثون لما لهذا الحديث من أهمية قصوى ، فصدرت به أغلبيتهم تاليفها .

* * *

تعترى الضمير فترات ضعف ، فى أزمات دورية. فلكى يبقى متيقظا وسويا كان لزاما أن نربى على تكييف أفعالنا تكييفاً يساير نمو ونضج الوعى.لكن ، ماهى الوسيلة ليصبح الشعور بالواجبات ، بالخير والشر ، بالقبح والجمال (ميدان الضمير)يتواصل مباشرة ، مع الميول والرغبات والغرائز،أى مع الوجدان (ميدان السيكلوجيا ، فى مستوى الشعور بأننا أخذنا نشعر) ؟ إن «النية» بوصفها فعالية تجند الفكر والإرادة وتوجهما حسب مبادىء ومقاييس هى المكيف الحق لأفعالنا ، وبالتالى إنها أداة تواصل مباشر بين عالمنا الباطنى والتحقيق العملى فى سلوكنا ، طبقاً لما توحى به .

النية ملكة وقدرة من التدرات الأولية ، إنها الدافع الأساسى والقوة المنيرة للأفعال ، خصوصاً وأن أى فعل يصدر عن فرد ما ، لابد أن يدخل فى حلقات التفاعل البيئى اللامنتطع ، يدخل قليلا أو كثيراً ، من قريب أو من بعيد ، مباشرة أو غير مباشرة . فحياة الأفراد المجتمعية ومختلف أنواع سلوكهم تحركها الطاقة التوترية النفسانية ، « النية » . إنها الضمير ، وأنها أبعد عمقا من الضمير ، ما دامت تنعشه كلما خفتت حدته ، أو أصيب بحيرة . فهى ميزة فريدة للإنسان على الحيوانات والنباتات : إنها الوعى وقد خرج من مرحلة الاستطلاع والاكتشاف ودخل ، إلى جانب الضمير ، مرحلة العزم ثم مرحلة الإنجاز . فمن يستطيع أن «ينوى» ، يحق له وحده أن يحظى بالكرامة الكبرى

التى رفع الله إليها ذرية آدم : الحرية . إننا أحرار ما دمنا قادرين على تكييف فعالياتنا ، طبقاً للنية :

ولقد كرمنا بنى آدم (. . .)

وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا (قرآن 17 : 70) .

ويتجلى هذا التفوق فى الإيمان ، الإيمان الحقيقى ، حيث يمتزج بالنوايا المتجسمة ، عمليـا ، فى نشاطنا السياسى والاقتصادى والعلمى ، وفى كل مواقفنا وتصرفاتنا وأفـكارنا ، وهى مجالات تتجسم فيها مسؤولية الأفراد ومسؤولية الجماعات .

يجب أن يكون جميع الأشخاص متساوين ، فى الحرية ، ليضطلعوا بالتزاماتهم المجتمعية وبمسؤولياتهم الأخلاقية ، فيضمنوا حسن سير العالم . على هـذا النحو ، يستطيع الإيمان ، بقدر ما يكون صادقا ومتجسما فى النشاط العملى ، أن يساهم فى بناء حضارة شاملة ترفع من قدر كرامة جميع الأفراد ، بالتساوى وتشخصن كل الأوضاع التى نتخبط فيها اليوم .

* * *

من الميزات الخاصة التى تتسم بها الديانات الإبراهمية (اليهودية والمسيحية والإسلام) ازدواج تام بين النزعة إلى الشمول والاتجاه نحو الشخصانية . كانت هذه الديانات الثلاث عند انتفاضتها الأولى ، ترتـكز على العقيدة والثقافة معا ، أى على عنصرين مؤتلفين يساهمان فى جعل الإنسان على استعداد دائم للعمل ، بغية إيجاد عالم أفضل ، نعنى إنشاء مجتمع إنسانى تسوده العدالة والتضامن ، فى جميع أطراف العالم . هـكذا يعود بنا الإيمان إلى معناه الأصلى :

(جذر أ . م . ن .) ثقة ، وولاء ، وإخلاص ، ووفاء (للنفس ، وللغير ، وبصفة عامة ، لكل معاهدة والتزام) . وفى اللغة الفرنسية كذلك كلمة إيمان (Foi) مشتقة من لفظة (Fides) اللاتينية ، ومعناها الالتزام، والصلة والرباط .

فالإيمان ، إذن ، يتعدى مفهومه الحصرى الذى يدل على الانضمام إلى منظومة من الاعتقادات والشعائر . ولهذا السبب ، نرى أن القرآن يدعو ، باستمرار إلى العقل والتبصر والاختبار ، كما يدعو ، فى الميدان المجتمعى ، إلى الأخوة الإنسانية ، بالإضافة ، طبعاً ، إلى «الشهادة» والقيام بالعبادات [4].

* * *

من هذا النطاق الإسلامى ، ذى الإيمان المتأصل الجذور فى العالم وفى واقع الحياة ، ومن نظريات أفلاطون ، أيضا ولاشك ، استوحى الفارابى (المتوفى سنة 339 هجرية 950) فكرة « آراء أهل المدينة الفاضلة » . وقد خصص المؤلف أربعة وثلاثين فصلا لبسط آرائه فى تنظيم هذه المدينة المثالية التى بتحقيقها ، عمليا ، تحقق الإنسانية الفردوس السماوى، على هذه الأرض ، فيفوز ساكنوها بنعيم الاطمئنان .

* * *

يرى الإسلام أن الإنسان لن ينعم فى هذه الدنيا بحياة « المدينة الفاضلة » إذا هو لم يستلهم فى دستوره الأخلاقى هذه الوصية النبوية :

« أوصانى ربى بتسع ، أوصيكم بها :

أوصانى بالإخلاص ، فى السر والعلانية ،

---

(4) انظر ، مثلا القرآن 49 :10 .

والعدل ، فى الرضا والغضب ،
والقصد ، فى الغنى والفقر ،
وأن أعفو عمن ظلمنى ،
وأعطى من حرمنى ،
وأن يكون همتى فكرا ،
ونطقى ذكرا ،
ونظرى عبرا » .

الحديث السادس

انحطاط أم تخلف ؟

ان النظرية التركيبية التىوضعها الإسلام و بعضالمفكرين المسلمين ، أمثال الفارابى ، (والتى أثمرت بفضل اتجاهها الشخصانى والتصاقها بالواقع) سرعان ما وهنت وتآكلها الزمن ،ففقدت حيويتها . حقاً ، لقد نجحت فى تجسيد فترة معينة من التاريخ ، ولكنها أخفقت فى أن تكون حركة تأليفية منسجمة تجارى سير التاريخ . إنه تخلف تعاقبت عليه قرون عديدة .

كل فترة من التاريخ تنطوى على عنصرين : معرفة مكتسبة ، ومعرفة منشودة ، مستهدفة . وهذان النوعان من المعرفة يتفاعلان ويتكاملان باستمرار. على هذا النحو، يسير العلم وتتجدد الثقافات . بيد أن الثقافة الإسلامية شهدت ، فى القرن السابع الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، انفصالا بين هذين النوعين من المعرفة . ومنذ ذلك الحين ، أخذت لا تستمد رمقها إلا مما هو مكتسب ، أى من المعرفة والتقاليد ، وقد أمست العادات من المسلمات التى يؤمن بها الجميع، دون أن تكون موضوع تمحيص من أى واحد . نحن ، إذن ، أمام ثقافة لم تمت ، ولكنها أصيبت بشلل ، من جراء التقليد ، فوقفت عن المسير والنمو . لذا يمكننا أن نصفها بالتوقف لا بالانحطاط ، لأن التأخر أو البطء فى التطور ، لا يمكن اعتباره تخلفا أصلياً ، ولا جموداً كليا .

* * *

والواقع أن هذه الظاهرة لاتنحصر فى الثقافة الإسلامية وحدها ، بل ان كل ثقافة ، إذا توقفت وانطوت على نفسها ، ظناً منها أنها قد بلغت المرحلة النهائية من التطور ، لا بد أن تضع نفسها فى عزلة تامة عن المجرى الشمولى للعالم . وهل

الثورة الإصلاحية ، (البروتيستانتية) فى المسيحية ، والسلفية فى الإسلام ، إلا محاولات للتجديد والانبعاث وللخروج من العقلية المتحجرة؟ قد أعلن البروتستانتيون انفصالهم عن الكنيسة الرومانية (التى يترأسها البابا) وذلك باسم العقل (وهو أشمل صفة يمتاز بها الجنس البشرى) ، وباسم الرجوع إلى الكتاب المقدس الذى أتى بدعوة شاملة موجهة للجميع ، بصرف النظر عن الحدود الجغرافية ، والاعتبارات القومية أو العنصرية .

كذلك الأمر بالنسبة لزعماء حركة الإصلاح الإسلامية العصرية . فقد سموا أنفسهم بـ « السلفيين » ، أو دعاة السلفية (نسبة إلى السلف الصالح) . ومن أول ما حاوله الإصلاحيون ، تحرير الذهنية الإسلامية من نير « العادة » وسيطرة العرف الكسول على العقل الوثاب المجدد « المجتهد » . حاربت السلفية الخرافات والجمود ، ودعت إلى العقلانية . نتيجة لهذه الدفعة التجديدية ، أخذ الاعتزال يستعيد ، تدريجيا ، مكانته المرموقة الطليعية ، وطولب بـ« فتح باب الاجتهاد ». إن محور الحركة السلفية هو العودة إلى العقل ، إلى الإسلام فى صفائه الأول ونبذ « القشور » التى أضيفت إلى الدين ، مع توالى العصور . أما هدف السلفيين الأساسى فهو السعي لاستدراك التأخر الحالى والرجوع إلى الأصول الصرف الشاملة التى قام عليها الإسلام فى بدايته . لاريب أن هذا التأخر الناجم عن ظروف خاصة ، غريبة عن روح الإسلام ، قد حال دون نمو التجربة العميقة الشخصانية التى خاضها الإسلام فى عصره « البطولى » الذهبي .

* * *

يجد الباحث فى التاريخ ، بالإضافة إلى السبب الملاصق ، سلسلة من الأسباب لشرح كل حدث هام . استنادا إلى هذا القانون ، يسوغ لنا أن نؤكد أن الأزمة

ناشئة عن البون الشاسع الذى يفرق بين العالم الإسلامى المعاصر وثقافته ، يمكن تعليلها ، على وجه العموم ، بثلاث كوارث نكب الإسلام بها ، من غير أن يكون مسببها المباشر :

أولا : زحفت شعوب أسيوية على معظم الأقطار الإسلامية ، بالرغم من كونها متخلفة كثيراً ثقافة وحضارة . ففى الشرق الإسلامى ، ظهرت بوادر تصدع الكيان الحضارى فى القرن السابع الهجرى (القرن الرابع عشر المسيح) عندما سقطت بغداد فى حوزة المغول[1] .

ولم يمر إلا قرن واحد حتى أخذ التفكير الخلاق يخفت فى المغرب حيث تعاقبت عليه ثلاث غارات احتلالية :

(ا) اجتاح الإسبانيون ، (فى شاطىء البحر الأبيض المتوسط) مدينة سبتة، عام 1415 ، وطنجة ، عام 1471 ، ومليليا ، عام 1491 .

(ب) تلا هذه الحملة الاحتلال البرتغالى لشواطىء المحيط الأطلسى (ما بين 1461 و 1515) .

(ج) احتلال الأتراك لإفريقيا الشمالية حيث أخضعوا لسلطانهم ما يعرف اليوم بتونس وبالجزائر ، حتى تلمسان ونواحيها ، أى حتى قرب حدود المغرب الشرقية .

هكذا قضى ، نهائياً ، على الإمبراطورية العباسية ، واغتصبتها الأوليغارشية العسكرية العثمانية وجنودها المرتزقة التى حلت محل الأطر المثقفة . كما أن

---

(1) دخلت جيوش (هولاكو) بغداد ، المرة الأولى ، سنة 656 هـ / 1258 م

المغرب حرم من ثغوره البحرية غرباً وشمالا ، وإذا بالمسلمين ينكمشون على أنفسهم انكماشا قوياً ، دفاعا عن كيانهم ، وصيانة لبقائهم . لكن غريزة البقاء استحالت إلى عادة رتيبة ، وأصبحت تقليدا محافظا عقيما ... كل هذه الأزمات الخطيرة زعزعت العالم الإسلامى، وخنقته اقتصادياً ، فاتجه فى سبل أودت بينابيعه الثقافية ، وتغلبت النزعة الصوفية وعبادة الأولياء على التيار العقلانى ، وأوصد « باب الاجتهاد » .

ثانياً — بعد اكتشاف أميريكا ، بدأ المحيط الأطلسى يلعب الدور الأول فى المبادلات الاقتصادية والتنقلات البشرية ، مما أفقد حوض البحر الأبيض المتوسط المكانة الأولى التى تمتع بها زمنا طويلا ، فى تاريخ الحضارة وفى العمل على تواصل الثقافات وتكاملها (٠) .

لقد كان هذا البحر من أهم طرق انتشار الإسلام وإشعاع الثقافة العربية الإسلامية . فنتج عن تقهقر مكانته تضعضع فى تلك الثقافة .

لا بد ، والحالة هذه ، أن يتجمد التعليم ويتحجر ، فينحصر فى حفظ الأحاديث والقرآن حفظاً حرفياً (دون اعتناء بالتفسير والتأويل) ، كما كانت تحفظ المؤلفات الفقهية والفلسفية عن ظهر قلب . أما « الشعر » فقد انحصر فى الحكميات والأراجيز ، والمدح ، والهجاء ، فى حين تحول « النثر » إلى صناعة لفظية منمقة مسجعة (أدب المقامات) . وبالإجمال ، قد قتلت الحرفية الجامدة الروح الخافقة الخلاقة ، فى مختلف الميادين.

---

(٠) ومن المعلوم ان البحر الأبيض المتوسط كان يعرف بـ « البحر العربى » .

ثالثاً — بالإضافة إلى تحول محور التبادل الاقتصادى الذى ذكرناه (من المتوسط إلى الأطلسى) لابد من ذكر عامل آخر ، بالغ الأهمية ، وهو ما أوجزه السيد (ماتيو) بقوله [3] : « إن تأخر البلدان الإسلامية عن الغرب ، فى ميدانى الاقتصاد والتقنيات ، يعود ، فى معظمه ، إلى حركة الملاحة المنشطة والقرصنة فى البلدان المسيحية . وهذه الحركة ، إذا تعمقنا فى دراستها وإحصائها ، أتاحت لنا أن ندرك أنها قامت بدور المكبح ، أو بالأحرى الحائل الذى عاق نمو نشاط الإسلام فى حوض البحر المتوسط ، خصوصاً فيما بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر » [4] .

* * *

انحطاط الشعوب ، كسائر الكوارث ، من الأمور العسيرة التحديد ، فكل ما نستطيع فعله هو أن نلاحظ ونصف ونحلل مظاهر الانحطاط ، مع اعترافنا بأنه يستحيل تقديم شرح كامل لمجموع أسبابه . وقد شهد العالم الإسلامى ، فى مختلف العصور ، مصلحين قاموا بمحاولات ، طورا موفقة وتارة فاشلة ، لمعالجة أزمة الحيرة والجمود . ففى العصر الحديث ، بشمال إفريقيا ، حاولت جمعية علماء الجزائر ، بزعامة الإمامين عبد الحميد بن باديس ، والبشير الإبراهيمي ، إصلاحا دينيا وإنعاشا للثقافة العربية الإسلامية بفضله حافظت على كيانها

---

(3) J. Mathieux, Trafic et prise d'hommes, (in les Annales no, 2, 1954, p 157).

(4) نذكر هنا أن القراصنة كانوا مسلحين من طرف هيئات خاصة ، وأحياناً من طرف الدول الأوروبية .

وشخصيتها . أما بالمغرب ، فقد كان للسلفية أثر ملحوظ ، خلال السنوات الخمسين الماضية ، بفضل «مدرسة ابن العربي» نسبة إلى محمد بن العربي العلوي وهو من الشخصيات البارزة ، في الصعيدين السياسي والديني معاً.(5) كان دائماً يفضل، على الدعوة الكتابية ، طريق الحوار ، شأنه في ذلك شأن الحكماء القدماء : يحاور في دروسه ومحاضراته وفي الندوات الخاصة ، كما يفضل أن يجسم مبادىء الإسلام المتحررة في حياته اليومية ومعاملاته (الدعوة بالقول والعمل) : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» (قرءآن ، 16 : 125). هذه الآية هي شعار ابن العربي . وكثيراً ما استعمل السخرية طريقة في الحوار ، مثله في ذلك مثل سقراط وغيره من المصلحين وكانت تساند هذه القدرة التهكمية النادرة سعة المعارف. ويمتاز أسلوبه التهكمي بترفعه وصبغته الاقتناعية المقنعة . وقد اقتفى أثره تلامذة كثر ، نخص بالذكر أشهرهم ، وهم الأساتذة علال الفاسي وابراهيم الكتاني وعبد العزيز بن ادريس . للأستاذ علال الفاسي اتجاه إصلاحي تتجلى أسسه ،

---

(5) أنظر :

— ابن باديس، حياته وآثاره . (4 أجزاء صدرت عن دار اليقظة العربية سنة 1988 من إعداد وتصنيف عمار الطالبي

— الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي (مكتبة البعث ، قسنطينة ، 1957) ، إعداد محمد الطاهر فضلاء .

— عبد القادر الصحراوي : شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي ، الدار البيضاء، 1965 مطبعة دار النشر المغربية .

نقتطف هذه الجملة من كتاب الأستاذ الصحراوي عن تقدمية ابن العربي التي : « ليست مجرد اصطلاح الدلالة على نوع معين من الايدلوجيات ، ولكنها قبل ذلك أخلاق ، ووجدان ، واستعداد ، وسبق للبيئة وللظرف التاريخي في مضمار الفكر والعقيدة والسلوك » .

على الخصوص فى كتابه «النقد الذاتى »[6]. إنه جهد للتعمق فى أسرار الإسلام، يتسنى له أن يصمد فى وجه كل من الرأسمالية والشيوعية : يحاول علال ، كما ذكر ذلك فى مقدمة مؤلفه ، أن ينظر إلى الإسلام نظرة جديدة مستمدة من الواقع المعاصر .

* * *

على الرغم من جميع المحاولات التى قامت بها الحركة الوهابية فى الحجاز ، وحركة المنار وجمعية الإخوان المسلمين فى مصر وجمعية علماء الجزائر ومدرسة ابن العربى وعلال الفاسى فى المغرب ، فإن النتائج كانت دون ما يتوخاه المصلحون السلفيون . أما السبب فى هذا الفشل الجزئى ، فيقتضى بحثاً منفرداً خاصا يتعذر هنا الخوض فيه .

هذا الفشل الجزئى الذى منيت به حركات الإصلاح والبعث الروحى والفكرى ، لا نجده فى الشرق فحسب ، بل فى الغرب ، أيضا ، حيث أدخلت الثورة الصناعية عوامل جديدة ، وقلبت الأوضاع رأسا على عقب . وقد خبر ذلك واعترف به رجال السياسة ورجال العلم ، وكذلك الفلاسفة والمصلحون الدينيون . ومما زاد فى لوعة هذا النقص شدة وعمقا ، هو اقتناع الناس بأن العوائق التى كانت مستعصية فى القرون الغابرة ، ينبغى أن تضمحل فى عصرنا ، نظراً للتقدم الذى حققه الإنسان فى العلوم الطبيعية والفنون التطبيقية ، وكذلك فى العلوم البشرية ، لا سيما وأن هذا التقدم أفسح أمام الإنسان مجالات جديدة ، وخوله مقدرة لم يكن ليحلم بها فيما سبق . لكن ، يتضح ، يوما بعد يوم ، أن

---

(6) القاهرة ، 1952 .

المعرفة ، وان كان لابد منها لاستقامة الأخلاق ، لاتكفى لضمان حياة طبقا للأخلاق . فالمعرفة شرط أساسى ، ولكنه شرط لايكفى وحده .

صعوبة أخرى : إن ما اكتسبه إنسان اليوم من معارف خلق ذهنية جديدة تفرض سلوكا جديداً . لذا يجوز أن نتساءل : أليس من واجب الإصلاحيين مراجعة أخلاق ما قبل عصر التصنيع الكبير لتكييفها مع مقتضيات مابعد عصر التصنيع ؟

إذا راقبنا تصرف الإنسان فى الحياة العملية ، وجدنا هوة عميقة بين نشاطه الخلقى ومعارفه . فكثيرا مانرى الرجل « الصالح » أو « الخير » يتخبط فى غياهب الجهل النظرى والعملى ، ناقصا من الناحية الفكرية والعقلية . وبعكس ذلك ، نرى « المفكر » أو « العالم » فى سلوكه خلوا من القيم الأخلاقية . إن صاحب الضمير الحي ، وان توفرت لديه أفضل النوايا ، قد يقع فى أخطاء خطيرة لعدم فهمه المعايير والقيم . كما أن كثيرا من رجال الفكر والعلم لايتورعون عن ارتكاب الجرائم ، كل يوم . . . فلابد من مستوى ثقافى أدنى لكل واحد منا كيما يستنير فى أعماله (مادام الضمير وحده لايكفى) . فالثقافة ، إذن حق ، يتحتم إعطاؤه لكل الأشخاص لاستكمال إنسانيتهم . فواجبهم أن يعملوا للحصول عليه ، وواجب الحكومات أن توفر ، لكل واحد ، الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك « الحق — الواجب » . لقد صدق (أفلاطون) عندما قال : « فى قرارة نفس كل إنسان ، طاقة للمعرفة وعضو خاص بتحصيلها » . (الجمهورية ، الكتاب السابع 518 ، ج) .

* * *

بما أن جميع أعمالنا تحدث فى بيئة مجتمعية ذات أبعاد ثلاثة، روحية وفكرية

ومادية ، فإن من واجب كل حضارة حقيقية أن تركز الأخلاق على ثقافة شاملة ، وأن تبنى الثقافة على أسس أخلاقية متينة . بهذه الحركة المزدوجة يمكن تحقيق حضارة كاملة التأنسن تمتاز بروحها النضالية الشاملة . قد يسوغ لنا أن نعتبر الاتجاه الشخصانى بمثابة مرحلة إعدادية تمهد الطرق « لحضارة الغد » . ذلك أن غاية الحضارة الشخصانية هى أن لا يحصل فصل الهيام بالحقيقة العلمية والتعلق بالواقع عن الشغف بالعدالة ، كى يتكون رجال يجمعون بين صفات المعرفة وصفات النضال. إن الثقافة ، أية ثقافة ، يجب أن تكون دائما ثقافا وثيقاً ضد الظلم ، ضد الشر والقبح ، مما يجعل العلم والفن والتقنيات تستهدف الترقية الإنسانية .

فإذا البشرية لم تجعل من ثقافاتها ميادين خصبة للأهداف الشاملة (حيث المبادىء والقيم تتجاوز القوميات والحدود الإقليمية) استحال عليها أن تؤسس الحضارة فى معناها الكامل ، والشخصانية بمفهومها الصحيح ، بل ستقتصر على مجتمع القوة والخداع والزور الذى ألفناه ، والذى وصفه الشاعر محمد إقبال ، فى قصيدة ، منها[7] :

« لقد طلى الإنسان فكره بأصباغ الثقافة ،
ليظهر وجهه الأسود ناصعا كالثلج ،
وألبس قبضته الحديدية قفازا من المخمل ،
وسحر الناس ببيان قلمه ،

---

(7) عربناه عن الترجمة الفرنسية للنص الفارسى :
ترجمة : Message d' Orient, E. Meyerovitch et M. Acbéna,
باريز ، 1956 ، ص133 .

بينما كان يشهر السيف من غمده !

هكذا أقام ذلك المرائى هيكلا للسلام .

ورقص حوله على لحن العود وأنغامه .

غير أنى اكتشفته ، عندما الحرب أزاحت النقاب عن وجهه ، فظهر لى على حقيقته :

إنه « سفاك دماء »[8] و « عدو لدود »[9] .

---

(8) القرآن (30:6) .

(9) القرآن (30:16) و (26:77) .

الحديث السابع

العمـــل قوة مشـــخصنة

« إن كينونة الإنسان مماثلة لفعاليته ، لذلك يجب القول بأن الإنسان هو عمله » (بول ريكور)[1] .

بما أن حضارة المدن لم تحقق ، كما تبين لنا من الأحاديث المتقدمة ، المثل الأعلى فى الانسجام والتعالى الذى طالما طمحت إليه الإنسانية ، نتساءل هل يمكن التوصل إلى هذا المثل الأعلى عن طرق أخرى ؟

* * *

قامت حضارة عصر الصناعة الكبرى على الفصل بين العلم والأخلاق . وأسطورة (أبروميثيوس) وغيرها من الأساطير اليونانية القديمة ترمز إلى أن الحضارة بصفة عامة ارتكزت منذ البداية ، على الشر والخديعة ، لأن (أبروميثيوس) ، مبتدع الحضارة الأولى ، قد « اختلس » النار من السماء ليبعث الحياة فى الطين الذى صنع منه الإنسان[2] ، عاقب (جوس) المختلس إذ أرسل إليه (باندور) حاملا صندوقه المشؤوم محتوياً على جميع أنواع المصائب. وقد حاول (أبروميثيوس) الفرار من العذاب ، فلجأ إلى الحيلة ، ولكنه وقع فى الفخ ونال جزاءه .

---

(1) P. Ricoeur, Esprit. no.1, 1953, p 97.

(2) ابروميثيوس Promethus هو ابن (أبابتوس) والربة (نيميس) . قاوم دكتاتورية (جوس) وتحداه عندما أهدى إلى البشر النار ، فمهد لهم الطريق للمدنية .

(جوس) هو رئيس الآلهة ، وملك البشر ، ورب النور والقدر .

أسطورة (أبروميثيوس) هذه تصور لنا كيف كان القدماء ينظرون إلى بداية الحضارة .

فما هى ، إذن ، هذه الحضارة ؟

إنها الخديعة والتشكيل ، وفى البداية ، الاختلاس. وحتى القرن السابع عشر ، كان معنى العمل هو التعذيب والإيلام ، مادياً ومعنوياً . أما فى القرون الوسطى فالعمل (le travail) يعنى العذاب ، وهو مدلول مشتق من الأصل اللاتينى[3] وما زالوا ، فى العصر الحديث ، يطلقون داخل المستشفيات «غرفة العمل» على غرفة الولادة ، فيقولون: «امرأة فى العمل» للتعبير عن الآلام التى تصاحب الولادة. فالخادم أو الشغال هو الذى يكسب قوته عن طريق بذل مجهودات مضنية. أغلبية معاصرينا ما زالت تنظر إلى العمل ، كما كان ينظر إليه الأقدمون ، نظرة ازدراء واحتقار ، رغم ما يؤكده الواقع من أن العمل من أسس تكوين شخصيتنا وأنسنتها . إنه من الأبعاد العمقية اللازمة لاستكمال الذات وحصول وعى الذات للذات .

* * *

لما لمع فجر عصر الآلية الحديثة ، ظن كثير من المفكرين أن الإنسانية دخلت فصل ربيعها ، وانفتحت للمستقبل أبواب عريضة ، وتضخمت الآمال تراود الخياليين والواقعيين على السواء . لقد اعتقدوا أن عهداً جديداً للعدل

---

(3) من الفعل (tripaliare) ويراد به : استخدام آلة ذات ثلاثة مخالب كانت تستعمل للتعذيب (tripalium).

والمساواة أهل على الجميع حتى بالنسبة للعمال . ولـكن أملهم لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما اتضح أن العهد الجديد إنما هو « عهد صناعى » فى المعنى القديم لهذا اللفظ الذى يدل على المهارة والحيلة[4] . نعم ، إنه ليخيـل للملاحظ بأن أسطورة (أبروميثيوس) الذى اختلس النار قد طبعت تاريخ تطورنا بنوع من الشؤم ، وبحتمية الصراع الدائم بين الأفراد والقبائل والشعوب ، فانحرفت المعرفة عن اتجاه التقدم القويم .

الواقع أن الصناعة ، إلى يومنا هذا ، عوضاً عن أن تساعد البشر على التحرر العام ، عن طريق العمل ، جعلت من العمل دوامة رهيبة تجرنا ، شيئاً فشيئاً ، إلى بدائية سفيهة رهيبة ، فعندما أخذت الآلات تستغنى عن الـكائن البشرى ولم يعد يسيطر على الطبيعة، أصبح مجرد أسير الأجهزة التقنية . وأول عاقبة نفسانية نجمت عن هذا الوضع تتجلى فى شعورنا بالحرمان ، ذلك أن قيمة الشخص باتت تقاس بما ينتجه من ربح ، فأعطيت للآلة قيمـة أكبر من قيمة العامل الذى يطالب بألا يستعمل تفـكيره وأن يقصر جهده على تتبع الآلات . الآلة تترقى ، والعامل يسير كذيل لها ، فهو ، باستمرار يجرد من تفوقه وامتيازه ، الأمر الذى يفقد الشغل كل مسرة وابتهاج ، ويجعله مصدر للسأم .

يرى (يسانت دوبروى) ، وهو من أكبر الاختصاصيين فى مشاكل عالم الشغل ، أن الدليل على وجود هذا السأم « يتـكرر ، أمامنا ، مرتين فى

---

(4) يرجع استعمال ، هذا المعنى المجازى إلى القرن السابع عشر ، وإن كنا نجد عبارات تستعمل اليوم وتدل على نفس المعنى ، مثل «فرسان الصناعة » (Les Cheva-liers d'industrie) ، وهم الذين يعيشون من الاختلاس والطرق الملتوية .

اليوم ،ويتجلى فى السرعة التى يغادر بها موظفو المؤسسات والشركات مقر عملهم. وعلى العكس من ذلك ، نرى أن الذين تربطهم بأعمالهم مصالح اقتصادية ومتع عقلية لا يحسون بالسأم عند أداء عملهم ، إن للسأم أثراً يفوق أثر الجوع فى إيجاد الاضطرابات المجتمعية لدى عدد وافر من العمال »(5) .

* * *

لنتخيل الآن أحد أجدادنا البدائيين ، من عصر ما قبل التاريخ ، وقد بعث بيننا وأخذ يقارن الحياة القاسية البسيطة التى عاشها فى ذلك الزمان الموغل فى القدم ، بهذه الحياة التى نعيشها فى عصر الثورة الصناعية الكبرى والتى تمتاز، فى نفس الوقت ، بالسهولة ، والتعقيد وعدم الانسجام . سيجد هذا المبعوث ، حسب تعبير (شارل نيكول) : « أن وجود الإنسان المتحضر عبارة عن عمل مستمر ، وأن وسائل اللهو والمسرات هى فى حقيقتها أتعاب أخرى لأنها تعقيدات ورذائل لا تمنحنا سوى لذة زائفة ، وما نسميه تقدماً ما هو إلا نهر يجرف شواطئه » (6) :

هذا الحكم الصارم الذى يصدره (شارل نيكول) الحائز على جائزة (نوبل) فى الطب ، قد يكون إنذاراً أكثر منه حكماً على الحضارة أو إدانة لها . الحقيقة أن الآلات التقنية تخلف خللا واضطرابات نفسانية ، بدلا من السعادة المادية مع الاطمئنان . إنها لا توفر أوقاتاً للفراغ تتيح للعامل أن يحقق ذاته ، عن طريق أنواع النشاط المكمل للشخصية ، من ثقافة ، ورياضة بدنية ، وتأملات ، وإبداع فنى . . .

---

(5) Y. Dubreuil, Le travail et la civilisation, p 257, 1953 ، باريز
(6) Charles Nicole, La fiction du progrès, p. 47.

ماذا نريد من الصناعة ، أحضارة إنسانية . أم مجموعة من الأناسى الآليين ؟

لقد قال رجل الصناعة الأمريكى (تايلور) ، ذات يوم ، لأحد عماله : « اخرس ! أنت لست هنا لتفكر ، لنا آخرون غيرك يتناولون أجوراً خاصة من أجل أن يفكروا ! »

هكذا ، عند ما تتكلم الدولارات تخرس المطامح الإنسانية ! فالثورة الصناعية تنمى رأس المال ، على حساب العمل ، فتنتج عن ذلك استلابات نفسانية ومجتمعية . ذلك أننا نعيش على مفهوم خاطىء لعلاقات الإنسان بالأشياء ، يعمل على إفقاد المرء شخصيته بقدر ما يعطى قيمة جديدة لهذه الأشياء .

* * *

إن الاختيار أصبح محصوراً فى شيئين ، لا ثالث لهما : إما تحرير الإنسان عن طريق تقدم المعرفة للسيطرة على الكون ، لصالح النوع البشرى ، وإما استخدام التقدم فى استغلال ثروات العالم والطاقات الإنسانية لفائدة الأقليات . فمصير العالم الثالث وصراعه ضد التخلف والحرمان يهم مصير وحرية العالم كله . فما ينقصنا هو مفهوم جديد لهذه الحرية ـ فى ترابط ، الذى لم تتوصل إليه بعد الطبقة العمالية ، ولم يعثر عليه كذلك المشرعون . يجب أن يحدد هذا المفهوم الجديد بوسائل جديدة تساير التيار العلمى الهائل الذى يجرفنا من خلف ، وفوق ، وتحت : العمل كمحرك أساسى للتشخصن .

فهل الدوافع التى تحرك النقابات وأصحاب رؤوس الأموال ، والتى تشغل بال ممثلى الديانات ومفكرى العالم ستكشف عن مخاض يسفر عن « ميلاد حضارة العمل » ؟

* * *

إن الشخصانيين يؤيدون قيام مثل هذه الحضارة ويعملون ليصير الشغل ، على حد تعبير السيد (بارتولى) : المقولة والميزة الاقتصادية والمجتمعية السائدة[7]. حينئذ ، لن يصبح المجهود عذاباً ومشقة وسآمة ، بل عنصراً دينامياً لترقية الشعوب (كل الشعوب) التى ستودع بدائيتها ، بعد أن تعطى للعمل قيمة جديدة ومعنى حقيقياً إنسانياً .

لسائل أن يسأل : كيف نتوصل إلى تحقيق هذه الأهداف ؟

يجيب (ريكور) على هذا السؤال ، (بكيفية غير مباشرة) عند ما يعالج مشكلة الحضارة فى مستويين : أولا ، على مستوى الحقيقة والأشكال المختلفة للحقيقة (أنظر مجلة : Esprit ، ديسمبر 1951) ، وثانياً ، من خلال الجدل الأساسى للعمل وللتفكير الذى يوجهنا عند حل مشكلات الحضارة (أنظر : نفس المصدر ، يناير 1953) .

---

(7) انظر : H. Bartoli, La notion du travail, et J. Lacroix Vers une civilisation du travail.
نشر هذان المقالان فى مجلة Les cahiers universitaires رقم 7 — مايو 1952.
انظر كذلك العدد الخاص من مجلة Esprit حول الإنسان والعمل ، يوليو 1939، ثم الفصل الذى كتبه جان لاكروا عن الشخص والعمل ، ص 83 إلى 127 فى كتابه الشخص والحب ؛ باريس — 1955 .

هذه أمثلة على جهود الشخصانيين المعاصرين ، فى هذا الميدان .

* * *

ولننظر الآن إلى مقاييس الشخصانية الإسلامية :

لقد حاول الإسلام تقدير العمل حق قدره وتحسين ظروفه ، فأعطي امتيازات رفيعة للذين « يعملون » ، حتى أنه سوى الشغل بالعبادة ، حسب ما جاء فى حديث نبوى :

« الخدمة على العيال عبادة » .

ويضيف حديث ثان :

« لأن يحطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً ، فيعطيه أو يمنعه » .

ويروى البخارى، فى (الصحيح) حديثاً قدسياً ، يقول الله :

« ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة :

رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » .

ويدعم هذا المعنى حديث آخر :

« أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .

أما القرآن فيقدم لنا نماذج من العمال وقد اختارهم من المحظوظين عند الله ، هم

الأنبياء والمرسلون ، وفى ذلك أحسن أسوة للشغالين وأكبر تمجيد للعمل . فقد خاطب الله داوود بقوله ، بعد أن ألان له الحديد :

« اعمل سابغات ! » (أى دروعا سابغات) (34 : 10) .

أما يوسف بن يعقوب ، فقد كان جوابه للملك الذى أراد أن يسند إليه مركزا هاما فى مملكته :

« اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم » (55 : 12).

وموسى الكليم ، ألم يعمل فى خدمة شيخ ، أصبح فيما بعد صهره ؟ قال الشيخ :

« إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج .

فان أتممت عشراً فمن عندك .

وما أريد أن أشق عليك .

ستجدنى ، إن شاء الله ، من الصالحين .

قال :

ذلك بينى وبينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على .

والله على ما نقول وكيل » (28 : 27 — 28).

ويروى البخارى حديثاً فيه أكبر صفعة للطفيليين والتطفل ، وللمشعوذين والشعوذة .

« ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده » .

والنبي محمد نفسه ، ألم يكن،هو أيضا،راعيا ثم ملحقا فى الرحلات التجارية لخديجة ؟ .

إن العمل ، باعتباره نشاطا مجتمعيا ، يفرض المسئولية الفردية . فكل واحد مسئول أمام الله عما يصدر منه ، لا عما يصدر عن الآخرين : « أولم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى:

ألا تزر وازرة وزر أخرى ؟ » (قرآن ، 164 : 6) ، كذلك العمال ، فانهم لا يسألون عن الأخطاء التى تقع دون مشاركتهم .

* * *

طبعا ، يجب أن نعطى لمفهوم « عمل » المدلول العادى : مهنة ، حرفة ، وبعبارة أعم : القيام بمجهود،رغبة تحقيق ما تدعو له ضروريات الحياة فى نطاق القوانين المشروعة . أما « الخدمة » التقنية ، اتباعا لبنيات التصنيع والاقتصاد المعاصر ، داخل نظام محكم للإنتاج والاستهلاك والتوزيع ، فذاك مفهوم جديد لم يتضح فى ذهنيات الكثير من معاصرينا ، فبالأحرى فى إسلام القرن الأول للهجرة . فالمفهوم الحقيقى لـ « شغل » و « عمل » ، فى الإسلام ، هو ما أبرزه الصحابى المهاجر عبد الرحمن بن عوف ، فى عبارته التاريخية : « دلونى على السوق ! » . فى صحيح البخارى أن عبد الرحمن دخل المدينة فآخى النبي بينه وبين أحد الأغنياء الكبار ، هو سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه هذا الأخير : « أقاسمك مالى نصفين وأزوجك » فرد عبد الرحمن : « بارك الله لك فى أهلك ومالك ! دلونى على السوق ! » .

العمل يكيف الإنسان ويجعل منه صانعا للتاريخ ومسيطراً على الكون . من هنا يعتبر العمل خالقا للحضارة ، أو على الأقل ، موجدا لشروط قيام مدنية إنسانية . وإذا كان الغرب قد استطاع تصنيع كثير من الأقطار ، عن طريق العمل الخام ، فإنه يتحتم الآن « تمدين » جميع الشعوب عن طريق بنيات للعمل تتوفر فيها شروط الترقية الإنسانية . يتطلب إنجاز هذا المشروع وضع العمل والصناعة فى مكانهما الحقيقى ، باعتبارهما وسيلتين لتحقيق غاية تتجاوزها ، يفرض هذا ، على مفكرى عصرنا ، أن يصهروا بين ذهنيتنا وأوضاع الواقع الجديد الذى انصهرنا فيه تاريخيا ، فمقومات واقع القرن العشرين (من صناعة واقتصاد ومبادلات ثقافية واقتصادية واتصالات بشرية) قد خلقت مقولات خاصة ، بيد أنها لم تغز بعد ذهنياتنا ليتكيف السلوك وفقا لما جرياتها . عند ما يصيب المخاض الفلسفة الحديثة ، فتلد ذهنية تجارى تطورات هذا القرن الجبار ، إذ ذاك تتضح معالم الهدف الذى يجب أن تحتمه حضارة اليوم : تحرير مجموع البشر بالسيطرة على الطبيعة ، فى ضمان النمو الكامل للإنسانية ، ماديا ، وثقافيا ، ومعنويا .

***

هل الطريق معبد للسير نحو تلك الغاية ؟

لا و نعم :

أولا : لا لأننا نشاهد تناقضات فاحشة ، مفجعة لم يتمكن بعد أى نسق فكرى من التغلب عليها ومن إيقاف تيار الخوف الذى يزعزع عالمنا . فإلى حد الساعة ، ما زالت النفقات العسكرية ترتفع . ففى عام 1962 ، بلغت ما ينيف

على 120 مليارا من الدولار ! ومما يزيد بين فظاعة هذا العبث أن أكثر من نصف الإنسانية تعيش فى فاقة فاحشة مفجعة ! وفى الوقت الذى يصرح جميع المسئولين عن التعليم ، بمجموع القارات ، أن عدد المعلمين بالمدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا ضئيل ، وضئيل جدا ، وفى الوقت الذى تدلنا الإحصائيات الرسمية على أن الأميين بالعالم يمثلون الأكثرية الساحقة ، نرى 70 مليونا من العمال يستخدمون فى صناعة أسلحة التدمير ! . . .

ثانيا : نعم عندما نكوّن نظرة جديدة للعلم ، واتجاها جديدا للفلسفة ، ومبادىء جديدة للأخلاق . إنها حاجات ملحة ، إذا تم تحقيقها ، أمكننا أن نقول بأن الطريق حق معبد لتحرير الإنسانية وإنشاء حضارة مثلى . فالأمر لا يتعلق بإصلاح عادات وأعراف ، ولكن بتغيير جذرى لنظرتنا للكون ، وهذا يستلزم خلق ذهنية قديرة على إيجاد هذه النظرية ومسايرة تطورها . فطرق تفكيرنا واتجاهاتنا الفكرولوجية لم تعد من واقع حياة اليوم فى مراحلها الزاحفة. إن مسايرة الحضارة تبدأ من الداخل ، كالحرية بالنسبة للمستعبدين يبدأ إشعاعها أولا فى نفوسهم ، وإلا ما كان تحرر مطلقا :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (قرآن ، 11 : 13) .

* * *

مفكرو هذا النصف الثانى من القرن العشرين مطالبون ، ببالغ الإلحاح ، بأن يتصدوا لأصعب عملية ثقافية وتربوية ، لأكبر مهمة تاريخية : أن يبدلوا ما بالنفس المعاصرة وأن ينتاشوا الذهنية فيشردوا متولاتها القديمة شذر مذر ليركزوها على أسس أخرى ، وذاك هو « الجهاد الأكبر » [8] الذى

---

(8) قال نبى الإسلام لأصحابه وقد رجعوا من حرب ظافرة : « رجعنا من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس » .

يمكنه وحـــده أن ينتصر على الحرب ، وصراع الطبقات ، وشره التملك . ووثنية القوة :

« فأما الزبد فيذهب جفاء ،

وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (قرآن ، 13 : 17) .

* * *

الصناعة ، والعلم ، وكل المكتسبات ، ليست غاية فى ذاتها . فمن رذائل التفكير أن يدعى اليوم بعضهم : « الفن للفن » ! و « الثقافة للثقافة » ! إن المعرفة ليست عملا — فى — ذاته ، بل وسيلة — لعمل من أجل ترقية النوع البشرى ، ولم تكن ، ولن تكون الثقافة الحق تعبدا ، لأنها إذا لم تلتزم بخدمة الإنسانية، أصابها مسخ ، وبرزت غير سوية فى قميص شفاف، قميص النرجيسية الواهى .

لقد وفق (دنييل هليفى) فى صدق التعبير ،عن قلق معاصرينا إزاءماجريات العلم الحديث ، وذلك فى الربع الأول من هـذا القرن . ناشد (هليفى) العلماء ، قائلا على لسان الحرفيين والعمال ، وعامة الناس:

« يا رجال العلم !

أكرموا إخوانكم ، واعترفوا لهم بمجهوداتهم ! وإننا سننضم إليكم لنصنع صنيعكم . لكن لا تمسخونا ، لا تجعلوا منا مجرد آلات صماء ومن حياتنا عبثا ! .

لا تجردونا من التفكير ! لا تنزعوا منا ، أبداً ، شرعية ملكيتنا للتراث العلمى العالى الذى نخلقه وننميه ونتوارثه ، جيلا عن جيل ، فى صمت ، ودون

أن يعلم بذلك أصحاب السلطة ، أو تفطنوا ، أنتم أنفسكم . إنها مهمتنا التى استمررنا فى القيام بها ، منذ أن وجدت المهن على وجه البسيطة .

اتركوا ، يا من لكم ثروة طائلة ، لكل واحد نصيبه من الخيرات ، وحينئذ يمكنكم أن تعتمدوا على اعترافنا وموافقتنا لكم »[9] .

* * *

يقاس التقدم التقنى الحقيقى بما يوفره من أوقات الفراغ ، لا بما يتطلبه من أوقات للعمل . ذلك أنه ، إذا كان يتحتم العمل وتوسيع نطاق الصناعة ، فإن الحياة ، تتطلب أيضاً وقتاً فارغاً لإعطاء العمل محتوى إنسانياً ولإتاحة الفرصة لكل واحد منا بأن يشخصن وجوده ، إننا وإن كنا جزءاً من الطبيعة ، فنحن فى صراع مستمر معها من أجل أن نفهمها : نرفضها ، فى شكلها الخام اللامبالى برغائبنا ، عسانا ندمجها فى ذواتنا ونصنع منها ، إلى حد ما ، طبيعتنا .

الأمر يتعلق ، كما اتضح ، بجعل العمل ملائماً لاستعداد الشخص ، كيما توجد حضارة توفر إمكانيات المسرات للجميع وتضمن شروط تشخصن محرر .

(9) Daniel Halévy فى المقدمة التى كتبها لـ Mémoire d'un compagnon, Cahiers du Centre, 1914

الحديث الثامن

نحو حضارة أساسها العمل

يتثقف الإنسان لأنه يفكر، وهو يفكر لأنه يعمل، أو « أنه يفكر لأن له يد » ، كما قال (أناكساغور) . وبما أنه لا يمكن الكائن البشرى أن يعيش دون أن يتحرك وينظم حركاته ويجعلها هادفة (وهذا هو « الشغل ») كان ضرورياً أن يرتبط « العمل » ارتباطاً جذرياً بحاجياتنا الحيوية . ينتج عن ذلك أن كل واحد منا يشارك فى إثراء مصادر طاقة التقدم: أنا أعيش، إذن أنا أشتغل، وبالتالى أتقدم، وفى نفس الوقت أعمل على تقدم بيئتى .

رغم أن جسدى ليس إلا مصدراً لبعض الدوافع، فهو، بكليته، يكون حقلا للتحريض يمكننى من أن أبرز ما لحياتى من قيمة وأن أقيسها بقيم أخرى ، ولكن جسدى يظل المصدر الأساسى للدوافع، والكاشف عن طبقة جوهرية من القيم : القيم الحياتية » ، كما يقول (بول ريكور[1]) . فحاجياتنا هى التى تحددنا . يقبل (ريكور) أن تكون الحاجة، فى معناها الدقيق، مرتبطة بنشاط الإرضاء الغذائى أو الجنسى . إنها أساس الشهية، والشهية افتقار ملحاح : إنها منبع لتحريضات وانفعالات لا تحصى .

إن العمل، فى واقعه، ليس إلا جهازاً للعلاقات البشرية، أى الانجذاب والتنفر . فالكائن البشرى مدفوع، عضويا، إلى تملك الأشياء أو الكائنات التى يحاول، عن طريق العمل، أن يغيرها أو يصوغها . إنها تكمل وجوده (كالغذاء، والسوائل، والجنس الآخر) . فالإنسان، من أجل المحافظة على

---

(1) P. Ricoeur, Philosophie de la volonté, Paris, Aubier, 1948, p. 82.

كيانه ، يجهد نفسه للسيطرة على جميع الأشياء والكائنات التي هي من فصيلته ، ويتجنب كل ما يهدد وجوده . لذلك ، بما أن العمل مباطن لحياتنا ، فالحياة تحوك نسج صيرورتها بمجهود مستمر علها تتكيف مع العالم الجغرافي والبشري الذي يكتنفها . وما الثقافة إلا تاريخ لهذا المجهود الحيوي من أجل التكيف المتوارث اللا منقطع الذي نحياه كأفراد ، وكمعاشر ، وكأجيال ، وكطبقات مجتمعية .

إن حصيلة إسهامات أفراد بيئة ما في التقدم يختلف عن حصيلة بيئة أخرى، حسب الإيقاع الذي يسير عليه تطورها (سرعة وبطأ) ، وحسب التواتر ، ونوعية الأشغال التي يقوم بها أولائك الأفراد ، مع مراعاة كيفية تنظيم هذه الأشغال ، وتوزيعها ، والأدوات المستعملة لتحقيقها . كل هذه عوامل مستقلة ، كامل الاستقلال ، عن العرق ولون البشرة ... يكفي ، مثلا ، أن يكتشف مجتمع منجما معدنيا ، ليغير هذا الاكتشاف كل شيء في حياة البيئة : أساليب الحياة ، والإيقاع الذي تسير عليه الأعمال ، كما يتغير كيف وكم هذه الأعمال .

القضية إذن قضية « حظ » و « فرص » ، إلى حدما ، لا دخل للعنصر فيها ، وطبعاً ، إنها قضية وسائل نظرية وتطبيقية تكسب الخبرة والتجارب التي تخول القبض على ضفائر الفرصة والركوب على ظهر الحظ ، للسفر البعيد نحو التقدم .

* * *

إن مهمة حضارة العمل هي ، قبل كل شيء ، أن تعم وسائل الاكتشافات وتتيح لجميع الناس بالتساوي ، أن يستثمروا إمكانياتهم كيما يحقق كل واحد ذاته على أكمل وجه ، فيفسح له المجال ، ويجنى أكبر الأرباح ، مادياً ومعنوياً .

من التقدم الحالى . وتحقيق كل هذا لن يتيسر إلا عندما تصبح الثقافة فى متناول الجميع ، لأنه ، كما قال الفيلسوف الإنجليزى (طوماس مور) : « من الشروط الأساسية لتحقيق السعادة العامة ، توفير ساعات للفراغ ، ليستطيع كل فرد أن يفكر وأن يهذب نفسه ويزينها بنور المعرفة » .

ورغبة فى هذه « السعادة العامة » ، نادى (طوماس مور) ، فى تأليفه الخالد « للايشوبيا » بوضع دستور يهدف إلى الصالح المجتمعى ، فى ميدان الصناعة والثقافة ، وفى الميدان الروحى ، لمجموع الناس ولصالح الطبقة الكادحة ، بصفة خاصة . بمقتضى هذا التشريع ، سيشتغل الجميع ، ولكن باعتدال . ويقترح (مور) أن يقسم اليوم كما يلى : عشر ساعات للراحة والتثقيف الذاتى ، ثمان ساعات للنوم ، وست ساعات فحسب للعمل .

* * *

لا نعتقد أن هذه الأهداف ممتنعة التحقيق ، أو خيالية ، لأنها صدرت عن مؤلف الإيشوبيا . حقاً ، إن الأوضاع قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه فى عهد (توماس مور) ، ولكن المشكل الموضوع دائماً ، هو : كيف يمكن أن تستغل الطاقات الحضارية ، فى نموها الحالى ، واستقبالا ؟ فإما أن توجه لفائدة النوع الإنسانى أو ضده ، مع الاقتناع بإمكانية توجيه مجرى التاريخ .

منذ تأليف « الإيشوبيا » ، سنة 1516 . قامت الثورة الصناعية الكبرى حاملة فى موكبها كل أنواع المخترعات متدرجة من القاطرات والطائرات النفاثة ، إلى علوم الفضاء والإنسان الآلى . فهل سنبقى ، كما قال (لايبنيز) آليين فى ثلاثة أرباع أعمالنا ، لأننا نظل سلبيين ، تاركين المجال للآلة تكيفنا حسب هواها ؟

قد طغت الآلات على حياتنا وأخضعتنا لمشيئتها ، لذا نتساءل فيما إذا كان الجزء الصميمى من شخصيتنا ، المكون الحق لذواتنا سيتحول ، فى نهاية الأمر ليصبح بدوره آلياً ؟

ومشكل ثان مرتبط بالتقدم : ما السبيل إلى إزاحة الحدود المنيعة التى تضعها أقليات محظوظة فى وجه أكثريات أصيبت باستلاب مرير ؟ متى تصبح الحضارة ملكا للمجموع الإنسانى ، فلا يبقى ممتازون يستغلون مكتسبات الإنسانية ، رامين بإخوان لهم فى أحضان الحرمان ؟

* * *

ليس معنى هذا أننا ندعو إلى مقاومة (ابروميثيوس)[2] ووضع الأكبال على رجليه ليقف عن السير الزاحف بالعلوم إلى الأمام ، كل ما نريد هو أن نتذكر أن العلم والصناعة والتقدم تشبه اللسان ، كما مثله الحكيم (لقمان) إنه أداة للخير وللشر معاً . فالقضية قضية استعمال وتوجيه . ذلك أن أساس المشكل هو البلبلة ، إذ انحرفنا عن المرمى ، وإن كنا جميعاً نعرف ماهى الأهداف التى يجب أن نسخر العلم لخدمتها ، فليس الخطر آتياً من الآلة ، بل من ضعف وفردانية وقسوة الإنسان الذى يستغلها[3] .

* * *

---

(2) انظر الحديث الرابع من هذا الكتاب .

(3) اخترنا « فردانية » للتعبير عن individualisme (المؤلف)

إن الشخصانية إذا أرادت الانسجام مع نفسها ومع الواقع انقادت لا إلى التشاؤم بل إلى إيمان وطيد متفائل فى قدرة الإنسان ، مادمنا نؤمن بأن الإنسانية تتوفر على إمكانيات كفيلة بدرء الخطر ، وأنها ستتوصل إلى استغلال تقدم الآلة لصالحها . ويكفى لتحقيق هذه الاستفادة ، وهذا التجاوز ، أن نقوم بتطبيق التربية بمعناها الواسع ، وأن نؤنسن التقنيات ، وذلك بأنسنة علاقاتنا فيما بيننا ومع العالم ، بفضل الاتجاه نحو حضارة أساسها العمل .

الحديث التاسع

لكل مجتمع بدائيوه !

لا مبرر ، بتاتا ، للمزاعم المتأصلة لدى أولئك الذين يعتبرون الشعوب التى تعيش فى المدن شعوبا « متحضرة » ويستثنون ، من مفهوم حضارة ، الشعوب التى لم تترك أثراً فى المدن . فمن يستطيع أن ينفى أن التربة والمناخ هما اللذان يميزان الجماعات البشرية ، من حيث اختلاف طرق المعيشة والسكنى ؟

إن التربة والمناخ هما العاملان الأساسيان اللذان يجعلان من بعض الشعوب بدوا ، ومن بعضها الآخر حضرا ، لأنهما أصل لظاهرة النزوح أو الاستقرار ، يحددان نوع التغذية ونوع العمل ، ويوجهان الخدمات والدخل والإنتاج[1] . فالناس لا يهاجرون دوما إلى المدن استجابة لجاذبية « حضارة المدن » ، بل غالبا ما يكونون مجبرين على هجرة البوادى وهوائها الطلق وخضرتها ، مضحين بعيشة الهدوء فى سبيل البحث عن ترف غالبا ما يفقدهم مروءتهم ويزج بهم فى حياة معقدة ، وأحيانا فى « مدن الصفيح » الشهيرة[2] . هكذا ينحشرون فى المصانع ، بما فيها من رتابة ، وآلية ، وإجهاد مرهق . وسأم .

☆ ☆ ☆

تثبت الأبحاث ، فى ميدان العلوم البشرية ، أن المعيشة فى المدن تنطوى على مشاكل سيكولوجية — فيزيولوجية جد حرجة ، حتى أصبحت المدن مرتعا خصبا للأمراض النفسانية وتوابعها: تحديد النسل ، وانتشار الطلاق، والأمراض الزهرية ، وكثرة الانتحار ، وإدمان المسكرات وتواتر الحوادث ، والأمراض

---

(1) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، I ، القسم الأول .

(2) مدن القصدير « Les Bidonvilles » كما فى أفريقيا وأمريكا الجنوبية وآسيا .

العقلية ، والتوتر العصبي ، والغصة ، والقلق ، والشعور بالفراغ .

***

تختلف الهندسة المعمارية باختلاف طبيعة التربة ، لا بطبيعة العرق . فإذا كان فن البناء نشأ عن حاجة ملحة لصيانة بقاء الإنسان من عوارض الطبيعة ، فإن لاختراع الخيمة وصنعها من الأهمية ، فى تاريخ التقدم ، ما للهندسة المعمارية. فالبدوى الذى يبقى فى ترحال دائم ، طلبا للماء وللمراعى ، يستفيد من الخيمة القابلة للنقل أكثر من السكن الثابت القار[3] . ينطبق ذلك تماما على مفهوم الثقافة فى معناها المادى الأصلى ، إذ أنها : « نمو (أو نتيجة لتنمية) بعض قوى النفس والجسد بفعل الممارسة الملائمة » ، (Lalande, قاموس ص 199) . فمهما توفرت أسباب الرخاء فى المنزل ، ومهما بلغت هندسته المعمارية من كمال، فالبيت ليس قبل كل شيء ، إلا وسيلة لإرضاء الحاجة الماسة إلى الملجأ، وإيواء الأسرة. ومن ثم ، لا بد للفن أن يخضع لتلك الحاجة المزدوجة فى مظهريها الفيزيولوجى والعاطفى .

أجل ، إنها حتمية جغرافية ، ولكنها حتمية تفسح مجالا للجهد البشرى الذى يرمى باستمرار إلى التعادل والتعديل والتكييف ، فهى تتيح المجال للتفاعلات ، بحيث تسير ردود — الفعل جنبا إلى جنب مع الطاقة الخلاقة علمها

---

(3) هذا ما يعبر عنه الشاعر السعودى ، فؤاد الخطيب :

« بيت من الشعر فى البيداء نسكنه باق على الدهر لم يعبث به القدم
تموء من حوله الأجيال صاغرة وتنسف المدن والأسواق تنهدم »

(عن ديوان الخطيب ، القاهرة ، دار المعارف) .

توجد نوعا من التكافؤ بين الحاجات الحياتية من جهة، والإمكانيات الجغرافية من جهة أخرى .

ولا عجب فى ذلك ، لأن الأنواع الحيوانية ، بما فيها الإنسان مضطرة ، منذ آلاف السنين ، إلى أحد أمرين لا ثالث لهما : النزوح أو الفناء . لقد تطرق أبو عثمان عمرو الجاحظ (المتوفى عام 255 هـ / 869 م) الى النظر فى التغيرات الملحوظة التى تعترى حياة الطير من جراء أثر عامل النزوح ، كما وضع نظريات للتطور عن طريق التكيف ، وأخرى للسلوك السيكولوجى لدى الحيوان .

وفى القرن العاشر ، قام مفكر مسلم آخر ، هو أبو على أحمد بن مسكويه (المتوفى 421 هـ / 1030 م) بوضع نظرية عامة لتطور أنواع النبات والحيوان ، فى « كتاب الفوز » ، فاستخلص أن عامل النزوح من أهم مظاهر نشاط تطور تلك الأنواع .

***

ذهب عدد كبير من العلماء ، بعد ما انكبوا على التعمق فى هذه القضايا ، إلى أن إفريقيا هى مهد البشرية الأول، لقد اضطر الإنسان إلى مغادرة القارة الإفريقية، أرض أجداده،لأنه لايقدرعلى تحمل الأمطار والرطوبة، إلا إلى حدما: فهو لايستطيع أن يتطور وأن يحافظ على بقائه فى الصحارى أوحقول الجليد والصقيع . لذا فالإنسان مضطر إلى الهجرة ، كلما طغت عليه هذه العوامل الأخيرة(4) . وقد أثبت العلم أن الإنسان يتحمل القر الشديد أكثر مما يتحمل

(4) انظر Chassloup - Lambart, Art rupestre au Hogar, Paris, Plon, 1938 et Cheikh Anta Diop, Nations nègres et culture Paris. Présence africaine, 1954.

اخر الشديد ، وأن المعدل المثالى للوظائف الفزيولوجية ، لنوعنا ، يتراوح بين 5 درجات و 16 درجة . فتغيرات هـذه المقاييس تدفع بالإنسان إلى الهجرة ، خصوصا إذا أعوزته وسائل مقاومة قسوة العوامل الطبيعية .

* * *

رب سائل يلاحظ : كيف يمكن، والحالة هذه ، تعليل الفروق الصارخة التى تميز الشعوب وتفرقهم إلى أجناس متباينة ؟

إن الجواب الأول ، على هذا السؤال ، هو أن الفروق المذكورة ليست نوعية . فقد رأى (لوسيان ليفى بريل) ، فى أواخر حياته ، وجوب العدول عن التمييز بين العقلية « المنطقية » الخاصة بالمجتمعات المتحضرة ، والعقلية « المتخلفة عن المنطق » الخاصة بالمجتمعات البدائية[5] . وإن عدول (ليفى بريل) عن هذا التمييز بعد أن كان أول من دعا إليه ، لدليل على ما لهذا العالم من وجاهة موضوعية واستقامة جديرة بالإعجاب ، ولعل السبب الذى حمله أولا على إبراز التضاد بين الذهنيتين ، دون سابق برهان ، يعود إلى المقارنة التماثلية التى يريد الأوروبى أن يجدها ، حتما ، بين مختلف الميادين ، مهما تباينت . ولكن ، بعد أكثر من ربع قرن من البحث ، وجد (ليفى بريل) المتسع الكافى من الوقت لإمعان النظر فى الواقع ، الأمر الذى قاده إلى تأويل مختلف الوثائق المتوفرة لديه ، تأويلا أفضل . ومما جاء فى معرض كلامه منتقدا ما سماه فيما قبل بـ « العقلية البدائية المتخلفة » قوله : « لقد وقعت فى كثير من المبالغات ، منذ

---

(5) يرجع تاريخ صدور كتابه الأول إلى سنة 1910 ، بينما صدرت مذكراته التى تحمل عنوان : Carnets posthumes سنة 1938 ، أى بعد وفاته .

خمس وعشرين سنة . وقد أدت النتائج الأخيرة التي وصلت إليها ، في هذا الصدد ، إلى تطور نهائي ، إذ أنها حملتني إلى العدول عن نظرية تقوم على أسس خاطئة »[6].

ثم تلا (ليفي بريل) باحث كبير في علم الأجناس البشرية ، فأكد أن العبارتين « عقلية بدائية » و«عقلية معاصرة » تنطويان على مغالطة لأنهما لاتشيران إلى أي مفهوم حقيقي في عالم الواقع[7] . ومن جهة أخرى ، لاحظ مفكر أسود ، وهو السيد (يكا اكوانيا بونامبيلا) في دراسة عميقة صدرت في(مجلة المتحف الحي) : أن تكريم الأجداد ، عند الأفارقة مثلا ، لا يتضمن ما يناقض المنطق ، بل « هو عمل ينم عن إيمان ، وعن شعور بوجود صلة جوهرية كيانية بين الأجيال . وكذلك القول في العري ، فلا يمكن اعتباره دليلا على التوحش ، إنه يعني نقيض الكذب ورغبة الإنسان في أن يظهر وفقا لما صنعته الطبيعة (بلازيف) . وعلاوة على ذلك ، بقي لي أن أسأل : كيف يمكن أن يعتبر ارتداء الثياب دليلا على التقدم ، إذا كان صنع الملابس يقتضي الاستغلال والقتل ، والكذب » ؟[8] .

* * *

بالإضافة إلى هذا وذاك ، يكفي أن نلقي نظرة على ما حولنا لندرك أن في كل بلد مواطنين متفاوتين في مستوى التطور ، وأن لكل مجتمع « بدائييه » .

---

(6) عن مذكراته ، (باريز ، المطابع الجامعية الفرنسية ، سنة 1949)ص 60.

M. Leenhardt, Do Kamo - Gallimard, Paris 1947 I, p 242. (7)

(8) باريز ، العدد 8 ، سنة 1956 ، ص 249 .

ذلك أن جميع الأفراد ، فى مجتمع ما ، ليسوا على اتصال بمجموع الأنظمة الخاصة بالبيئة التى يحيون فيها ، بل هم لا يعرفون سوى بعض المظاهر من تلك الأنظمة ، بل منهم من يجهلها ، بمجموعها ، جهلا تاماً .

فلنقارن مثلا ، بين سكان حى (إرميتاج) بالدار البيضاء مواطنيهم القابعين فى « مدن الصفيح » (القصدير) ، أو بين رواد مكتبة القديسة (جونفييف) بباريس جيرانهم مدمنى المسكرات فى ساحة (كونتريسكارب) ، أو بين الرعاع فى حى (سوهو) والطبقة الأستقراطية بلندن ... إن المستوى الثقافى والعقلى يتغير بتغير الأوضاع المادية والظروف التاريخية التى تسم حياة كل شخص لا يتغير العرق ولون البشرة ، أو بالجنسية . فالروح واحد ، والنوع واحد ، وإن اختلفت الجنسيات . فليس هناك عقلية بدائية محض ، بل إن جميع العقليات بدائية تتفاوت مستويات بدائيتها بقدر ما تتفاوت أوضاعنا الخاصة والعامة ، فشمول البدائية فى العقل البشرى هو الذى يظهر وحدته فى الزمان والمكان (وحدة من حيث التكوين ، والوظيفة ، والتطور النوعي) وإنما تصدر الاختلافات بين الذهنيات ، عن طرق استعمال العقل . فالقضية قضية « منهج » ، أى تعلم وتمرين ، لا فروق بين الأجهزة الفيزيلوجية ، باستثناء الحالات المرضية ، وهى حالات شذوذ . إن الاختلافات ، إذن ، لا تكمن فى التركيب النوعى للعقل ، لأنه تركيب واحد ، منذ النشأة الأولى وفى مختلف مراحل تطور النوع البشرى ، ولكنها اختلافات تنتج دائماً عن تأثيرات خارجية ، فهي التى توجه الذهنية وتدفع بها إلى الجمود أو التفتح : « إن العقل قد يتجه اتجاهات متنوعة ، تحت تأثير الثقافة البدائية أو المعاصرة ، غير أنه يبقى هو هو ، دائماً ، مهما تنوعت تلك الاتجاهات » (9)

***

(9) ليفى بريل ، المصدر السابق ، ص 137 .

ما قدمناه عن الأفراد ينطبق أيضاً على الشعوب : طبيعة التربة وكمية المواد الأولية المتوفرة لدى كل شعب هى التى تقرر طبيعة عمله وأنواعه . وكذلك المناخ يؤثر على خصب التربة وإنتاجها ، وبالتالى فالتقدم المادى والتطور الصناعي يتعلقان، أساساً بالوضع الجغرافى ، أى أنهما ناجمان عن الصدفة أكثر منهما عن العرق البشرى أو الجنس. أليس لجنسنا البشرى أصل واحد ؟ يجيب القرآن : بأن الله :

« خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها . . . » (6 : 99).

إننا جميعاً منحدرون من (أب) واحد ، هو آدم . فالله لم يخلق «البشرية» ، وإنما خلق أناسا من كائن واحد : « الحمد لله الذى (...) خلقكم من طين» - (2:6) (10).

إن اكتشاف مناجم هامة من المعادن والنفط ، في الولايات المتحدة ، هو العامل الأول الذى جعلها تتقدم بهـــذا الشكل العظيم على البلدان الأخرى ، فالعقلية الأمريكية لا تمتاز بشيء خاص أصيل عن عقلية سائر الشعوب .

طبعاً إن النفط عامل جوهرى ، ولكنه غير قادر على صنع العجائب فهو لوحده لا يخلق التقدم ، ولا يساهم فى إيجاده إلا إذا توفرت مجموعة من الشروط الضرورية . فمثلا ، اكتشاف مناجم ضخمة من النفط بالمملكة العربية السعودية، لم يساهم إلا قليلا فى تطوير البلاد . ذلك أن منافع النفط تجد ما يقاومها: الصحارى القاحلة ، وقلة الماء ، والمناخ الذى لا يلائم العمل ، الخ . . . (دون أن ننسى العامل الأكبر : كون استغلال النفط ، فى العالم الثالث ، خاضعاً لنظام امتيازات الشركات الأجنبية ، وعلى رأسها « أرامكو » وشركاؤها) .

---

(10) انظر كذلك : 7 : 189 ,39 : 8 .

* * *

يمكننا أن نستنتج أن انخفاض مستوى المعيشة وتخلف الإنتاج ، فى مختلف بلدان العالم ، بالنسبة لأمريكا الشمالية ، لا يرجعان إلى وجود آفة أوعاهة خاصة بتلك البلدان المتخلفة ، بل فحسب إلى كونها أقل حظا من الولايات المتحدة الأمريكية من حيث خصب التربةوما تحتها من الدفائن . فكلما كانت البلاد فقيرة مادياً ، افتقر الشعب إلى الغذاء الملائم ، ومن ثمة فإن إمكانياته على العمل، وقدرته على تكوين المثقفين والخبراء الفنيين تبقى محدودة . فلا حاجة بالمرء إلى ذكاء خارق ليدرك أن الكائنات البشرية ، أيا كانت بلادها ، إذا توفرت لديها الظروف الملائمة للعمل اليدوى والعقلى ، أمكنها أن تتكافأ مع الأوروبيين والأمريكيين فى درجة النجاح ، أو نسبته المئوية . ولا يمكن، بوجه من الوجوه ، حصر أسباب التقدم فى لون البشرة أو فى بطاقات الجنسية . ويتضح من ذلك كله أن المسألة تعود ، فى النهاية ، إلى شروط مجتمعية ودوليةوإنسانية. فعندما يوفر الوسط لكل فرد الإمكانيات الضرورية ، المادية والمعنوية ليكتمل نموه وتتفتح شخصيته (أو على الأقل ، أن لا تخنق إمكنياته للتفتح والنمو)، يحصل انقلاب جذرى .

* * *

نستطيع، إذن، أن نؤكد بأن جميع الناس متساوون ، من الناحية البيولوجية: تركيبهم واحد ، وأصلهم واحد ، وحاجاتهم واحدة . إنهم لا يختلفون إلا فى الثانويات . فالنوابغ والعباقرة هم أيضاً أناس كسائر الناس . يصرح عالم من أعظم علماءالبيولوجيا فى عصرنا : «أن أوضح النتائج التى وصلت إليها فى تأملاتى هى أن قدرة الاكتشاف والاختراع ليستسوى عامل عرضى وميزة مجازفة لا

أكثر ولا أقل من سواها جدارة بالإعجاب والتقدير [11] ...» فمن التعسف، إذن، أن يوضع كمبدإ حتمى وبكيفية اعتباطية، أن الشعوب التى تختلف عن «البيض» متوحشة، ويعتبر أصحاب البشرة البيضاء متمدنين بالطبع.

لقد كثر الذين يقابلون «المتحضر» وهو من يميل إلى العيش فى المجتمع، بـ«المتوحش» أى من يهرب من المجتمع ويؤثر الغابة على المدينة. ولكن إذا نظرنا إلى الواقع من الناحية الخلقية والعقلانية، لزمنا أن نسأل:

من ذا الذى يحيا حياة إنسانية سالمة هادئة؟ أهو الإفريقى الأسود الذى يعيش سعيداً فى الغاب، دونما سأم، بعيداً عن «المشاكل»، أم الجندى الأبيض الذى لم يكد يخرج من ساحات الوغى بأوروبا حتى بدأ يخوض معارك طاحنة أخرى على خط العرض 38 بكوريا أو بالهند الصينية؟.

أيعد «متوحشين» الهنود الحمر الذين أرغموا بالقوة على البقاء فى مناطق خاصة، ومنعوا من العدول عن تقاليدهم البدائية إرضاء للسياح «المتمدنين» وإجابة لفضول علماء الأجناس البشرية؟

هل يعتبر «متوحشين» الزنوج، وبورتوريكو، وسكان إفريقيا الشمالية «الأهليون» لأنهم يتنقلون على ظهر البغال والحمير، ولم يخترعوا طائرات؟

هؤلاء «المتوحشون» جميعاً مفتقرون إلى التغـذية فى أراضى تتدفق فيها الخيرات! لقد خضعوا إلى أقسى أنواع الاستعمار، تحت شعار «التمدين»

---

(11) . Charles Nicole, Biologie de l'invention Paris, Alcan 93 ,p 15.

و « التقـــدم » و « التثقيف » فقبعوا داخل وضــع بروليتارى متخلف في « حضارة القرن العشرين » !

نعم ! إن كل هذه الضحايا « متوحشة » غير أنها ليست أكثر وحشية من جلايها .

نعم ! الـكل متوحش ، المستغل والمستغل .

✲ ✲ ✲

ما هى ، إذن ، « الحضارة » المعاصرة ؟

إنها النفط !

إنها قنابل (النابالم) !

إنها مئات الملايين من الجائعين ، الحفاة ، العراة فى العالم !

إنها الجهاز الجهنمى الذى يعوق أكثر من ثلثى الإنسانيـة من وسائل الحياة الضرورية ، وعن وسائل التفاهم والتعبير للخروج من عالم الخوف والأمية والأمراض الزهرية . ثلثا الإنسانية وزيادة محاصرون فى عالم التخلف وقد أغلقت أبواب التطور والتأنسن أمامهم : إنهم يعيشــون وقد أفقدوا الحياة الحق ! . .

✲ ✲ ✲

أغلبية هؤلاء الجياع الأميين ، المطرودين من الحضارة المعاصرة ، ينحدرون من (حضارات) عريقة فى التقدم. وما أجدرنا بالتأمل فى ما كتبه (س.ف.فولنيي) فى مؤلفه ، رحلة إلى سوريا ومصر ، وهو كتاب لم يفقد شيئاً من قيمته ، على الرغم من قدمه . تساءل (فولنيي) ولنا أن نتساءل معه :

(أليس من دواعي الحسرة أن ترى شعوب إفريقيا فى حالة يرثى لهـا ؟

فالأقباط مثلا ، نشأوا عن امتزاج النبوغ المصرى العميق بالذكاء الإفريقى الثاقب . أليس من العجب أن هذا الجنس البشرى الأسود الذى أصبح اليوم عبداً لنا وموضوعاً لاحتقارنا ، هو الشعب الذى اقتبسنا منه فنوننا وعلومنا ، بل حتى قدرتنا على النطق ؟ أليس من المؤسف جداً أن نتصور ، أخيراً ، أن الشعوب التى تدعي أنها تفوق سواها محبة للحرية والإنسانية والدفاع عنهما هى التى أصبحت تعطى الضمانات لأفظع أنواع الوحشية ، وجعلت من مشاكل البحث أن نتساءل هل للسود عقل من نوع عقل البيض ، »[12] .

---

12 - C. F. Volney, Oeuvres comptétes, Paris F. Didot fréres, 1832, p 132.

الحديث العاشر

كانــــــا بدانيون

إن وحدة الجنس البشرى حقيقة علمية ، واقعية ، ثابتة ، يستحيل دحضها . انطلاقاً من هذا القياس ، يقوم كل مذهب أخلاقى ، سواء أكان دينياً أم لا دينياً ، وكذلك جميع المذاهب الفلسفية القويمة . فللفروق بين الأجناس لاوجود لها سوى فى أساليب المعيشة ، مع العلم أن هذه الأساليب ليست رهن إرادة الناس ، بل تخضع دائماً لظروفهم الجغرافية والتاريخية ، كما رأينا فى الحديث السابق .

كثيرا ما أثبت العلماء الصلات القائمة بين الوظائف العقلية للكائن البشرى وتصرفاته من ناحية ، وبين بيئته الجغرافية من ناحية أخرى . وقد تأكدت تلك الصلات بفضل الأبحاث والمناظرات المختلفة التى جرت مؤخراً بين علماء الجغرافيا والعلوم الاجتماعية[1] . يشمل تداخل — الآفاق البيئة : الأخلاقية ، والعقلية ، والثقافية ، وكذلك المحيط المادى كالتربة وأدوات العمل ، والمحيط المجتمعى (الاختراعات العلمية والفنية والصلات البشرية) . فى البيئة تتكون الجماعات وتتفاعل ، متأثرة بعوامل المناخ (كالحرارة والضغط والرطوبة) والعوامل المادية الحيوية (كثروة الأرض ، وطرق استغلالها ، وتربية المواشى ، ووسائل السكن) . هكذا إن لتداخل الآفاق تأثيرا قويا على الإنسان ، جسديا ونفسانيا . وما العرق البشرى ، فى الواقع ، سوى الحصيلة الناجمة عن مجموع تلك التأثيرات المتراكمة على مر القرون . فطول القامة ، ولون البشرة ، وأبعاد الجمجمة ، وحتى السلوك الشخصى والمواهب

---

(1) أنظر ، مثلا M, Sorre, Géographie psychologique, Traité de psycho, appliquée, livre 6, Pris, P. U, F,

العقلية ، هى إلى حد بعيد رهن بطبيعة التربة والمناخ والغذاء ، وبالتالى ، يسوغ لنا أن نتجرأ فنقول : إن العرق البشرى هو « صدفة فيزيائية » (انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، القسم الأول) .

* * *

لكن ، من البديهى ، أيضا ، أن تأثير البيئة ليس مطردا موحدا مطلقا ، فلا يمكن أبدا أن نحصر العملية فى التأثير الحتمى للجغرافيا الطبيعية ، بصرف النظر عن رد الفعل الإنسانى (الإرادة المكافحة ، والعقل المبدع، وقابلية التكيف والقوة على ترويض الطبيعة ...) . لا شك أن إغفال النشاط السيكولوجى والمجتمعى يعنى تجاهلا للواقع الإنسانى ، إذ لا يمكن ، مطلقا ، اعتبار الإنسان مجرد أجهزة بيولوجيه وفيزيلوجية (أى مجرد اختلاط المادة المنوية الذكرية بالبويضات الأنثوية ، فى تفاعل مع العوامل الجغرافية) . إن الكائن البشرى منظومة متكاملة تعمل ، بطبيعة نوعية ، على أن تتناسق وتتناغم الوظائف البيولوجيه والانفعالات النفسانية والتكيف المجتمعى المسترسل . فلا يمكن الثقافة ولا الحضارة أن تكتسبا أى معنى أو مفعول ما لم تعتمدا على المبدإ التالى :

تستند الحياة على علاقة وثيقة بين تداخل الآفاق ، وبين النشاط الشخصى والمجتمعى .

لا جرم أن أعمال الإنسان ومبادراته تشكل عنصر الحياة الأساسى ، مع العلم أن الإنسان ، وإن كان فاعلا ، يخضع لعوامل الكون، وبذلك فهو مفعول إلى حد ما .

إذا كان بعض الباحثين لم يرتقوا بتحليلاتهم إلى مستوى المبدإ المتقدم ، فذلك لأنهم غالبا ما يتخبطون فى مسائل زائفه وأحكام مسبقة ، أو لأنهم يرغبون فى تبرير الاستغلال الوقح الذى تستنزف به بعض الشعوب شعوبا أخرى ، وفى إضفاء صبغه المشروعية « على الاتجـــار بمجهود المستضعفين وبالاسترقاقية » أى على الوضع المجتمعى الذى خص به عمال لا يملكون إلا قوة جسدية يقدمونها ، كل يوم إلى السوق ، ضريبة للحياة . ويحاول ، أيضا ، أولئك الباحثون أن يبرروا الوضع الإجرامى للزنجى ، فى عالمنا المعاصر ، « مما أدى إلى انبثاق أدب تصويرى لوصف طبائع الزنجى المنحطة المزعومة (...) وبالتالى لبلورة الرأى العام حول ذلك الأدب ، فأصبح العالم يؤمن ، بصورة غريزية ، أن للزنج طبيعة بشرية منحطة ، كما لو كان ذلك حقيقة منزلة من السماء »([2]) .

* * *

هكذا قد استسلمت الحضارة المعاصرة لنشوة الدوار النـــاجم عن سرعة منجزاتها التقنية وعن لا — أخلاقية عدوانية فاجرة ، حتى أصبحت تدور فى حلقة مفرغة دونما هدف معين . إنها فقدت حاسة الاتجاه القويم ، واختنقت من جراء غطرستها وكبريائها ، إلى حد أنها لم تتمكن بعد من أن تدرك إدراكا كافيا ، للتناقضات المزعجة ، ولم تبحث إلا نادرا عن فهم ذاتها بوعى علها تتوفر على ضمير يلائم أنظمة وبنيات العـــالم المعاصر وما يجتره من مشاكل معقدة .

---

2 - Cheikh Anta Diop, Nations négres et culture, 32.

ما ذلك ، في رأينا ، سوى نتيجة مباشرة للقيم والمعايير الجديدة التي أضحت أسس الحياة ، ونتيجة للتوجيه العام الذي تسير عليه ؛ إنها حضارة معبودها الإنتاج والدخل ، وقوامها الاتجار والمزاحمة ، حتى أنها لم تعد تتورع عن أية مساومة : كل شيء فيها يباع ويشترى ، بما في ذلك الحتمية ، والشهادة ، والكلام ، وحتى الصمت ! ... وإذا كانت هنالك خبرة يعيشها الإنسان المعاصر ، بكل ما أوتي من إدراك (حتى في الغرب الذي يمثل الطليعة الإنسانية) فإنما هي خبرة الوجدان المائع ، والوهن الروحي . هذا ما يصفه (ج . م . د و مناك) في قوله : « بقي الإرهاب يزحف ، منذ ربع قرن ، بدون متماثلة حتى عام ١٩٤١ ، ثم من عام ١٩٤١ حتى يومنا هذا ، باستثناء الضربة التي مني بها في إسبانيا . أجل ، لقد سخر الإرهاب وسائل متقدمة في زحفه ، ومع ذلك ، ما كان له أن يتقدم بمثل تلك السرعة الخاطفة ، ولا أن يقطع مثل ذلك الشوط البعيد ، لو لم يؤازره ، ضمنيا ، في زحفه ، أشخاص كثيرون من رجال الفكر والدين ... »(3) .

* * *

لم يعد الفيزيائيون يعتبرون الكهرباء ، والنور ، والحرارة وغيرها من ظاهرات الطبيعة بمثابة « قوى » ، بل بمثابة كيفيات تسم الظواهر الطبيعية ، وتدل على علاقات بعضها ببعض .

فإذا أردنا تحديد الثقافة القومية لشعب ما ، ساغ لنا كذلك أن نقول إن هي إلا كيفيات سلوك الأفراد الذين يتألف منهم ذلك الشعب ، وبتعبير آخر :

---

3 - J. M, Domenach, Esprit, no 1,1953, p 16.

إن ثقافة شعب من الشعوب هى الأساليب التى يعبر بها عن شخصيته ، والطرق الخاصة التى يتسم بها تصرفه إزاء الظـــاهرات الإنسانية والروحية والطبيعية . وأيضا ، الثقافه هى : الوسائل التى نلجأ إليها لتحديد مختلف الصلات بين الفرد والجماعة ، على أساس القواعد المستنبطة من الخبرات ، والمكتسبة من التاريخ ، والتى يفرضها عليه العامل الجغرافى .

وعليه ، إن البحث العلمى فى الحضارة يرجع إلى اتبـــاع منهج ذى مرحلتين :

أولا : النظر فى كل ثقافة قومية من حيث هى مجموعة ظواهر وظاهرات مستقلة ، بعض الشيء ، استقلالا ذاتيا بالنسبة للثقافات القومية الأخرى .

ثانيا : وضع هذه الثقافة الخاصة ضمن نطاق الثقافات المختلفه لملاحظة ما ينشأ عن ذلك التقارب من انفعالات متواترة ونشاط تـكاملى .

بيد أن هذه الطريقة ليست هى المتبعة عادة . فالذين يبرزون التضاد القائم بين « المتحضر » و « البدائى » يلجأون ، حتى يومنا هذا ، إلى مقاييس غريبة مستهجنة ، يقتبسونها من ذهنية بعض الغربيين ، حسب منطق معين تمتزج فيه العقلانية الآلية الجامدة بالأحكام المسبقة المتشعبة الأصول .

ومن الغريب أنه ، حتى بعد صدور « مذكرات » (ليفى برول) عقب وفاته ، تلك المذكرات التى عدل فيها المؤلف عن لفظة « Prélogique » لـكونها لا تنطبق على الواقع[4] ، هنالك من بقى متمسكا بها ، على ما فيهـــا

(4) كلمة كان يصف بها (ليفى بريل) الذهنية « البدائية » ، فى مرحلة ما قبل المنطق (أو مرحلة) غير ـ منطق ؛ ولقد رجع عن هذه النظرية واعترف بأنها مغلوطة (أنظر الحديث المتقدم).

من غلط ومغالطة ، وإذا بجميع أحكام القوم وآرائهم فى التمييز بين الأجناس البشرية ، وأبحاثهم الاجتماعية والسيكلوجية تتأثر بتلك الفكرة الخاطئة وتعتمد عليها . ذلك أننا نعيش فى عصر تعس كما قال (آينشتاين) « أصبح فيه تحطيم الأحكام المسبقة أعسر من تحطيم الذرة ! » .

لم يفهم أولئك الباحثون ، حتى الآن ، (أولم يريدوا أن يفهموا) أن المنطق ، بنوع عام ، ليس سوى مظهر من مظاهر الحياة الفكرية وأن الحياة الفكرية لا تنحصر تماما فى قوانين العقل . وهذا الوضع يرجع إلى سببين :

الأول : يرجع إلى مركب التفوق لدى بعض الغربيين ، بحكم الغرور المكتسب من ما جريات عصر التصنيع والتقنيات .

والثانى : إيمانهم الأعمى فى صلاحية أدواتهم الفكرية التى تسقط من اعتبارها بعض المظاهر العقلية والسيكولوجية ، لكونها تخرج على الإطارات الضيقة والأساليب المطروقة فى المنطق العادى . وهكذا يضحي الغربيون بجانب غنى وعميق من الحياة النفسانية والعقلية ، رغم أنه يوجه ويسير الخبرة الإنسانية ، تعنى الواقع العاطفى الذى يقصى ، بحكم طبعه ، كل اعتبار منطقى .

* * *

لقد افترضنا ، تسهيلا لغرض الموضوع ، أن الفكر الغربى منطقى فى حين أن فكر الذين ليسوا غربيين مخالف للمنطق ، غير أن هذا الافتراض لا يستند على معطيات الواقع : إذ أن التناقض والخلاف المنطقى لا ينحصران فى جانب دون آخر ، وليسا وقفا على أى فكر أو أى جنس . فبعد أن أوردنا ، فى

الحديث السابق ، وجهة نظر (ليفى بريل)و(موريس لينهارت) حول الموضوع الذى نعالجه ، لا بد أن نتوقف هنا ، من جديد ، للاشارة إلى بعض الوقائع المتعلقة بالعقلية الغربية ، وهى وقائع كلها خاصة بعوائد تخالف أبسط قواعد التفكير السليم . إنها كافية لتقنعنا ، (إن كنا ما زلنا بحاجة إلى إقناع) بوجود تصرفات تنبنى على الخرافات والإيمان بمفعول السحر والسحرة ، مما لا تكاد تصدقه . فإذا ما قارن باحث تصرفات المجتمعات التى يقال عادة عنها إنها « بدائية » بذهنية وسلوك كثير من الغربيين ، ثبتت له سخافة النظرية العنصرية وغباوتها .

* * *

نلاحظ فى أوروبا ، حتى يومنا هذا ، سواءا فى القرى أم فى المدن وعلى اختلاف المستويات المجتمعية ، أن للسحر والعرافة (وهذا يذكرنا بالشوافة فى المغرب ، أى البصارة فى المشرق) جانبا كبيرا من القوة والنفوذ ، ولا يضاهى هذا التأثير العرافى سوى اعتقاد مئات الألوف من الغربيين بالرؤى والعجائب ، والتنجيم ، إلى غير ذلك من الخرافات المتنوعة ، علاوة على السحر ، والإيمان باستحضار الشياطين ومحاورتهم ، والاعتماد على تنبآت المتنبئين وعلى أصحاب التنويم المغناطيسى (الذين يلعبون نفس الدور الذى يقوم به الكاهن « فودو » فى البيآت « المختلفة ») .

ويجدر بنا أن نشير ، كذلك ، إلى أنواع من التعبد والطقوس ، الغريبة والبشعة فى وقت واحد : مثل الصلاة المثلثة الزوايا (**La messe triangulaire**) المعروفة عند سكان أقاليم وسط فرنسا ، والصلاة السوداء التى يصح مقارنتها بعبادة (فودو **Vaudou**) عند « البدائيين . وكم تأخذنا الدهشة عندما نتصفح كتابا صدر أخيرا عن السحر وعواقبه الوخيمة فى إقليم (بيرى) .

يعيش الفلاح هنالك بخوف من الرقية ومن السلطة الشريرة التي يمتلكها الساحر ، وهو يعتقد أن لهذا الأخير معاهدة مع إبليس تخوله قدرة على تسيير الريح والمطر والصاعقة ، وأن باستطاعته إتلاف الشجر وقتل الناس [5] .

وإذا قارنا كتاب السيدة (بوتيبي) بكتاب آخر يتناول السحر في جزيرة (هايتي) ، ظهر لنا تشابه واضح ، تمام الوضوح ، بين العوائد والسلوك والعقائد التي ينادي بها اتباع السحر والعرافة ، سواء أكانوا من الأوربيين أم السود ، مما يدل على أن « البدائية » و « الخرافات » ليس لهما حدود إقليمية أو عرقية ، ولا ارتباط معين بلون البشرة .

ونصل إلى النتيجة نفسها إذا قابلنا كتاب السيد (دويسم) [6] والدراسة التي قام بها السيد (لوبرو) حول عبادة القديسين في مقاطعة (شارنت) بفرنسا حيث القديسون (تماماً كآلهة الأقدمين وكالأولياء في المغرب وفي إفريقيا السوداء) متخصصون، كل واحد بجانب معين من خوارق العادات: فهذا يشفي من الوجع، وذلك يقلب عقم المرأة إلى خصب ، وثالث يعطي الحصانة ضد النار أو ضد الإفلاس ... [7] . إلى جانب المراجع التي أشرنا إليها ، هناك عدد لا يحصى من المؤلفات عن « البدائية » ، أو بالأحرى « اللامنطقية » ، التي نجدها في العقلية الأوربية المعاصرة ، وحتى في العقلية الامريكية (أمريكا الشمالية ، ربة أبولو وصاحبة كاب كينيدي ... ، وناطحات السحاب و ...) تحتوي ، هي أيضاً، على بدائية مرموقة (مثلا التفاؤل بالوشم على الصدر). وها أمثلة من تلك الدراسات:

5 - M, Bouteiller, Sorciers et jeteurs de sort, Paris, Plon ,1958.

6 - C. H. Dewisme, Les zoub's ou les secret des morts vivants, Paris, grasset.

7 - M. Leproux, Dévotions et saints guérisseurs, Paris, P.U.F.. 1957 .

« البقايا الوثنية فى العقائد المسيحية » للـكاتب فيغال ،(8) « والمؤسسات السرية فى باريز » من وضع (جيرو) (9) وهو كتاب عام ومهم ، برهن فيـه المؤلف على وجود كثير من الأفـكار « البدائية » المظلمة تترعرع فى أحضان «عاصمةالنور» باريز. تذكرنا بعض صفحات هذا الـكتاب «بالفقيرية» فى البلدان الإسلامية وخصوصاً بالهند .أما كتاب« عاصمة الصلاة»فنقل فيه (رينى شفولز) مسائل غاية فى الغرابة عن (ماء لورد lourde) وعن الحجاج الواردين إلى تلك العاصمةالفرنسية الدينية ،من مختلف الشعوب المسيحية ، علهم « يتبركون » بالمـاء وبأحجار الـكهف المقدس ليعالجو الشلل وغيره من الأمراض المعضلة(10). ويجدر بالقارى ، أخيراً ، أن يتصفح مقالات (أوليفي لوروا) فى مجلة «الحياة الروحية» (عدد مارس 1937 وعدد أبريل 1938) حيث وصف المؤلف بعض التصرفات الغريبة عند إحدى المنظمات الدينية الإيطالية (تعتقد ، مثلا ، إمكانية تـكثير الأملاك بواسطةالاذكار مما يذكرنا بـ« البركة » عند المسلمين (11) .

صدرت مؤخراً دراسات كثيرة عن هذه المواضيـع ، تتضمن معلومات جمة ودقيقة ، نخص بالذكر منها : « مشاهير المنومين المغناطيسيين» لـ(أمادو)(12) و (السحر وطقوسه وتاريخه) لـ (بوميسون)(13) ، و « الأشباح والمنازل

---

8 – A. Weigall, Survivrances païennes dans le christianisme, trad. fr., Paris, Payot.

9 - P. geyraud, Sociétés secrétes de Paris. E. Paul.

10 - R. Schwols, Capilale de la priére, Paris, Desclée.

II - Olivier Leroy, La vie spirituelle,

12 - A. Amadou, grands médiu ms, Paris, Denoel .

13 - M. Bouisson, La magie, ses grands rites, son histoire, Paris, ed. Debrisse.

المسكونة » ، تأليف (دى بويورج) (14).

فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين الشامخ ، مازال عدد كبير من مواطنى (رونى ديكارت) يفضلون أن يتخلوا عن الطب الشرعى العلمى ليستشيروا « الشافين » (les uérisseurs) والعرافين ، وأن يؤثروا الاستشفاء بواسطة النذر والحج إلى الأماكن المقدسة على العلاج الطبى التجريبى المنطقى . لقد جاء فى مؤلف عن « معرفة الغيب أمام العلم » (ص . 55) لعضو من أعضاء أكاديمية العلوم بفرنسا هو (مارسل بول) ، (15) أن للرائين والعرافين ، فى باريس وحدها 3480 مكتبا للعيادة درت على أصحابها سنة ۱۹۳۰ مبلغ 73 مليون فرنكا من الأرباح (على ما ورد فى السجلات الرسمية لدائرة الضرائب !!) أى أن هذا الدخل السنوى لا يحتوى إلا على الأرباح التى لم يستطع العرافون والراؤون كتمانها ، لأنهم يماوسون « مهنتهم » علانية ، وبطريقة شبه رسمية .

* * *

يسوغ لنا أن نتساءل عن سبب نجاح الهتلرية : ألا يرجع ، فى معظمه ، إلى الإنسياق لبعض القوى الغامضة التى لم يتوصل تحكم العقل إلى إستئصالها ؟ لقد كانت النازية ، على ماتتضمنه من عنصرية عمياء ، وكبرياء متعالية ، وضراوة وحشية ، تتجاوب مع حماس غريزى يخالف المنطق .

* * *

I4 - C. de Neubonrg. Fantones et naisois hanteé Paris graset.

I5 - Mareel Boll, L'occultisme devant la sience, Paris, P. U. F.

يكفى الرجوع إلى الدراسات والأبحاث الخاصة التى أفردها علماء الاجتماع والأجناس البشرية لبلدانهم ، فى أمريكاوأوربا ، لنتيقن من أن الثقافاتالغربية قديمها وحديثها ، منبثقة جميعها من أصول « لا ـ منطقية » تستمد منها الحياة والنشاط (من غيرأن يقلل ذلكمن قيمةتلك الثقافات أو يسىء إلى سمعتها) . وسبب ذلكأنالإنسان قبل أن يكون« حيوانا عاقلا » أو «قصبةمفكرة» يمكن تحديده بثلاثة أبعاد :

إنه كائن ذو جهاز مجسد وجهاز مجتمعى ، وجهاز معنوى أى أن له ثلاثة مركبات : الإحتياجات والرغبات ، ومطامح .

ينطبق هذا التحديد على جميع الكائنات البشرية ، فلا يجوز أبداً وصف الإنسان « البدائى » كما لو كان بقية من بقايا العصور الغابرة التى سبقت التاريخ وأصبحت اليوم نسياً منسيا. إن « البدائى» موجود بين جميع الأجيال وفى جميع الأقطار ؛ فى أوربا،فى أمريكا ، فى روسيا ، وفى كل مكان . إنه فى باطننا ، فى باطن كل منا ، إذ « البدائية » بنية أساسية للعقل البشرى ، فى جميع تطوراته التاريخية ، كما بين ذلك (ليفى برول) فى مذكراته . إن « البدائى » موجودفى الطفل عندما يلفق ويخترع أساطيره الخاصة ، كما يقول (كوفيليي) وهو موجود فى المجنون عندما يهذى، كماأنه موجود فى البالغ السليم العقل عندما يحلم ، وعندما يهرب من الواقع إلى عالم الخيال أو إلى الزمن « الذى كانت فيه الحيوانات تنطق (16) كلنا نعرف أن للاشباح والساحرات دورا هاما فى مسرحيات ويليام

16 - A. Curillier « Partis Prais », Paris A. Colin, p. 205.

شكسبير ، وفى الآداب الإنجليزية ، بصفة عامة ، أمثلة كثيرة جداً تظهر تفاعل العوامل الطبيعية مع الخوارق للعادة .

لقد أظهر (جورج سوريل) إلى أى مدى تعيش المجتمعات الأوروبية العصرية من الأساطير ، فهى تنقاد ، لا إلى الافكار ، بل إلى تصورات خيالية لا ـ منطقية لها صلة بالأوضاع الملموسة المجتمعية التى تحياها الجماهير ، وتتجاوب مع رغبات تلك الجماهير ومع مكنون وجدانها . قد استوحى (موسولينى) اتجاهه الفاشيستى من نظريات (سوريل) وجعل الفاشيستية ، تلك « الأسطورة الحية » التى تكتنز ما يكفى من الجدة والجاذبية للتجاوب مع الحتمية الباطنية ، لدى الشعب الإيطالى ، فيما بين الحربين العالميتين ، فجعلها تعارض البروليتاريا الاشتراكية تلك « الأسطورة البالية ، التى أخذ شأنها يتضاءل » ، كما كان يدعى (موسولينى) .

* * *

أمام هذه المعطيات التى تقوم كلها على اللا ـ منطق ، وعلى أغمض الغرائز البشرية ، أفليس من الغرابة المدهشة أن نسمع أصحاب النظرية العنصرية يقسمون الناس ما بين أصحاب «عقلية متفوقة » قابلة للتحضر ،وبين « شعوب قاصرة » عن فهم الحياة العصرية ومجاراة سيرها ؟

ألا يتصرف تصرفاً « بدائياً » كل من ينوط احتراماً خاصاً ، شبه دينى بمجرد رموز (كالعلم ، والنشيد القومى ، والتماثيل . . .) متخذاً منها « تابووات » مقدسة .

وما هو الميدان الحضارى فى هذا القرن العشرين الذى لا يتصرف فيه الإنسان تصرفا بدائيا بوجه من الوجوه ؟ إن كل البيآت اليوم ، مهما كان شأنها الثقافى ومستواها الحضرى ، تتعاطي عادة ارتهان الأسارى الشنيعة .

وعلى منوال البدائيين أيضا ، تلجأ الأمم الراقية إلى قضية « كبش الفداء » : أحرق النازيون الآلاف من الأحياء ، بدافع العنصرية (معاداة الساميين) أو بدافع الانتقام ، كما وقع فى (أورادر وسور غلان Oradour sur-glane)وشنقوا العشرات فى (تيل Tulle) ، فدية لضابط ألمانى اغتاله المقاومون الفرنسيون. إن جيوش الاستعمار الفرنسية والانجليزية، وغيرها من جيوش الأمم الراقية المتمدنة «الممدنة» قد سجلت أعمالا شنيعة فى تاريخ القرن العشرين . وأقربها بالذكر حركات التقتيل والإحراق التى قام بها ، بالجزائر ، رجال المظلات الفرنسيون ... وقد سجل التاريخ كذلك أحداثا إجرامية على اليابان، وأخرى على السوفياتيين بالمجر وبالاتحاد السوفياتى ذاته ، أيام الستالينية السفاكة . ولا ننسى الولايات المتحدة ، الأمة التى ضربت الرقم القياسى فى الرقى ، وما تفعله بالهند الصينى ، ومواقفها من الأمريكانيين السود أنفسهم ...

كل هذه وقائع أوردناها على سبيل المثال ، من بين وقائع كثيرة أخرى يعرفها القرن العشرون . إن العقلية الغربية تتأرجح بين المتناقضات ، وترتكز على أساطير متضادة[17] . من ثمة لا يجوز للغرب أن يدعي أنه يسير طبقا

---

(17) أنظر : R Kanter, Essai sur l'avenir de la religion, Paris, Gulljard.
– p. - L, Landsberg, problemes du pe sonnalisme, Paris, Le Seuil.
– Landsberg et F. Lacroix, Dianlogue sur le mytte, Paris, Le Seuil,

للمنطق الصرف . إن للغرب مواطن عظمة ومواطن ضعف ، كسواه من العقليات غير الأوربية .

* * *

فهل الغربى كائن منطقى ؟

نعم : غير أنه لا يفوق بالمنطق من ليس بغربى . المنطق ليس وقفا على أحد .

قد اعتمد علماء غربيون على التحليل النفسانى ، واكتشفوا فى أعماق الوجدان الإنسانى ، جيشا عرمرما من الغرائز البدائية ، كما اكتشفوا وراء العقل عالما كاملا من اللامنطق ، بل ومن العبث . ولقد صدق (كوفيليبى) عندما قال : « إن فينا غرائز بدائية ، وصبيانية ، وحتى مرضية » (المصدر المذكور ، ٢١٣) . إن المنطق لا يوجد أبدا صافيا محضا . فمن خاصيات الفكر أن يركب نشاطه من المعقول واللامعقول ، من الموضوعية والذاتية .

* * *

هذه كلها معطيات علمية ثابتة ، ولكن ، بين الواقع كما هو والواقع كما نتصوره ، هوة عميقة . فكثيرا ما يتغافل البعض عن الجوهر ليتمسك بالتافه والسطحى . ذلك أن شجرة واحدة تكفى لتحجب غابة بكاملها عن نظر من لا يريد أن يرى أبعد من الشجرة .

الحديث الحادى عشر

منهج علمى أم تظاهر بالعطف ؟

كثيرا ما يقال لنا ، بلهجة قاطعة تفتعل الاقتناع والتفهم وتحاول الإقناع: « ألا ترى أن الكونغو ، مثلا ، لم يكن يعرف ، قبل الاحتلال الأوربي، سوى الأكواخ الخشبية والمآوى المصنوعة من الأغصان ؟ وهل كان سكان أفريقيا الشمالية يعرفون استعمال ولو « الشوكة » ، عند الطعام ، قبل الحكم الفرنسي ؟ ... »

من خلال هذه العقلية ينظر بعض الغربيين إلى عاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم الخاصة ، ويعتبرونها نماذج عليا ينبغي أن تقاس عليها عادات وثقافات سائر الشعوب الأخرى .

فلو اقتصرنا على هذه الاعتبارات في تحديد مقاييس السلوك والثقافة ، لأصبح الكبرياء والتعصب للقوميات (أي شعوبية جديدة) في طليعة المعايير ، ولا نحصر فيها مقياس القيم . وتزداد المسألة تعقدا إذا اعتمدنا على هذه الاعتبارات الساذجة التعسفية لنستخلص قوانين عامة ثابتة . فأقل ما يقال ، في هذه الطريقة ، إنها تنافي المبادىء العلمية .

والسبب في ذلك ، أن علاقات الشعوب بالثقافات الأجنبية وبالحضارة ، التي هي إرث مشترك للبشرية جمعاء ، لا يمكن أن تحصر في نطاق ضيق محدود. إن القانون الوحيد الذي يسودها هو عدم خضوعها لقانون عام موحد. ألم يؤكد القرآن أن في التشابه فقرا وفي الاختلاف غنى ؟ والاختلاف هو الدليل البين على الجمال في الخليقة :

« ومن آياته :

خلق السماوات والأرض .

واختلاف ألسنتكم (ثقافاتكم) وألوانكم (أجناسكم ، قومياتكم) .

إن فى ذلك لآيات للعالمين » . (سورة ، ٣٠ : ٢١) .

ولكى ندرس دراسة موضوعية علاقة شعب ما بالثقافات التى تأتيه من الخارج ، لا بد من تطبيق المنهج العلمى : تمحيص كل ثقافة على حدة،والتدرج من ملاحظة الخاص إلى تحليله ، ثم الانتقال إلى مرحلة ثانية وهى التخلص من التحليل إلى تقييم الوقائع باعتبار العلاقات التى تربط بينها والأوضاع الخاصة بها . وبعد الفراغ من دراسة الثقافة القومية فى حد ذاتها ، وتفسيرها داخل نطاقها الخاص واعتمادا على تناسق أشكالها ، يمكننا أن نقارنها بسائر الثقافات الأخرى ، ثم بالحضارة الإنسانية التى تشمل تلك الثقافات جميعا .

* * *

إذا وضعنا المشكل فى المنظار الشخصانى (حيث تتعدى الحضارة نطاق ما هو قومى لتشمل كل ما هو إنسانى على وجه العموم) أتت المرحلة الخاصة بالمقارنة فى نهاية الابحاث لا فى أولها . وعلى الصعيد الإنسانى ، لا بد لنا من الارتكاز على مقياس ، أو عدة مقاييس شاملة ، لنصدر أحكامنا بموجبها ، وإلا لما كانت أحكامنا تطابق الواقع . فكثيرا ما يقع فى الشطط بعض المؤرخين وعلماء طبائع الاجناس البشرية والمحققين الصحفيين وسواهم ، نظرا لتجاهلهم ذلك المبدأ . يعتمدون على المقارنات والمقياس وعلى الذاكرة

فيجمعون بين الأضداد ، ويدخلون بذلك فى أبحاثهم عناصر شتى خالية من الانسجام .

ولا غرو فى ذلك ، إذ أن عملية الإدراك الأولية تتم فى نطاق الذاكرة . وما دخل شيء دائرة الإدراك والتفكير إلا وأصبح موضوعا للذاكرة، وبالتالى يتعرض إلى الزيادة أو النقصان ، بل أحيانا إلى شيء من التغيير ، فيفقد بذلك جزءا من كيانه الموضوعي .

لقد تصدى بعض الأثنوغرافيين إلى دراسة « شعوب ما وراء البحر » ، بعقلية غربية محض تعتمد على مقولات ومسلمات نشأوا عليها ويعدونها أسسا ثابتة لا تقبل أى منافسة أو تحوير أو تلقيح ، أو مناقشة ، فأنجبت دراساتهم أبحاثا لقيطة : ما دامت المعايير غربية والموضوعات لا — غربية ، لم يكن بد من أن تظهر النتائج خليطا من المتناقضات ، وأن توصف ، بظاهرات « البداءة » فى بيآت « متخلفة » . فلا تخلو أبحاث أولئك الاثنوغرافيين من نغمة رومانطيقية وعناصر يزيدونها من مخيلتهم بغية الغرابة والتجميل والتشويق . وهذه كلها طرق تخالف المنهج العلمي لأنها تبتعد عن الواقع وتتصرف فى معطياته ، نقصا أو تنمية، مما يجعل ، فى نظرهم ، الشعوب غير — الأوربية رهوطالا تعيش إلا على الاساطير ، وأن هيكل « المنطق » عندها متضارب الاركان تتناقض مقدماته بنتائجه ، لا يؤمن بقوانين الطبيعة ، ولا يتفهم نواميسها . فلا يضير فى شيء « المتخصصين » فى شؤون شعوب ما وراء البحر أن يعالجوا مشاكل عامية بأساليب تتنكر للعلم جملة وتفصيلا ، إذ المهم عندهم أن يثبتوا ، فى النهاية ، فروضا وضعوها مسبقا ، قبل الشروع فى البحث : من المسلمات التى لا تقبل

نقاشا أن المعاشر غير الغربية ، إما بدائية ، أو قريبة من الطور البدائى ، وأنها، فى كلتا الحالتين ، لا تتعدى أبدا ، فى استنتاجاتها ، التجربة الحسية لترتفع إلى درجة الإدراك العقلى وإلى مفاهيم مجردة عن الاساطير وعن تدخل العفاريت والموتى والاشباح المختلفة ...

* * *

وتحاشيا لهذا التشويه الذى كثيرا ما يستدرج حتى ذوى النوايا الطيبة فيصبحوا دعاة النظريات الاستعمارية والعنصرية ، يجب على الباحث ، إذا ما حاول أن يدرس ذهنية شعب ما ، أن يبرز ، قبل كل شىء ، ما فى المرفولوجيا الثقافية عند ذلك الشعب من توتر نحو الحضارة الإنسانية ، أى ما يتجه نحو الشمول والوحدة المشتركة . فاذا فعل ذلك فى البداية ، انفتح أمامه منظار على اختلافات شكلية، وعلى مستويات من التخلف والركود الجزئى أو الكلى. ولن يجد ، مطلقا ذهنية تختلف عن ذهنيته وذهنية الغرب اختلافا نوعيا. فليصفها إذ ذاك بـ «بدائية» إن شاء ، ولكنه سيجد أن فى بيئته أيضا من «يفكرون» بذهنية مشابهة لها . فكلما رفض باحث هذه الحقيقة ، انزلق فى هاوية أفظع من العنصرية ، إذ أنه لا يفضل دما على دم بل ينتزع عن غير الغربيين ، أى عن الاغلبية الساحقة من الكائنات البشرية، كل ما يؤنسنها ويميزها عن الحيوانات العجم : القدرة على الإدراك ، وتحقيق الذات عن طريق ذهنية ذات كيان منطقى .

* * *

نعم ، لكل جيل منطق ، ولكل طبقة مجتمعية منطق ، ولكل حرفة منطق . تختلف هاته « المناطق » فى أشكالها وفى التعبير عن التجارب الخاصة

والمصالح المختصة ، ولكنها جميعا تتفق على أسس أولى ضرورية . ونفس الشيء بين البيآت والذهنيات الاجنبية : تختلف فى كثير ، وتجتمع فى الاسس . أنجوز أن نصف القدماء بـ « البدائية » لان منطق القرن العشرين يعارض تماما المنطق الارسطى الصورى ؟ لو فعلنا لكفرنا بالموضوعية وبالصيرورة التاريخية .

إذن ، إن لكل مجمع بشرى « بدائية » ، ومنطقا ، بل « مناطق » . ولاعجب أن يجد الباحث الغربى فى ذهنية غير الغربيين مايخالف ذهنيته ، وأن يعثر على متناقضات . ولكن ، بالرغم من كل ذلك ، لكل البيآت ، مهما اختلفت ، نزعة إلى المحافظة على كيانها الثقافى الخاص مع توتر نحو تجاوزه إلى ماهو أكثر منه شمولا ، أى نحو تدعيم وتلحيم الحضارة الإنسانية . فالذين يتكلمون عن « الحضارات » (بصيغة الجمع) يتجاهلون أصلا ذلك التوتر . ذلك القاسم المشترك .

لقد أثبت لنا التاريخ والإثنولوجيا أن بين الثقافات تمازجا وتبادلا فى العناصر والمظاهر التى تتألف منها الحضارة . فلايصبح من مفاهيم الحضارة وموضوعاتها إلا ما كان قابلا « للنزوح » من شعب إلى شعب ، ومن جيل إلى جيل . أما ما كان خاصا أو محليا إلى حد بعيد ، لايقبل الانتقال ، فلا يدوم إلا بقدر ماتدوم (الموضات) . إن اندماج الثقافات يؤلف تراثا متزايدا من المنجزات « الدولية » أى المدنية التى يمكن أن نشبهها بجذع مشترك لفروع متعددة .

* * *

يتغافل عن كل هذا بعض علماء طبائع الأجناس البشرية فى أبحاث عن

«شعوب ما وراء البحار»،حينما يستخدمون المقاييس والمفاهيم الغربية ويعتبرونها حقائق مطلقة . لذا تكون النتيجة أنهم يتوصلون إلى « مايقارب الواقع » لا إلى الواقع . فما يسترعى اهتمامهم ، على مايبدو ، هو إشباع رغباتهم الفضولية أو ميولهم إلى كل غريب مستهجن ، فإذا بهم يحصرون عنايتهم فى البحث عن أساطير تلك الشعوب ونقائصها . وبما أن الشعوب « المتخلفة » تفتقر إلى الذكاء، بحكم مبدإ مسلم به ، فلا عجب من أن يحاولوا شرح كل ما لتلك الشعوب من فن وعادات بواسطة الأساطير والمنطق البدائى. إن الذى يتعمق فى تحليل عقائد المعاصرين ، مهما يكن موطنهم ، يستخلص أن للأسطورة مفعولا جذابا ، يتعذر علينا اكتناه مقدرته ، لأنه كامن فى لاشعورنا . . ذلك أن للاساطير جمالا يتعدى الناحية الفنية ، كما أن لها تأثيرا وتعبيراً مباشراً يكتسب عطفنا ، حتى ولو خطر لنا أن نقاومه .

ومن ناحية أخرى ، يتضح من الأبحاث التى أجراها علماء يتمتعون بكامل التقدير والإعتبار ، أن تأريخ سكان جزر (الميلا نيزيا) مثلا ، يثبت أن بنية ذهنيتهم تتركب من عنصرين : الخضوع إلى الأسطورة ، والميل إلى تحكيم العقل . ويؤكد القس (لينهارت) الإخصائى الكبير فى دراسة مجتمع قبائل (الكاناك) أن هذين العنصرين وجدا معاً ولم يسبق وجود أى منهما الآخر . ومما يقول فى هذا الصدد :

« لقد استعمل الإنسان التفكير الأسطورى فى تأويلاته الذهنية الأولى ، ولكنه لم يستعمله فى تأويلات ما يحتك به فى العالم المحسوس (الليل والبرد ، والصلب وما شاكل ذلك)، هذا العالم الذى أوحي له باللغة . إنه لا وجود لأية لغة

بدائية معروفة تخلو من استعمال الإدراك العقلى . فالإدراك العقلى أولى لم يتأخر عن الأسطورة فى بروزه إلى حيز الوجود خلال تاريخ الفكر »[1].

من هنا يظهر مدى الخطل الذى يقع فيه كل من يؤكد أن « العقل إغريقى والإنفعال زنجى » ! ![2] ولا شك أن التواجد ، بل التعاون الإيجابى ، بين العقل والأسطورة لم يخل منه الفكر البشرى قط ، حتى عند مفكرى العصر الكلاسيكى الأغريقى واللاتينى . ولئن لم يكن هنالك أى تفاوت فى الوجود بين العصرين الأساسيين للفكر ، فإن المسألة أصبحت هى : كيف ، ومتى حصل التمييز بينهما ؟

* * *

للإجابة على هذا السؤال ، لا بد من العودة إلى ماقلناه آنفا عن نشوء العقل وتطوره ، وعن أثر البيئة الطبيعية من حيث التربة والمناخ[3].

يرى القس (لينهارت) ، أن الإدراك العقلى اقتضى فترة من التلمس والتطور قبل أن ينضج ويتمكن من القيام بمهمته خير قيام ، أما الأسطورة فلم تكن بحاجة إلى ذلك ، لأنها تعززت بالمنظور المستوحى من التقنيات . وهذا التأكيد يتفق وماسبق أن قاله (ليفى بريل) منذ ١٩١٠ ، فى نهاية كتابه عن « الوظائف الذهنية » . ومما جاء فيه : « إذا صح أن نشاطنا العقلى منطقى وبدائى معا ، فإن

(1) M. Leenhardt, Do Kamo, Paris, Gallimard, 1947, p. 241

(2) من تصريح للرئيس سانغور (الشاعر والسياسى السنغالى)

(3) أنظر الحديثين : 8,7 .

من شأن ذلك أن يلقى نوراً جديداً على معتقداتنا الدينية ، ومذاهبنا الفلسفية » .
وعليه ، فإن التباين فى مواقفنا وعوائدنا لا ينجم عن اختلاف أجناسنا البشرية ، بل عن الأنظمة المجتمعية والأحكام المسبقة ، والعقائد التى طبعنا بها مجتمعنا .

هناك نموذج يجدر بمعارضى تطور المرأة أن يتأملوه مليا . لقد توصلت (مرغريت ميد Margaret Mead) الإخصائية فى هذا النوع من الدراسات الاجتماعية ، بعد بحوث طويلة دقيقة خصصتها لثلاث قبائل ، توصلت إلى أن تثبت ، بصورة لا تقبل الشك ، أن التفاوت السيكولوجى ذاته بين الذكر والأنثى (ذلك التفاوت الذى يبدو لنا طبيعياً) يرجع ، فى نهاية الأمر ، إلى التأثيرات المجتمعية والعادات التى أصبحت عقائد . كما لاحظت العالمة الأمريكية المذكورة أن الرجال ، فى إحدى تلك القبائل ، هم الميالون إلى الحياء والدلال والغنج ، وهم الحريصون على أناقة هندامهم ، وهم المتعاطون للفنون الجميلة : إنهم يطرزون ، بينما تتعاطى النساء الأعمال التجارية الفلاحية ... وتمتاز النساء بطابع القوة الجسمية والروح العملية . وقد أدت الدراسات التى قام بها باحثون آخرون إلى تأكيد النتائج التى توصلت إليها (مرغريت ميد) . هكذا نرى أن التاريخ والحياة اليومية يكذبان ، بصورة قاطعة ، أولئك الذين يزعمون أن المرأة أقل كفاءة من الرجل (من الناحيتين الفيزيولوجية والذهنية) للقيام ببعض المهام العقلية أو للاضطلاع بالمسؤليات .

* * *

ولننظر الآن فى المسألة عينها نظرة أكثر شمولا .

يسوغ لنا (علمياً وتاريخيا) أن نؤكد أنه لا وجود لأجناس ولا لشعوب أقل كفاءة من سواها على الصعيد الإنسانى ، بل كل ما هنا لك ، هو تباين فى مراحل التطور ودرجاته ، بسبب الظروف الجغرافية والاقتصادية التى تكون تارة مواتية لهؤلاء ، وطورا لأولئك ، على توالى الحقب التاريخية . ولكن ، لا يوجد أى شعب أو عنصر بشرى غير قابل بالطبع للتأثر بالحضارة ، نظراً لأصله العرقى .

وعلاوة على ذلك ، فإن عوامل طبيعة البشر كثيراً ما غيرت اتجاهاتها مع توالى العصور ، خلال تاريخ التطور . وبهذه القولة إنما نثير ،فى الواقع ، مشكلة عامة هى مشكلة التقدم والانحطاط ، أى مشكلة الحضارة برمتها . نعم ، قد تمكنت شعوب « متخلفة » و « غير متمدنة » من المحافظة على الذاتية رغم « بدائيتها » . ألا يعنى هذا أنها عرفت كيف تنتزع البقاء من قبضة الزمن ؟ فالحياة نسق يقتضى من الإنسان اللجوء إلى فنون ومعارف وأساليب وتقنية يسخرها باستمرار لتحقيق شخصيته . ولانسنة الكون.

كل شعب ، (حتى لو بدا لنا أن تمدينه أمر مستحيل ، أو كان خلوا من كل ثقافة) ، بصفته موجودا ،يثبت قدرات وقابليات على الحياة ، وبالتالى يثبت أن جهوده تتعدى نطاق البرهة الحاضرة لترمى إلى الديمومة ، أى إلى التعالى عن الذات الحالية . إنه يتجاوز ذاته ليحيا ، ولا يمكنه أن يحيا بدون هذا التجاوز المستمر . فالحياة الروحية ، واحترام المقدسات والاعتماد على الاساطير ، وعبادة الاجداد ، ليست كلها سوى نوع من حاجة الإنسان الملحة إلى أن يحيا فى صميمية الكون ، ويشاركه فى سيره . وكل ذلك يعتبر وثبة نحو التعالى . نقول نفس الشىء بالنسبة للسحر ، على اختلاف مظاهره . إنه يصبح « مهنة جدية » ، لدى

« البدائي » ، نظراً لما ينسبه إليه من قوة على الاكتشاف والابتكار وعلى تحويل طاقات من الكون إلى الإنسان ، مما يمكن من الإسراع فى السير نحو اكتشاف الاسرار الكونية والسيطرة عليها .

* * *

هكذا ، فالجماعات لا تستمد كيانها إلا من النشاط الخلاق المستمر الذى يضفى عليها المعانى . ولكن، هذا النشاط الخلاق لايمكن أن يوجد إذا لم يتجه بجرأة أعظم نحو الكفاح ضد ضغط البيئة التاريخية المجتمعية ليضمن الاعتراف بكرامة الشخص ، وليضع الشخص ، قبل وفوق جميع الاشياء ، وليفرض وجود كل شخص على الكون باعتباره يمثل قيمة فى حد ذاته لا يجوز التخلى عنها . وهذا شرط ضرورى لبناء حضارة أخوية ، شخصانية تقوم على العمل .

يقتنع عدد من الباحثين أن الفصل بين العقلية « المنطقية » والعقلية « البدائية » لا يقوم على أى أساس ، بل يناقض الواقع ، ومع ذلك ، قد أخذوا بنظريات (رينان) الذى ذهب إلى أن بذور التقدم المتنوع ، غير المتناهى ، تراث خصت به الشعوب الغربية ، دون سواها . أما الشعوب الاخرى أو « الاجناس المنحطة » ، فعقيمة ما تزال تتخبط فى طفولة يرثى لها[4] . وهم يرددون هذه التأكيدات بصورة جازمة ، ويعتبرونها مبادىء بديهية لاتقبل الجدل ، أى « حقائق أولية » ، مع العلم أن الحقائق الاولية لا وجود لهـا ، وكل ما هنالك ، كما يقول (غاسطون باشلار) : « أخطاء أولية » فحسب . من تلك

---

(4) Ernest Renan, Histoire Générale et systémes comparés des langues sémitiques, Paris, 5e éd., 1878.

الأخطاء الأولية ، ادعـاء (رينان) أن العنصر السامى لا يمتاز إلا بصفات سلبية :

« فليس له أساطير ، و لاملحمات، و لاعلوم ، و لا فلسفة ، و لا أدب خيالى، و لا فنون جميلة ، و لا حياة مدنية . تفكيره لا يصل إلى ما فى الأشياء من تعقيد ولوينات . إن السامى لا يستطيع أن يميز بين دقائق الأمور . فشعوره يقتصر على الوحدة . لذلك لا يمكن أن يوجد الاختلاف والتنوع فى مذهب ينبنى على وحدانية الله المطلقة ... » (نفس المصدر ، ص ١٩) .

إن (رينان) يفخر بكونه أول من اكتشف :

« بأن العنصر السامى، إذا ما قورن بالعنصر الهندى — الأوربى ، لايؤلف فى الواقع إلا مركباً منحطاً من مركبات الطبيعة البشرية » (نفس المصدر، ص ٤) وبالتالى ، فعلى « العنصر المتمدن » أن يفرض ثقافته العالية ، ولو بالحرب إذا اقتضى الأمر :

« إن الشرط الجوهرى لنشر الحضارة الأوربية (...) هو زوال الإسلام (...) وستظل الحرب قائمة ، فى هذا المضمار ، ولن تنتهى إلا عندما يموت آخر ولد من ذرية إسماعيل، بؤسا ، أو عندما يدحره الإرهاب فيتقهقر حتى قلب الصحراء ... » [5].

* * *

(5) E, Renan, D la part des peuples sémitiques dans la civilisation in «Discours d'ouverture au Collége de France», Paris, 1862, p. 27.

على هذا النحو ، تخاط المسالك وتدفع العنصرية إلى احتكار الحضارة ، ولا يعترف لأى ثقافة إلا إذا اصطبغت بالطابع الآرى الصافى الخالص ! وقد اندفع أصحاب هذا الاتجاه من ميدان النظريات إلى ميدان الدعوة إلى الحروب العنصرية والمطالبة باستئصال جنس بشرى بأكمله ! أليس ذلك إفلاسا للحضارة ، وانحطاطاً للقيم ، وانتصارا للهمجية ؟

لكن ، إذا صح أنه توجد ذهنات « غير منطقية » ، فإن « اللا — وجود » أو العدم لا يمكن أن يخضع لقوانين المنطق ! إن « اللا — وجود » يمكنه أن يكون شعريا ، وجذابا طالما يبقى منحصرا فى عالم الخيال . بيد أنه يصبح مناقضا للمنطق ، ومرادفا للعبث إذا حاول بعضهم أن يستعيض به عن الواقع ليقيم مذهبا فلسفيا أو علميا .

كلما انطلق مفكر من مسلمات تنبنى على العنصرية ، أسفرت أبحاثه عن نتائج أنثروبولوجية مخالفة للعلم وللمنطق ، فيلتقى لامحالة مع (رينان) ، ويلتقيا معا فى الدعوة إلى استئصال اليهود والعرب وسائر الساميين ، بالإضافة إلى السود والصفر . . . لأن هؤلاء جميعا (فى نظر رينان) وأمثال (رينان) ، أرهاط دون « البشرية » . كيف يجوز لمن ليس من دم آرى خالص موروث ، أبا عن جد ، منذ النشأة الأولى ، كيف يجوز لمن ليست له بشرة بيضاء أن يدعى أنه « إنسان » ؟ هل أسهم قط أولئك الأقوام ، المزركشة الألوان ، فى بناء الحضارة بقسط إنسانى يذكر ؟ لاشك أنه ينقصهم ماسماه (روزنبوغ) ، فى كتابه « أسطورة القرن العشرين » ، « بالروح العنصرية للمجتمع » التى هى مقياس « كل فكر وأمنية وعمل ، كما أنها المقياس النهائى لجميع القيم » .

وبطبيعة الحال ، إذا فهمنا الثقافة على هذا النحو ، أصبح دورها شبيها بدور اللسان فى إحدى الحكم : إنه أفضل عضو بالنسبة إلى الغربيين ، وأفظع كارثة بالنسبة للشعوب الأخرى . . .

* * *

إن البحث الموضوعى العلمى ، إن لم يتخلص عند البداية من الأحكام المسبقة ، لا يمكن أن يتوصل إلى نتيجة واقعية ذات قيمة ، ذلك أن الأحكام الخاطئة ، قد تتطور ، ككل ما هو بشرى ، فتصبح تحاملا وانحيازا ، بل طاقة عاطفية عمياء ، ولا يخفى أن التحيز يخون الأمانة العلمية والنزاهة الأخلاقية .

الحديث الثانى عشر

الوحدة فى تعـــدد

يهتم اليوم المفكرون بتوحيد الإنسانية اهتماما أكثر من كل وقت مضى: تعددت المؤتمرات الدولية ، والمناظرات العلمية ، كما تأسست الهيئات العالمية (اليونيسكو ، منظمة الصحة الدولية ، الاتحادات النقابية العالمية ، . . .) . إن هذا الاتجاه نحو « الوحدة » لم يتقدم له مثيل فى التاريخ .

فهل يعتبر ذلك خيراً أم شراً بالنسبة للنوع البشرى ؟

سيحكم التاريخ لامحالة على هذا الاتجاه ، أما نحن فمهمتنا ، فى الفترة الحاضرة ، ليست إصدار أحكام تقويمية ، وأحكام تقييمية ، بل فحسب رصد الأحداث التى نعيشها ومحاولة تفهمها .

* * *

من الخصائص الأساسية لحضارة المدن ، فى مرحلتها الراهنة ، تقدم المواصلات بين المناطق وبين القارات لدرجة أن الشعوب ، وحتى الأكثر بعداً أو تباعداً فيما بينها ، أصبحت اليوم متقاربة ، كامل القرب والتقارب ، نتيجة لوجود اهتمامات مشتركة بينها . وهذا التطلع إلى الوحدة ظاهرة تاريخية لا يمكن تكرانها . وإذا كانت درجة سرعة هذه الحركة تختلف من مجتمع لآخر ، فذلك يرجع إلى تفاوت فى وعى الجماعات البشرية لما يدور حولها .

لسنا فى حاجة إلى أن نوضح بأن أولئك الذين يدعون إلى توحيد العالم عن طريق التكتلات ، داخل مجموعات مسلحة تتهيأ لحروب صليبية من رهط

جديد ، ليسوا دعاة حقيقيين لوحدة الشعوب . فإذا كان التاريخ لا يستجيب عن رضا لوحدة شاملة موجهة ، فهو كذلك يرفض ، بعناد أكثر صرامة ، كل وحدة مطلقة ، لأن الإنسانية متعطشة إلى تواجد منسجم يحترم تعدد الأمم والمعتقدات ، والثقافات . وتحقيق هـذا الهدف يجعل استقلال جميع الشعوب أمراً مسلما به ، لأن مهمة الاستقلال هى إيجاد المناخ الصالح لتضامن عالمى مثمر .

فى كل مجتمع بشرى توجد أغلبية لها روح القطيع ، لـكن ، إلى جانبها تظهر ، من حين لآخر ، ضمائر مستقلة ، وشخصيات متميزة وإن كانت لا تمثل أمتها إلا جزئيا . فمثلا : ليس كل الفرنسيين مثل الفنان (هانرى ماتيس) أو الفيزيائى (جان بيران) ، كما أن جميع الألمانيين ليسوا مثل الفيلسوف (هيجل) أو الشاعر (هولدرلن) . فباستطاعة إفريقى « بدائى » من أدغال خط الاستواء أن يتوصل ، عن طريق التعليم ، إلى فهم أبحاث العالم (لانجوفان) وإلى تذوق آثار النحات (روادان) أحسن من ملايين من الفرنسيين الذين لم تسمع أغلبيتهم باسمي هذا العالم وذلك النحات ! وهذا يرجع إلى أن لـكل إنسان أفقه الخاص ، ولا يستطيع أن يتواصل إلا مع أشباهه ممن ينتمون إلى نفس الأفق[1]. فالقضية ليست قضية عنصر ، أو جنسية ، أو لغة ، أو معاصرة ، وإنما هى قضية تخصص واهتمام كما سنوضحه .

* * *

---

(1) وهذا ما نسميه بالأفق الشخصى (انظر ج كتابنا De l'Etre a la Personne ، باريز ، المطابع الجامعية الفرنسية ، من ص 147 إلى 163 .

إن العامل الذى يشتغل فى مصانع (رونو) يفكر ويتصرف فى نطاق أجرته ، ونقابته ، وفريقه الرياضى ... هذه هى العناصر المكونة لأفقه . يمكن للنشاط الثقافى أن يلعب دوراً فى تكوين هذه العناصر ، إلا أنها تظل مع ذلك خاضعة لوضعية العامل . ثم إلى النشاطات الثقافية لا يمكنها ، فى معظم الأنظمة السياسية المعاصرة ، أن تصبح إهتماما رئيسيا ، لأن العامل هو ، قبل كل شيء ، عامل ، ثم بعد ذلك قد يكون هاويا للفن ، أو للمطالعة ، أو للرياضة البدنية .
وبصفة عامة ، إن العامل الباريسى يبدى اهتماما بما يجرى فى معامل (فورد) الكائنة وراء المحيط الأطلسى ، بالولايات المتحدة ، أكثر من الاهتمام بمتحف (رودان) أو المكتبة الوطنية ، والأماكن المماثلة التى ربما كانت على بعد مئات الأمتار من مسكنة لا أكثر ، ومع ذلك لا يعرف عنها شيئا لأنها ليست هى الاهتمامات المباشرة فى أفقه . وعلى العكس من ذلك ، فإن طالبا فى (باماكو) قد يعرف ، بفضل القراءة ، (بوسان) و (سارتر) و (إيلوار) (Eluard) ويهيم (بيتهوفن) أو (رافيل) الذين أوجدت المطبعة والإذاعة بينه وبينهم ألفه وثيقة .

* * *

ماذا نريد أن نثبت بهذه الأمثلة ؟

نحاول أن نؤكد شيئين :

أولا — أن المواطنة لم تعد الأساس الحقيقى للتواصل الإنسانى ، حتى ولو كانت هذه المجاورة تحمل إحدى المفاهيم المتفق عليها : سياسياً (مثل القوميات) ، أو جغرافياً (الأسيويون ، والأوروبيون ...) ، أودينيا

(المسيحية والعالم الإسلامى ...) فالمسمى واحد : إن أساس التحام الأفراد داخل معشر ما (قبيلة ، شعب،أمة ، دولة ...) يتغير طبقا للظروف التاريخية الخاصة منها والعامة . فكم من إنسان اكتسب جنسية جديدة غير التى ورثها عن آبائه ، وكم من كاتب يحرر بلغة أجنبية أفضل مما يفعله فى لغته الأم ... لكن رغم الاختلاف فى العنصر والجنسية واللغة ... ، هناك قاسم مشترك بين جميع الكتل البشرية ، وهو ما عبر عنه الحديث : « كلكم من آدم ، وآدم من تراب » . مغزى هذا الحديث أنه ، نتيجة لأصلنا الواحد المشترك لا يمكن لأى كان أن يزعم لنفسه تفوقا جنسيا ، أو قوميا . ويقول القرآن :

« منها (أى الأرض) خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » (سورة طه : ٢٠ ، ٥٥) .

ثانيا — لاتوجد عقليات منغلقة أمام الثقافة ، وعقليات متفتحة «طبيعيا» للحضارة ، بل إن كل ما هناك هو أنه توجد شروط (ملائمة أو غير ملائمة للتفتح) وأوضاع خاصة . فطبيعي أن يكون تفاوت فى الموهبة ، وذلك أمر ينطبق على كافة المجتمعات ، لقد أكد الإسلام الوحدة الأولية للنوع البشرى وأرجع الاختلاف الموجود بين الشعوب إلى تعاليمهم ومواقعهم الجغرافية :

« كان الناس أمة واحدة ،
فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ،
وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »
(سورة البقرة : 10,2 [2]

* * *

(٢) انظر : كذلك (6 : 2 و 30 : 20) .

ولنقف الآن قليلا عند المعاصرة ...

يذبئنا التاريخ بأن كثيرا من العباقرة والمفكرين أسيئت معاملتهم ، وأنكر فضلهم ، بل تعرضوا ، فى بعض الأحيان ، لاضطهاد معاصريهم . فإذا كان (ديكارت) قد اقتصر على وضع « أخلاق مؤقتة » ، فإن ذلك يرجع إلى تخوفه من ألا يفهمه وسطه ، ولأنه لم يرد أن يشتبك مع الكنيسة والمثقفين من أجل ذلك ، تردد ولم يتقدم على نشر بعض إنتاجه العلمى متعظا بما حدث (لجاليلى) من قبل .

وكذلك نجد أن الواقعية فى فن (كوربى Courbet) لم تحظ بتقدير معاصريه . ولكن الديكارتية عرفت نجاحا كبيرا بعد موت (ديكارت) ، وأصبحنا اليوم نعجب بلوحات (كوربى) ونعتبره رساما كبيرا . لتمى نفس المصير الشاعران الامريكيان (ادكاربو) (والط ويتمان) اللذان لم يحظيا بتقدير مواطنيهما . ومنذ بضع سنوات ، عندما كانت مسرحية (كريستوف فرى) تصادف نجاحا باهراً فى لندن ، ضجر منها النظارة فى باريس ، وصفروا ضدها معبرين عن عدم فهم المسرحية !

ورغم اللامبالاة التى أبداها معاصرو (بو) و (ويتمان) نحوهما ، فقد أصبحا علمين من أعلام الأدب العالمى ، بفضل شعرهما الإنسانى . وإذا كان الباريسيون اليوم لا يتذوقون مسرحية الكاتب الإنجليزى (فرى) المعاصر لهم ، ويفضلون عليه الإغريقى (سوفوكل) بالرغم عن 25 قرنا من الفرق الزمانى ، فذلك راجع إلى أن (سوفوكل) و (شكسبير) و (موليير) قد أبدعوا أشخاصا خالدين ، مثل (أنتيغون) و (ياغو) و (طارتيف) ، فى حين أن الكاتب البريطانى المعاصر لم يستطع خلق نماذج إنسانية عالمية ، بل

صور شخصيات تساير ذوق جمهور خاص من الأنجلوسا كسونيين .
ويمكن أن نقول نفس الشيء عن مسرحية (بطاط)[3]. فبينما النقاد والجمهور
بـ (نيويورك) يهاجمون هذه المسرحية كانت الفرقة الباريسية تصادف نجاحا
باهرا بتقديمها « دون جوان » (لموليير) ، « والسيد » (لكورنى) ،
فى نفس الوقت وفى نفس المسرح ! قد لاحظ الأستاذ (مارو) أن القديس
(أغوسطينوس) كتب بلغة تماثل لغة (شيشرون) ، وأنه تلقى نفس التكوين
مما جعله أقرب إلى عهد النهضة منه إلى العصر القديم ، ومما جعله أيضا أقرب إلى
(دانتى) منه إلى (شيشرون) :

« إن القديس (أغوسطينوس) بفكرته عن الحياة الروحية ،
وبالأهداف التى كان يسخر ذكاءه ، لتحقيقها ، وبتفانيه فى خدمة الرب الخالد ،
يعتبر نتاجا لحضارة القرون الوسطى ، ويظهر لنا أن الانتقال من العصر القديم
إلى العصر الوسيط قد تم على عهده » .[4]

يوجد الفكر الإنسانى دائما متأطراً ، فى مكان وفى زمن ، فإذا لم يكن
جميع الناس عبقريين ، فلأن العبقرية نسبية ونادرة ، وكل ماله طابع عبقرى
لابد أن يكون استثناء ومتجاوزا للإطار القومى .

* * *

يمكن القول ، استنادا على ما تقدم ، بأن التواجد المكانى والمعاصرة ،
لايمثلان الأس الحقيقى للتواصل البشرى ، فبقدر ما ترمى الثقافة إلى مستويات

---

(3) للكاتب الفرنسى (مرسيل أشار) M. Achard, Patate.

(4) H. Marrou, Culture, civilsation et décadence (in R. de synthése, 8, 1938, p. 152)

إنسانية بقدر ماتتعدى الحلبة القومية . فلا ثقافة إلا بالنسبة لجماعات ، وليس من الضرورى أن تتألف هذه الجماعات من مواطنين أو أشخاص لهم معتقدات واحدة : الثقافة مشتركة بين جميع من يعيشون نفس المشاكل ، ويتوفرون على نفس المقاييس ، ويصبون إلى تحقيق نفس الآمال . فلا غرابة ، إذن ، أن نلاحظ مثلا وجود وحدة فكرية وشعورية بين السود ، ووجود إهتمامات متماثلة ، بالرغم عن اختلاف أوطانهم ودياناتهم ...[5] هكذا يتجاوب البرو تستانيون السود فى أمريكا مع السنغاليين المسلمين ومع سكان جزر (الأنتيل) الكاثوليكيين ، أكثر مما يتجاوبون مع مواطنيهم الأمريكيين . نلاحظ نفس الظاهرة ، فى المجال الاستعمارى ، حيث نجد بين جميع الشعوب المحتلة رابطة وثيقة من التضامن ، لشعورها بأنها مشحونة فى نفس السفينة ، ومن ثم فإن هذا التضامن العاطفى يصبح تضامنا فعالا كلما أتيحت له الفرصة[6] .

إن الدين ، والتماثل السلالى ، والقومية ، لا تكتسب كثافة إلا عندما تلتحم بوحدة الأهداف والمشاعر والمصائر ، وهذا التضامن هو الذى يؤسس وحدة عاطفية داخل العالم الأسود أو بين الشعوب المستعمرة .

* * *

---

(٥) انظر : العدد 10 من Presence Africaine (سنة 1956) وهو عدد خاص بمؤتمر الكتاب الأفارقة السود .

(6) بهذه المناسبة يجب أن نتمعن فى المعنى التاريخى والسياسى البعيد المدى الذى أعطاه مؤتمر (باندونغ) للحركات التحررية فى العالم . كما يجب أن نتأمل الدلالة الجديدة للتعاون ضد الاستعمار الجديد التى تمخضت عن تكوين كتلة شعوب آسيا وإفريقيا ، داخل جمعية الأمم المتحدة وخارجها .

حتما ، هناك نوعان من القومية : قومية شرعية ، ولكنها شكلية ، وقومية واقعية . فمثلا كثير من المغاربة ليس فى سلوكهم ولا فى ذهنيتهم أسس المغربة ، كما أن كثيرا من اليابانيين أو الألمانيين يظلون غرباء فى وسط شعوبهم . ففى جميع الأقطار « مهاجورون من الداخل » . فالأخوة الحق تقوم على أساس من وحدة المطامع والمسرات والآلام . وأن مهمة الثقافة الأصلية هى التعبير عن كل هذا وجعله ملموسا مع إعطائه معنى يدخله ضمن الحقائق القومية والإنسانية معا . فالدين ، والقانون ، والوطنية ، تفرض احترام المواطن والمشارك فى نفس الديانة ، ولكنها لا تفرض علينا حبهم ، ذلك أن الحب ، بالنسبة للكائنات البشرية ، ليس معناه الخضوع لنفس العقيدة أو المواطنة ، بل معناه الانطلاق نحو نفس الأهداف ، والانفعال بنفس الاهتمامات ، والعمل بنفس الحماسة .

قد يحدث أن يتعارض ما للتعاطف والانسجام الفكرى والإعجاب من قوى تلقائية ، مع التقاليد الدينية الخاصة والمشاعر القومية والوطنية المألوفة . إن الحب توتر وجدانى واتجاه نحو الآخر ، فى حد ذاته ولذاته ، بغض النظر عن ورقة التعريف والهوية .

يتجلى الحب بهذا المفهوم بوضوح فى الميدان الثقافى ، لأن الثقافة ، بصفتها ترمى إلى تهذيب الأفكار والعواطف ، تعمل على إعداد الناس للتفاهم المتبادل ، والتعاطف والنزاهة . إن الثقافة تخلق روابط تعتمد على أكثر الأسس شمولا ، على تلاؤم القلوب ، وتآلف الأفكار . أليس الارتواء من منهل ثقافى واحد معناه اكتساب نظرة مشتركة للأشياء فى مجموعها دون التلكؤ عند اللحظات العابرة أو التفاصيل الخاصة ؟

من هنـــا مصدر الظلم الفادح الذى يرتـكبه عصرنا إذ يحرم ما يزيد على مليارى شخص من وسائل التثقيف، والتواصـل، والارتفاع فوق مستوى الآلات التى لاتعرف غير الإنتاج، والحيوانات التى تـكتفى بالاستهلاك[7]. لقد أصبحت الثقافة اليوم أحد أبعاد الـكائن البشرى، لذلك، كان حرمان أى شخص من أن يتثقف، معناه حرمانه من أن يحقق شخصيته، ومن أن يتحول من الوجود الخام إلى الحياة الواعية. إن هذا الاستلاب، فى الواقع، يجعل منه عضو أبتر، مع أن وسائل نشر التعليم والمعرفة جد واسعة فى عصرنا[8].

(7) لقد صرح الدكتور (لوتير ايفان L. Evans) المدير العام لليونسكو، خلال ندوة صحفية سنة 957، بأن سبعمائة مليون بالـغ (أى نسبة ٤٤ ٪ من سكان العالم) أميون. ونضيف أنه يوجد فى دولة راقية مثل فرنسا نسبة ٣ر٦ ٪ من الأميين!

(8) المقادير المخصصة لمساعدة الدول المختلفة لا تتجاوز أربعة ملايير من الدولار. بينما تبلغ قيمة ما يخصص للتسلح أكثر من مائة مليار دولار!...

الحديث الثالث عشر

تآمر على الثقافات الأهلية

يعتبر الاستعمار سلاحاً خطيراً يفتك بالإنسانية لأنه يعوق تطور ثقافة المستعمرين، بل يعمل جاهداً ليحملهم على نسيان تراثهم القومى ومشاركتهم فى الحضارة. «إننا، فى بعض الحالات، نقدم للدول التى نسميها متخلفة الآلات والتقنيين، ولكننا لم نقترح قط منهاجاً كاملا واقعياً يساعد، فعلياً، هذه الشعوب على مواجهة مشاكلها أو على تحقيق مطامحها المشروعة»[1].

لنضرب مثلا بحالة هنود أمريكا: إنها عملية اجتثاث لأصول الثقافة. فلا يكاد يعرف شىء عن ثقافتهم، وكل ما تبقى هى كمية ضئيلة من الشعر الهندى يرجع إلى ماقبل الاستعمار، ولا يتوفر الباحث إلا على ترجمة رديئة باللغة الإنجليزية للملحمة الهندية (Wallam Olun)، وقد عثر على نقوش تعرض بعض فصولها[2]. إن الاستعمار يقوم، قبل كل شىء، بتفكيك شخصية السكان الأصليين. فأفظع جرح تعانيه الإنسانية هو اقتلاع جذور كثير من الشعوب المغلوبة الملقاة فى أحضان الضياع مهملة مشردة فوق تراب وطنها، مفصولة عن تراثها القومى وقد أصبح غريباً بالنسبة لـ «الأهالى» («وأهالى» هنا تتخذ معناها القدحى، طبقاً لما اصطلحته لغة الاستعمار).

* * *

لقد أمست الثقافة، اليوم، بالنسبة للأفراد والشعوب، ضرورة حياتية،

---

(1) انظر: Tibor Men l, in Journal le Monde 17-7-1956

(2) انظر: Alain Bosquet, Antholagie de la poesie americaine, Paris, Stock, 1956.

بالمعنى العميق لهـــذا اللفظ . ذلك أن الثقافة ، كما أوضحناه فى حديث سابق ، تستمد مصدرها من العمل ، بصفته ملتحمــاً بالطبيعة الإنسانية . ان الثقافة فعالية صادرة عن الوعى — بالذات ، الوعى الذى يشمل التـكوين التقنى ، والاقتصادى والمجتمعى ، والسياسى والفـكرى . ومن هذا المستوى الثقافى الطبيعى ، يستطيع الفـرد ، أو الشعب ، أن يتخطى المرحلة التى يرتفع منها إلى ما هو شامل ، أى التى تجعل منه متحضراً . لقـد كان (إمانويل مونيي) محقاً عندما أبرز قيمـة الرابطة الأصلية التى تجمع بين الطبيعة والوجود والعمل ، فى الشخص . ذلك أن الشخص لا يستمر ويتقوى ويتفتح ويعـبر عن ذاته إلا بفضـل جهود متجددة يواجه بهـا ذاته وعالم الأشياء[3] . ولـكى نحقق الشموليـة ونرتفع إلى مستوى الجـوهر ، يجب أن نتخلى ، كما قال (هيجل) عن الـكائن — لذاته ، أى عن قيمته المباشرة ، « لـكن من هنا يـكتسب الجوهر فعاليته »[4] . وهـــذا هو المستوى السوى للتفتح الواقعى التام للشخص : فبقـــدر ما يتسع مدى الشخص بقدر ما تتقوى فعاليته وقدراته « إن الشخص يستمر فى تثقيف ذاته إلى أن يدرك ما هى الثقافة فى ذاتها ، وحينئذ فحسب تصبح فى — الذات وتـكتسب بذلك كينونة فعالة »[5] .

* * *

بغية إبادة ثقافات الشعوب المستضعفة وفق منهج منظم ، يمضى المستعمرون ومؤرخو الاستعمار يعللون ما قامت به ، وما زالت تفعله الأمم « النـاشرة

---

(3) انظر . J. - M. Domenach, in Esprit, No. 2, 195? P. 170

(4) انظر : La phenomenologie de l'Esprit. I, II, Paris : Pubier, p 55 ,

(5) نفس المصدر ص 56

للحضارة » ، فيعطون تفسيرات أصبحت كلاسيكية ، مثل قولهم :

« الآن وقد حمل الغرب لـ « الأهالى » فضائل الحضارة ، فما عليهم إلا أن ينتفعوا بها . فإن هم لم يستفيدوا ، فذلك راجع إلى طبيعتهم المتوانية المتراخية . أليسوا أحراراً فى أن يعملوا لبعث ثقافتهم ، إن كانت لديهم ثقافات ؟ لقد منحوا المساواة المدنية والسياسية بالبيض ، ولكنهم لا يعرفون كيف يستغلونها. إنهم مفطورون على ذلك ولا أحد يستطيع أن يغير من طبيعتهم » .

يالها من سفسطة ! . .

جميع ذوى النوايا الحسنة يدركون لامعقولية النظرية القائلة بوجود طبيعتين متباينتين ، طبيعة « البيض » المتحضرين والمسؤولين عن الرسالة الحضارية ، وطبيعة بقية أجزاء البشرية التى لا تنتمى إلى الغرب ، ولذلك فهي ليست «متحضرة»[6]. ولم تؤد قط رسالة حضارية ، وليست لها قابلية للتحضر. كل هذا مجرد مغالطات وسفسطة يدحضها التاريخ ويكافحها الواقع : لا وجود لاختلاف نوعى بين شعوب لها جوهر بدائى، وأخرى لها جوهر قابل للتطور.

لقد برهن (رومانيس) على بهتان تلك الادعاءات ، بصفة غير مباشرة، فى نهاية القرن الماضى عند ما نشر كتابه : « التطور الذهنى عند الإنسان »[7]. يأتى المؤلف بمثال على التواصل المتبادل ، مستنداً إلى التجربة التى أجراها (ماليرى) فى الولايات المتحدة . وقوام هذه التجربة أن متابلة نظمت ، فى 6

---

(6) انظر : John Dewey, Freedom and Culture, (New York : Putman's sons).

(7) Romanes, L'evolution mentale chez l'homme tra, fr. H de Varigny, Paris Alcan, 1891.

مارس 1880 ، بين أناس هم بكم من الجنس الأبيض غير متعلمين وبين فئة من الهنود الحمر ، فاستطاع الصنفان من الأشخاص أن يتفاهموا عن طريق لغة الإشارة ، لأن الأساس البشرى الخام متشابه [8] . فمثلا « عندما لامست اليد اليمنى اليد اليسرى ، كان معنى ذلك «لاشيء» ، وعندما عانقت اليد اليمنى اليد اليسرى ، واستقرت الأصابع فوق ظهر اليدين ، كانت دلالة هذه الإشارة « الصداقة » . وقد استطاع الصم البكم أن يفهموا ذلك ، وأن يفهموا أيضاً الإشارة التى ترمز إلى حاب البقرة ، وشرب اللبن (ص 113 من نفس الكتاب) .

إذن ، ليست هناك سوى طبيعة إنسانية واحدة ، أما الاختلافات فمنشؤها أوضاع الحياة التى تتغير من مجتمع لآخر .

* * *

إن « المساواة » التى يدعى البعض أنها منحت لـ « الأهالى » فى الأقطار المحتلة (سياسياً أو إقتصادياً ...) لا تعدو أن تكون بنداً شكلياً محضاً ، مسطراً فى القانون العام . ذلك أنه لا تعطى للمستعمرين سوى حريات ثانوية باستثناء أفراد قليلين يحصلون على هذه الإمتيازات ، لكن فى شكل مساومة : يمنحون بعض «الحريات» أو الامتيازات ، على حساب مواطنيهم «الأهليين» ، وعلى شرط أن يصيروا « متعاونين » أى سدنة لهيكل الاستعمار .

---

8) garrick Mallery, Seng, Language amer the North American Indians, Firt Anual Report of the Bureau of Ethnology, washington 1881.

* * *

يضاف إلى هذا القيد فى الكم ، قيد آخر يفرض على نوع الحريات الممنوحة ، فغالباً ما تكون هذه الحريات مرتبطة بفكر لوجيا مركزة على نظام « الاقتصاد الحر » الذى لا يكفل للمستعمرين حق الثقافة ، وإنما يضمن لهم فحسب حرية نسبية تخولهم أن يصبحوا عمالا متخصصين .

صحيح أن نوعية الاقتصاد ، فى النظام الإستعمارى ، تسمح ، أحياناً للسكان الأصليين أن يتعاقدوا مع من يشاؤون ، وأن يتمتعوا بحقهم فى المساواة مع الجميع ، إلا أن هذا النظام يغفل دراسة ما إذا كانت الأوضاع الحقيقية تفسح المجال للجميع ، أم أن القوانين هى مجرد ضمانات وضعت لكى يظل الأقوياء أقوياء يمتلكون الموارد المادية الأولى والثقافية التى تتأسس عليها قواهم ، ويبقى المستضعفون « أحراراً » أمام جهلهم وضعفهم ...

إنه نظام تسابق بين أناس قواتهم غير متساوية على الإطلاق ، نظام مباراة بين خرفان حرة ، وذئاب حرة ، فى نفس الحلبة ! وهى نتيجة مرة لنظام الإقتصاد الحر ، تتمسك بها حتى الدول المترفهة . فأولئك المنسيون فى الولايات المتحدة ، سواء منهم البيض أو السود ، وسواء الصفر أو الحمر (والذين لا يقل عددهم عن ثلث مجموع السكان !) يمثلون المهجورين المنفيين فى أرض النعم ، وكأنهم بمثابة نفايات لفظها المجتمع [9] إلا أنه ، كلما أتيحت الفرص للبعض من المستعمرين ، المتخلفين ، البدائيين ، حصلوا على نفس النتائج التى يحصل عليها الآخرون ، وأحيانا يتفوقون على المتمدنين ، المستعمرين ، المرنين . فكما يلاحظ (ألبير ميمى) فى كتابه « الصورة الذاتية للمستعمر » .[10] ان :

---

(9) انظر كتابنا « أحرية أم تحرر ؟ » الفصل المتعلق بالعندية والملكية .

10) A. Memmi, Portrait du Colonise.

المستعمرين الذين ينجحون يكونون « عادة متفوقين على الأوربيين من نفس الدرجة ، ويستحقون مانالوه عن جدارة »[11] .

* * *

تلك بعض مغامرات « التآمر » على الثقافات « الأهلية » . فإذا تجاوز الباحث المنمهر إلى المكنون ، ماذا يجد ؟

ذلك ماسيحاول الجواب عليه الحديث الذى يلى .

---

(11) يمكن الرجوع أيضاً إلى قصة لنفس الكاتب بعنوان La statue de sel

الحديث الرابع عشر

تآمر على الثقافات الأهلية

الاستعمار مدفوع إلى تآمر بشع بطبيعة تكوينه : يتآمر ضد خيرات الأرض وما تحت الأرض ، وضد كرامة « الأهليين » . تتجلى فعاليات القضاء على تلك الكرامة ، مباشرة وبكامل الوضوح ، فى إقبار الثقافات الوطنية بالبلدان المستعمرة . فأينما مر أشبال وعشاق (أتيلا) المعاصرون، تقلص الفكر وذبلت الثقافة القومية . من أولئك الهدامين من يعمل عن جهل ، ومنهم من يخرب ليستقيم الأمر لأرباحه واستغلاله . نعم ، « ما ضاع حق وراءه طالبه » ، ولكن ، إذا قضى على شخصية هذا « الطالب » سهلت السيطرة على « المطلوب » : بلدوا ووحشوا « الأهاليين » ، باسم الحضارة والتمدين ، يستقر لكم الأمر ! تلك هى « الفلسفة » السياسية للاستعمار .

قد يكون ، أحيانا ، من بين أنصار الاستعمار ، « مثاليون » ينخدعون بنظريات مغرية وبأساطير غذتهم ، منذ الصبا ، فترعرعت فى مخيلتهم ، إذ « صادفت قالبا خاليا ، فتمكنت » . فهؤلاء ، عن حسن نية ، يندفعون والتيار ، مع شيء من العطف على « الأهاليين » . قد تنطبق عليهم قولة سقراط : « لا أحد يفعل المنكر عمدا » .

لهذه الطائفة نخصص هذا الحديث .

* * *

إن الميثولوجيا ، اليوم ، ليست فقط تاريخا خرافيا عن القدماء ، بل أيضا انعكاسا نرجيسيا لـ « المدنين » (بكسر النون) المعاصرين . فنحن ، وإن

كنا لا نعثر ، فى أساطيرنا ، على حروب بين الآلهة والأبطال ، نشاهد صراعا : حاميا ، من نوع جديد ينبعث عن ذهنية خرافية : الصراع من أجل سيطرة بعض الشعوب وبعض الأجناس على أخرى ، فى كل حلبات الحياة ، باسم أفضلية « الدم » ، أو باسم الرقى . . .

طبقا لتلك النظرية العنصرية ، تأخذ نشوة القوة ، بالشعوب المتقدمة تقنيا واقتصاديا ، وتلعب برأسها ، مما يجعلها تعتقد أن القوة تكسب الفضائل ، وتفرض واجبات لها على الضعفاء . وأول مهام « العظماء » « التبشير » ، ولو عن طريق القوة ، بأن الاشتراكية ، أو الاقتصاد الحر ، . . . هو النظام الصالح لكل العالم ، و « كل ما ليس عليه أمرنا فهو رد » . . . فالقيم والمقاييس للتفكير والسلوك والحكم ، يجب أن تقتبس كلها من النظام الذى ارتضاه الشعب القوى لنفسه ولمجموع الشعوب . فمن اختار غير ذلك نظاما فى الحياة ، تعرض للمضايقات الاقتصادية والمؤامرات السياسية . « فإما أن تتعشقنى ، بالرغم عنك ، وإلا أعلنتها حربا شعواء عليك وعلى من يناصرك ! » لو كان التاريخ يعيد نفسه لصرحنا بأننا دخلنا مرحلة جديدة من الحروب الصليبية ، حرب الفكر ولوجيات ، وأن العاقبة لمن هو أكثر قوة سلاحية تدميرية ! . . إذ لا مكان للضعيف . . .

* * *

من هنا كان انتشار الثقافة والمبادىء العليا لا يتجاوب سويا مع المثل وحاجيات الشعوب ، بل مع الإمكانيات الحربية : الدبابات أولا ، والمفاهيم الحضارية ، ثانياً ، وبتعبير أصح : فى البداية ، توجد القوة النارية الصماء ، ثم عنها تتولد أسس الباقى .

أليس تقدم الحضارة هو الذى مكن الإنسان من الاختراعات والاكتشافات الهائلة ، ومن بينها الأسلحة للدفاع عن تلك المكاسب وتوسيع نطاقها ؟

لكن جدلا دياليكتيكيا غربيا وغريبا قلب الوضع رأساً على عقب : قد أمست الاكتشافات والاختراعات موجهة لصالح الأسلحة والتسليح ! فالحضارة والتقدم جميلان وجيدان ، ولكن القوة غدت أجمل وأنبل : فلنركع ، ولنسجد للقوة ! (قوة النار والحديد والتفجير النووى . . .) . فما دامت الثقافات تعمل لصالح تلك القوة ، ولم تبق للقيم الأخلاقية والفنية والفكرية والروحية إلا القدر النزر من الجاه والقداسة ، سهل طمس كثير من معالم الثقافات « الأهلية ».

* * *

هناك ماهو أنكى وأفظع .

عندما تتقدم الثقافات « الأهلية » مزيفة ، محنطة ، مشوهة إلى أبنائها ، يستبشعها بعضهم ، ويتنكر لها ويهاجمها ، مفضلا عليها ثقافة الغالب ، ولغة الغالب ، وتاريخ الغالب ، لأن النتيجة الحتمية لفعل القوة فى الضعفاء ، هى انحلال الشخصية الفردية والتنكر لشخصية الشعب ومقوماتها . وهنا الخطر الأكبر على مصير الإنسان بوصفه إنسانا .

يحاول « الأهليون » المتنكرون لشخصيتهم القومية أن يكونوا لأنفسهم كيانا جديدا ، مقتبسين ، من ثقافات الأقوياء ، بعض العناصر . لكنهم سرعان ماينطحون جباههم على الحصون المنيعة ويكسرون أرنبتهم . بنى المستعمرون المتطرفون ، بآسيا وبأفريقيا ، السدود كى لاتتسرب ثقافتهم إلا بالقطرات ، ولقلة من المحظوظين . ويقيم العنصريون ، أمثال (فوبوص Faubus)

و (والاص Wallaec) بالولايات المتحدة نفس السدود : المدرسة لأبناء البيض ، والجامعة لأبناء البيض ، لأن الأسود لايستحق أن ينال حظه من الثقافة ، ولأن الأبيض لايختلط بالأسود ، ولأن الثقافة ميزة للأبيض . . . وقد استعملت القوة ، ضد شبان وشابات سود يريدون متعداً فى المدرسة والجامعة ، وما توا ، ومعهم ظمأهم وتعشقهم للثقافة ، فانتصرت القوة على الثقافة وعلى مبادىء الحضارة[1] . القوة فوقك يا إنسانية ! . . .

القوة « قضت » ، بمنطق البندقية والمدفع والرشاشة ، أن « الأهليين » « والسود » ، و «الحمر» و «الصفر» ليسوا كالآخرين ، بل ليسوا «آخرين»: إنهم شيء ، أو أشياء ، إنهم شيء من الأشياء ، ولكنهم ليسوا شيئاً فى حد ذاته ! . .

* * *

فمن سوء الحظ أن النمو العلمي لم يقض على الميثولوجيا التى تعشش فى كثير من الأدمغة ، بل على العكس ، قد زكى خميرتها عند بعض الناس إلى حد أنهم آمنوا بمعادلات عابثة : بقدر ماتتقوى اقتصاديات وأسلحة أمة ، بقدر ما تزداد يقينا أن الحتمية إلى جانبها ، وأن التاريخ «يفرض» قيادتها على الأمم الأخرى . هكذا ، تتحالف النرجيسية مع نشوة القوة ، فيتمخض عن اتصالهما طقس ذهنى جديد تخنق فيه أنفاس العدل والمساواة والحق ، وتنتصر فيه العنصرية . إذ

---

(1) تشير إلى الحوادث المفجعة التى وقعت . بمناسبة افتتاح العام الدراسى لسنة 1958 ، فى جنوب الولايات المتحدة ، حيث رجمت جماهير البيض بعض الأولاد السود إلى أن لفظوا النفس الأخير ، وداست بأرجلها جثث الطلبة الذين ضحوا بأنفسهم دفاعاً عن القيم الثقافية وعن المساواة التى منحهم إياها الدستور الأمريكى .

ذاك يضفي الأقوياء صبغة الحضارة على قوتهم ويغلفونها بطابع إنساني ليخدروا الضمير ويهبوه طمأنينة زائفة .

النرجيسيون لايعون وضعهم كما هو ، لأنهم تمالي يجترون . . . مستواهم الثقافي قد يعلوعندهذا وينخفض عند ذاك ، إذ الثقافة وحدها لاتكفي لاستئصال النرجيسية والعنصرية . فلا عجب أن نرى من بين السلاليين المتطرفين مفكرين كبارا وأبطالا عظاما ، مثل (ايرنيست رينان) و (روزاميرغ) ، كما رأينا ذلك في الحديث التاسع ، من هذا الكتاب ، « لكل مجتمع بدائيون » .

فهل سبب ذلك أن العنصرية تشكل انحرافا عرضياً للعقلية المعاصرة . ولاتقوم على أي أساس فلسفي أو ديني أو فكرولوجي ؟

يمكننا تفسير هذا الوضع الغريب ولو جزئياً .

* * *

تقدم البيئة المعاصرة لبعض العنصريين صوراً ودلالات عنها وعنهم لاتمت إلى الواقع بصلة ، بل تستقي من الخرافات ، فيغترون ظنا منهم أنهم حاملو رسالة التمدين وأنهم الأنبياء المنقذون . فبطريقة عفوية يضفون ، على ذواتهم ، معاني مصطنعة تلائم ميولهم وسلوكهم في الحياة كما يتصورونها ، وكما يفهمون دورهم فيها ، إنهم كالعنكبوت تفتل خيوطها بيدها لتفسج منها الغلاف الذى يعزلها عن الخارج ، أو مثلهم كمن ينظر في المرآة لايجد إلا شخصه كما صبغه وزينه . فالمجاملة مع الذات ترمي في أحضان النرجيسية . إن العنصريين نرجيسيون ينغلقون على نظرتهم الخاصة عن العالم ويتنكرون لنظرة الآخرين لهم والواقعية ، ولعالم الآخرين . تعكس سلوكهم منظومة ضيقة ومنحرفة من المفاهيم والدلالات

عن الدم والعرق ، وعن الأخلاق ، والذهنيات ، والعلم ، والتاريخ . وكل ذلك يتناغم فى عمايتهم ويسير على إيقاع منسجم داخل نظرية عامة .

إنه خطر على تلك النظرية ، من الداخل ، وكل ما يمكن أن يهددها هو احتكاكها بما هو أجنبى خارجي . تقبل البعض ذلك الاحتكار إلى أن كشف له الغطاء، فتراجع عن خيوط عنكبوته الفكرية ، أما البعض الآخر فامتنع ، فى كبرياء ، من الاحتكاك حتى لا يواجه الحقيقة ، فساهم فى القضاء على الثقافات « الأهلية » . لأن وجودها يرغم على الاحتكاك ، ثم على اتخاذ موقف من النظرة إلى الحياة والسلوك مما يقلق ويحدث مشاقات نفسانية ، النرجيسيون فى غنى عنها .

* * *

القضية ، إذن أعمق مما يظهر لأول وهلة . فالعنصرية ليست خلقا منطقيا أو تحدياً للأخلاق : إن لها جذوراً ميتافيزيقية (لأنها تتولد عن نظرة إلى الكون والحياة) ، وسيكولوجية (الميتافيزيقا توجه السلوك) . أما الميتافيزيقا ، بدورها، فليست بالشيء البسيط ما دامت تتغذى من ميثولوجيا غامضة تهيمن على إرادتنا وشعورنا وتفكيرنا ، إنها تقوم بفعالية كبيرة فى حياتنا الفكرية والسيكولوجية ، عن غيروعي منا ، كالغدد التي تسير، فى عمق وبتستر ،حياتنا الفيزلوجية ونحن غافلون ، تمام الغفلة ، عن نشاطها الهائل .

ليس من خاصيات عصرنا أن نرى الأساطير تسير تفكيرنا ، فالعقل كان دائما يرضع من ثديى الميثولوجيا ، فمن العبث أن نحاول فصل هذين الأخوين من الرضاع . فالمجتمع العصرى المتطور الذى يحتكم بأحكام العقل،لا يزال ، فى

الواقع ، خاضعا لـكثير من الخرافات والترهات . فتغلب المنطق على الخرافـة هو أكثر صعوبة ممـا يظن للوهلة الأولى . وقد ذهب (روبير) ، فى بحث عن « فلسفة طبيعة الأسطورة » ، إلى التأكيد بأن هـذا التغلب ليس عملا عسيراً فحسب ، بل عملا مستحيلا :

« إذ استقلال الفـكر عن الأسطورة لا يمكن أن يكون استقلالا مطلقا كاملا دون تناقض . من الممـكن أن نفـكر بكيفية عقلية وعلمية فى مسألة خاصة لا فى الطبيعة أو فى الإنسان داخل الطبيعة . الإنسان عند ما يقوم بالنظر الخالص يمـكنه أن يدرس الطبيعة ، بمجموعها . لـكن ، عند مايشعر أن تلك الطبيعة تتضمنه ، وأنه جزء منها ، لا يستطيع أن يبقى صاحب نظر مجرد »[2] .

كيف العمل على زحزحة الميثولوجيا ، ولو إلى حد ما ، من فوق عرشها العتيد ، عسى أن يتحرر العقل البشرى ، ولو قليلا ، من سيطرتها ؟

ذاك ما حاولته بعض الديانات .

☆ ☆ ☆

أول من قام بمحاولة من هذا القبيل هى الديانات الإبراهيمية . فعوضا من معرفة الـكون والمجهول عن طريق الأسطورة (نتاج التخيل) ، نجد أن الميطافيزيقا الإسرائيلية (العهد القديم) اللاهوت المسيحى وعلم الكلام الإسلامى توجه كامل عنايتها لنبذ الخوف الناجم عن المجهول الـكامن وراء الأساطير لفهمه وإفهامه . فالله هو السبب الأول، الخير الأسمى وينبوع كل خير، وأنه إله كل الأجناس والأكوان ، وهو عشق وعاشق معشوق لذاتـه . وتزيد الديانتان

---

(2) R Ruyer, La philosophie de la nature du mythe, in R. Intern. de philosophie, no 36 1656 p. 167.

الإسرائيلية والإسلامية : بأنه إله متعال ، تعاليا مطلقا،منزه عن كل تشبيه، مريد بإرادة أزلية ، أحكامه غير عرضية ، وهو عقل عاقل ومعقول وينبوع الحياة والعقل . إنه علة العلل المتجلية أبدا :

« وفى كل شيء له آية ☆ تدل على أنه الخالق »

أحد ، أحد ، فلا معارك بين الآلهة ، أو تدخلات حزبية لرب من الأرباب فى الحروب الإنسانية ، كما هو الشأن عند يونان القديمة . اعتقد القدماء أن للنواميس الطبيعية أرواحاً ، فتمثلوا كل واحد منها فى صورة مجسمة ، ثم ألهوا أهمها وأقواها ، مما جعل ذهنية القدماء ، بالشرق وبالغرب، تسبح فى بيآت تلعب فيها الآلهة وأرواح الطبيعة دوراً أعظم من دور الكائنات البشرية .

فدعوة الديانات الإبراهيمية لم تكن دعوة إصلاح فقط ، بل ثورة جارفة زعزعت مقومات التفكير والسلوك ، أخلاقياً ومجتمعياً ونفسانياً . فوحدانية الله وتعاليه المطلق سفهتا خرافة الصراع بين الآلهة ومشاركتهم فى الحروب الإنسانية ، وقضت على الاعتقاد بأن لظاهرات الطبيعة أرواحاً تتأله ، كما قضت على الإيمان بتعدد الآلهة . فلا آلهة ، إلا « إلوهيم » ، الأحد :

« إن الرب هو الإله ، وليس إله سواه»[3] .

إنه أحد ، عالم ، عنه تفيض المعرفة .

« وفوق كل ذى علم عليم » (قرآن12 ، 16).

وقادر « فعال لما يريد » (II : 107)

(3) سفر تثنية الاشتراع ، 4 : 35 . راجع كذلك القرءان ، 112 : 5

فليست ثمة أية مقارنة بين هذا الاله الذى (لايسأل عما يفعل) (21 ، 23) وبين (مردوخ) الإله الميزو بطامى الذى قتل (تيامات) ولطخ يديه بالدماء . إن الله لا « يقطن » فوق جبال (الأولامب) حيث الآلهة (ذكورا وأناثا ، على اختلاف أبعادهم ومر تباتهم) يقضون حياتهم فى المشاجرات والتناطح ؛ بل الله « معكم أينما كنتم » (قرءان ، 57 : 4) وأقرب إلى الإنسان من « حبل الوريد » (قرءان ، 50 : 12) .

* * *

جرت العادة ، فى أكثر الديانات القديمة ، أن يضحى بشابات وشبان ، قربانا للآلهة ، لأن دم الشباب يهدىء غضب الآلهة ويحد من بطشها . فجاءت الإبراهيمية ،وقضت على « التعبد » بسفك الدماء ، وأعادت للإنسان كرامته . لأن الإيمان بـ « التوحيد » يفرض الإيمان بنبل الإنسان وقداسته وكرامته . إن (إلوهيم) يصرح فى العهد القديم (سفر التكوين ، 1 : 36) :

« فلنجعل الإنسان على صورتنا ، مشابها لنا ! »

ويؤكد نبى الإسلام ، فى حديث رواه البخارى :

« خلق الله آدم على صورته » .

هذا جانب من جوانب المعركة التى شنتها الديانات الإبراهيمية ضد الميثولوجيا الدينية .

أما الجانب الثانى (وهو كذلك نتيجة حتمية لـ « التوحيد») فيظهر جليا فى التمييز القاطع بين « الطبيعة » (فى معنى « الفيزيس Physis » الإغريقية) وبين فكرة « الله » . إن الله هو خالق الطبيعة ، فهى مخالفة لماهيته ، ولذاته المتعالية :

« ليس كمثله شيء » (قرءان ، 42 : 11) .

فلا يمكن أبدا تشبيهه بـ (ألفا طوم Fatum الرومانى)، أو بالإله المزوبو طامى (شماش) الذى يشرق ثم يغيب ويعتريه الكسوف .

ولقد وصف القرءان بدقة كيف ارتفع ابراهيم من الإدراك الحسى إلى الشعور القلق، ثم إلى الوعى، وعى عالم يتجاوز الميثولوجيا والأوثان والطوطيات. إذ ذاك علم ابراهيم أن الشمس والنجوم والقمر، والسماوات والأرض ، والنهار والليل ، ليست أرواحا طبيعية ولا آلهة ، وإنما هى مخلوقات الله الأحد .

وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر (قرءان : السورة 6) :

— أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .

وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين .

فلما جن عليه الليل ، رآى كوكبا ، قال :

— هذا ربى .

فلما أفل ، قال :

— لا أحب الآفلين .

فلما رآى القمر بازغا قال :

— هذا ربى !

فلما أفل ، قال :

— لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة ، قال :

— هذا ربى ، هذا أكبر!

فلما أفلت قال :

— يا قوم ! انى برىء مما تشركون .

انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً.

وما أنا من المشركين .

وحاجه قومه .

قال :

— أتحاجونى فى الله ، وقد هدان ؟

ولا أخاف مما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئا .

وسع ربى كل شىء علما .

أفلا تتذكرون ؟ » (6 : من 73 إلى 80).

✲ ✲ ✲

يصل بنا العرض السابق إلى نتيجتين :

أولا ، أن العنصرية ترتكز على ميثولوجيا غامضة مضطربة تهيمن على مقدرتنا العقلية وتلونها ، فى كل عصر ، بلون ملائم ؛

ثانيا ، أن « التوحيد » الإبراهيمى ، عندما قام بتحرير الذهنية الإنسانية من تأثير الميثولوجيات ، زرع بذور شخصانية مليئة بالآمال ، آمال فى أنسنة الطبيعة والحياة البشرية[4].

---

(4) هذا سر الرسالة الإبراهيمية واتجاهها مع موسى وعيسى ومحمد ، عند الدفعة الأولى ، دفعة التيار الحيوى . لكن ، بعد ذلك تسربت إلى الأديان الثلاثة

بفضل فكرة الأنسنة هذه ، بدأ الكائن البشرى يؤمن بأنه يسهم في تطوير الطبيعة ، وأن بإمكانه أن يعمل ليصبح سيد الطبيعة والمتصرف الحر فيها ، وأنه ملزم بأعباء تاريخية تهم كل إنسان . وهذا هو معنى استخلاف الله الإنسان في الأرض : « وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » (في سورة النور ، 42 : 55)[5] .

تحصل الأنسنة عن طريق الثقافات أي عن طريق احتكاك و« اتصال العقول الإنسانية ، لا عن اتصال الإنسان والبيئة فحسب ، كما يقول (جبرائيل رى) ، فالإنسان المتمدن، هو من يسيطر وعيه على طبيعته ، وعلى عقله وعلى أهوائه (نفس المصدر ، نفس الصفحة) .

الإنسان المتمدن هو الكائن الذى يجعل من الكرامة الإنسانية ، في كل امتداداتها ، قيمة عليا لا تستلب مطلقا .

ميثولوجيات جديدة ، وأخرى مقتبسة من القديمة ، وذلك عن سوء فهم للروح التورية الإبراهيمية أحياناً ، ولسوء نية بعض « رجال الدين » أحياناً .

(5) انظر كذلك 6 : 30

6 G. Rey, Humanisme et sushumanisme, Paris, Hachette, 1951, p. 93.

الحديث الخامس عشر

لاتوجد عقلانية خالصة

كثيرا ما يقال بأن المسلم ، أو العربى ، لا يستطيع أبدا أن يكون ديكارتيا ، بسبب ميله الشديد إلى كل ما هو غامض ، وخرافى ، ومعاد للمنطق السليم . . . غير أنه يمكن للمسلم أن يشك فى ديكارتية الفكر الفرنسى ، والعقلانية الغربية عامة ! . . . نعرف ملحدين وماديين متطرفين لايجرؤون على أكل اللحم يوم الجمعة المقدس وعندما اعترضنا مرة على أحدهم أجاب :

« نعم إننى ، رغم إلحادى ، لم أتغلب على الجانب الأسطورى من تفكيرى . إن ذهنيتى مغلوبة على أمرها ! . . » .

لقد قطع راجلا (شارل بيغى) الشاعر والمفكر الفرنسى سنة 1912 ، ثمانين (كيلومترا) ما بين (باريس) و (شارطر) ليطلب من مريم العذراء شفاء ابنه المهدد بالموت . ومنذ تلك السنة ، تعود الطلبة الكاثوليكيون من مختلف الجامعات الفرنسية ، أن يحجوا إلى شارطر !

وهل توجد كنيسة فى أوربا لا تحرق فيها الشموع أملا فى عودة جندى ، أو شفاء مريض ؟ والتماثيل المقامة للعذراء فى الساحات العمومية لحماية القرية ؟ ومواسم الحج ، وتقديس البحر والصيد[1] ؟ . .

إن هذه اللاعقلانية تسم سلوك مواطنى (ديكارت) ، والأمريكيين ، والسوفياتيين على السواء . فقد أخبرت وكالة (فرانس بريس) فى منتصف يونيو 1656 ، حسب مصادر روسية شبه رسمية ، أن طائفة مسيحية ، تعيش بناحية موسكو ، ما تزال تمارس تقديم القرابين البشرية ، وأن

---

(1) انظر ، فى هذا الكتاب ، الحديث العاشر (لكل مجتمع بدائيون)

سيدة أقدمت على التضحية بأحفادها الصغار رغبة فى إنقاذ روح ابنها الملحد ! . . . .

هذه الأمثلة ، التى هى قطرة من فيض ، تبين لنا قيمة مزاعم الغربيين الذين ينسبون لأنفسهم عقلانية متكاملة ، وديكارتية خالصة . إن لكل مجتمع بدائييه ، كما أن لكل طبقة ، بما فيها طبقة المثقفين ، لا — عقلانييها المتشبثين بالخرافات . لحفاظا على النفوذ يرفض ، مثلا ، ابريطانيون مثقفون استعمال القياس المترى ، رغم مزاياه العلمية . . . واحتراما للتقاليد ، لن يتم إصلاح رسم الكتابة الفرنسية . كل هذا يتعارض مع « الوضوح » « والتميز » اللذين يدعو إليها ديكارت ، فى « حديث المنهج » !

✲ ✲ ✲

أى شيء نريد البرهنة عليه ، من خلال هذه الأمثلة ؟

نريد أن نثبت ، بكل بساطة ، أنه لا وجود لعقلية ممتازة وأخرى منحطة . بل هناك فكر إنسانى واحد له ردود — فعل واحدة أمام ظواهر الطبيعة: إنه يكافح ، فى كل المجالات ، (منذ أن وجد الإنسان) ، بغية التسلح بمعارف ومهارات تتيح له أن يتغلب على مختلف العقبات التى يصادفها فى الحياة . وإن تجربة هذا الكفاح قابلة للتنقل ، إنها تزداد غنى من جيل لآخر ، على مر العصور ، ومنذ عهد موغل فى القدم .

✲ ✲ ✲

بما ان التاريخ ينطوى على أحداث عرضية ، وعناصر مجهولة ، وظروف معقدة تساعد أو تعارض بعض النشاطات الثقافية ، نلاحظ حدوث اختلاف

بين مستويات البيآت : هنـا مستوى مرتفع ، وهناك مستوى أكثر أو أقل ارتفاعا . كما نلاحظ أن تاريخ مجتمع ما يتزحزح من مستوى لآخر.

التقدم والحضارة نتيجتان لجهود بذلتها الإنسانية جمعاء . لذلك يتحتم علينا أن نفخر بنوعنا البشرى لا بأجناسنا . فكم شاهدنا أن محققى الاختراعات والاكتشافات لا يستفيدون منها ، يشهد على ذلك مثال الطاقة الذرية : فالماء الثقيل أتى من (النرويج) ومر عبر (باريس) حيث وقعت الاختبارات الأولى ثم انتهى تحقيق التجربة فى الولايات المتحدة ، بفضل معادلات وتصميمات فرنسية وألمـانية ...

* * *

لم تعد هناك عقليـة ممتازة وأخرى بدائية أو غير منطقيـة . فلقد اضطـر (لوسيان ليفى برول Levy Bruhl) ، قبل وفاته ببضع سنوات إلى تغيير المفهوم الذى عارض به ما بين التفـكير العقلانى والعقلية البدائية . وقـد كان يعـرف العقلية البدائية بخاصيتين :

١ - قانون المشاركة أى اللامبالاة والتناقض.

٢ ــ عدم الاهتمام بالعلل الثانوية ، وانعدام أية علية علميـة ، (الإيمـان بالسحر)[2] ...

---

(٢) يغلب على الظن أن أحكام الأستاذ (جيب) على الفـكر الإسلامى من أنه (يفتقر إلى الحتمية العلمية) مقتبسة من نظرية (ليفى برول) عن تركيب العقليـــة البدائية (انظر تحليل آراء الأستاذ جيب ، فى الحديثين ١٧ و ١٨ من هذا الكتاب).

إن الخاصيتين اللتين وضعهما (ليفي برول) لاتقتصران على ما سماه بالعقلية البدائية، إنهما توجدان، واقعيا ، في جميع المجتمعات. لقد استنتج الأستاذ (بياجي Piaget وجودهما في الحياة النفسانية للأطفال، كما اعتمد عليهما الأستاذ (بلونديل) في التطبيقات التي أجراها بمستوصفات السيكوجيا[3] . وأخيرا ، توفق الأستاذ (شول) إلى فهم وشرح الشعور بالروعة العاطفية «والصور» ، في إطار الفكر الذي سمي ، عن جهل ، بالفكر « البدائي » . .

☆ ☆ ☆

لاجدال أن جميع الثقافات القديمة (مصر واليونان وبابل والهند . . . .) قد أسهمت بجهود كبيرة في إعطاء التفكير الإنساني طابع العقلانية ، إلا أن هذه العقلانية اختلطت ، دائما بالسحر ولم تصبح قط خالصة إذ كانت تشتمل على قانون المشاركة الذي اكتشفه (ليفي برول) في القرن العشرين عند « البدائيين». فالطب القديم ، مثلا ، كان يحتوى في أساسه ،على فرعين : الجراحة ، وعمليات العلاج بواسطة صيغ سحرية . فكان لزاما بذل مجهودات جبارة ، عبر العصور المختلفة ، قبل التوصل إلى مبادىء الموضوعية واستخلاص القوانين . وعند اليونان، كان الطب أول الأمر إما مرادفا للسحر وإما مرادفا للتأمل : فالأطباء ، باستثناء أتباع (هيبوقراط) ، عندما لا يستعملون أساليب الغيبيات ينقلبون إلى وعاظ ودعاة للأخلاق ، يقول (أفلاطون) : « الحديث للأرواح مثل الأدوية للجسد »[4]. إن الشعور بالروعة يغمر بالفعالية كل الاهتمامات ...

☆ ☆ ☆

3) Ch. Blondel La conscience morbide, Paris, Alcan, 1954.

4) P.-M. Schuhl, Le merveilleux, Paris, Flammarion, 1953.

هذه الاستشهادات القصيرة بحوادث تاريخية معاشة توضح أن اللاعقلانية والمعتقدات السحرية ليست وقفاً على الشعوب المسماة بالمتأخرة أو المتوحشة، بل هو الفكر الإنسانى، فى عمومه، الذى يحمل ظلالا من المتناقضات والخرافات، واللاعقلانية، والاعتباط...

* * *

قد يوجه هذا الاعتراض:

إن الأمم التى لها ماض حافل هى، بحكم منطق الأشياء والتاريخ، أكثر عقلانية، ومن ثمة يتحتم أن توكل لها قيادة الإنسانية، ويعطاها حق سن الأساليب، والأنماط الملائمة لتسيير العالم.

بوسعنا أن نورد أربعة اعتراضات مضادة:

أولا: أن لجميع الشعوب تاريخا، وحتى الشعوب المسماة متوحشة أو بدائية، أو غيرمنطقية، لها أيضاً ماض ذو قيمة من بعض جوانبه...

ثانياً: كيف يمكن اختيار مايجب أن يفرض على الشعوب؟ إن الحضارة لاتقوم على مقياس واحد مطلق، ولا على مبدأ واحد مطلق، بل هى نتاج تركيب حي لمبادىء شتى، ومثل عليا متباينة من حيث المعايير والأهداف.

ثالثاً: يمكن، بالنسبة لثقافة ما، أن نصف الرقعة المنتشرة فيها، وأشكالها، ومختلف الأحداث المكونة لتنظيماتها المادية والعقلية والسياسية:

(أ) لكن هذا الوصف لن يعطينا سوى خطوط، لأنه لايهتم إلا بما هو متغير وعارض، فكل ثقافة تحيا وتتغير، وهذا التغيير ملحوظ فى جميع

المجالات : فأية رقعة ثقافية يمكنها أن تتسع أو تضيق ، لأن « الأمبراطوريات هي أيضاً معرضة للاندثار » .

(ب) أما مايتصل بالزمان ، فيمكننا أن نتساءل : في أي مرحلة من مراحل التطور ، أو الانحطاط ، يجب اعتبار الثقافة القومية ، لمجتمع ما ، ثقافة نموذجية بالنسبة لمجتمعات أخرى ؟

رابعاً : الاعتراض الأخير يتمثل في السؤال التالي : لأية أمة ، من بين الأمم التي ترشح نفسها للاضطلاع برسالة ورئاسة توجيه الشعوب ، يجب أن تعطى الأسبقية ؟ الشعوب لا تتوفر على نفس العمر التاريخي ، رغم تعاصرها ، فمن الطبيعي إذن أن نبحث أولا على معايير ، خصوصاً وأن أفراد المجتمع الواحد ليسوا متوفرين على نفس العمر العقلي ، ونفس المستوى الثقافي والحضاري ، ذلك أن في كل أمة بدائية وبدائيين ؛

* * *

إن لكل جماعة تلف أفرادها رابطة عرقية أو ينضمون إلى حقل جغرافي واحد أو ينتمون إلى نفس الدين ، حيزاً تاريخياً له ملامح معينة تمايز بين هذه الجماعة وبقية الجماعات البشرية ، إلا أن هذا التمايز يتجلى في مظاهر البنيات الفوقية للثقافة والمجتمع فحسب ، ولا يوجد في البنيات العمقية بدرجة تسمح بتصنيف اختلافات نوعية من شأنها أن تبرر الدعوة المسمومة لتعارض جنس مع جنس ولوجود عقلية سليمة وأخرى مشوهة .

* * *

عجلة التاريخ لا تدور في مكانها ، ولا تظل حبيسة ماض خالد . فالمقياس

الصحيح للحكم على ماضى شعب ما ، هو قدرة هذا الماضى على تقبل مقاييس كونية وإنسانية ، أى قدرته على تخطى الإطار القومى الخاص . إن زمن التاريخ هو التفتح على عالم زاخر بالنماذج والآمال ، فالتطور الحضارى مرادف للمغامرات ، أما زمن التاريخ الجامد فزمن العودة ، إذ يظل متجمداً بكليته فى الماضى .

* * *

يجب أن نحقق قفزات ، لنتجاوز قبل كل شىء ذاتنا ، كما يجب أن نكون عارفين الهدف الذى نقصده . فبإمكان الماضى أن يصبح بمثابة نقطة إيضاح تمدنا بالأضواء اللازمة ، لا ملجأ نأوى إليه لنستقر فى ارتخاء ، علينا أن نفعل مثل السابح الذى يتقهقر قليلا ليتحفز للانطلاق . فالزحف يتجه نحو المستقبل ، والمستقبل آفاق إنسانية . إن المستقبل ، والحضارة ، والتاريخ ليسوا ملكا لأحد ، على الخصوص ، إنهم لكل الذين يعملون فى الحاضر لمطابقة مشاريعهم ونزوعاتهم الخاصة مع مطامح الإنسانية ، بعيدين عن الحدود الجغرافية ، والاختلافات الجنسية والدينية والمجتمعية .

الحديث السادس عشر

بما أن الحضارة تكون مجموع الشروط اللازمة للتشخصن والمساهمة فى أنسنة الطبيعة ، يستحيل عليها أن توجد خارج شبكة تداخل — الآفاق ، وعلى غير مستوى النوع البشرى. فى هذه الحلبة الشاسعة ، تتلاقى ثقافات أجيال وشعوب متغايرة ، وعن تحاكها تتمخض حركات الرقى : إن تداخل — الآفاق ينبوع ، أى نمو إنسانى ، عنه تتولد كل التيارات الفكرية الكبرى ، وفيه تلتحم ثم تتصارع ، تتضارب ثم تجتمع ، تلتف ثم تتفكك .. بفضل هذه الأفعال ، ترتفع التجارب الإنسانية من الخاص إلى العام، من محتواها الفردى إلى محتوى الشمول فيصاغ منها تاريخ الإنسانية ، بعد أن ينخل ما هو قمين لتقوية أعصاب النمو مما هو مجرد زبد يذهب جفاء .

* * *

إن الثقافات ، قبل كل شىء ، مشاكل تنشأ عن مواجهة الإنسان والطبيعة، عن الحوار بينهما ، ولم تجد ، ولا تجد ، ولن تجد تلك المشاكل حلولا إلا فى نطاق حضارة شخصانية تشمل الحوار والمحاورين (لا الطبيعة دون الإنسان ، ولا الإنسان كجوهر يسبح فى عالم المجردات والمثل ، كما فى بعض الاتجاهات المعاصرة) . فالحلول التى تعطيها ثقافة ما ، طبقاً لخاصياتها ، تبقى دوماً حلولا موقتة محدودة المفعول : ذلك أن التناقضات الداخلية التى تهدد النظم السياسية والاقتصادية والمجتمعية ، وتدخل بعضها فى معارضات طاحنة ضد أخرى ، تشكل خللا خطيراً لن يتغلب عليه إلا إذا نظر إلى التناقض والمعارضة من زاوية الشمول، أى فى نطاق إنسانى يرتفع فوق الحالات العابرة والإقليميات الضيقة : لا بد لكل ثقافة من الارتباط بالثقافات الأخرى . فكما أنه لا يوجد « إنسان على

الحالة الطبيعية » التى ارتآها (روسو) ، كذلك لا توجد ثقافة خام ، قائمة بذاتها . إن أية ثقافة لا تتجذر فى الحضارة الإنسانية إلا بقدر ما تتفتح لمشاكل الثقافات الأخرى . فإذا هى ادعت الاكتفاء التام ، فى الانغلاق على الذات ، ذبلت وبلغها العتى ، وأصيبت بشلل يعانقها حتى تلفظ النفس الأخير . فحيوية ثقافة ما منوطة بقدرتها على التفاعل مع الثقافات الأخرى .

* * *

استجابة لمقتضيات تعبيرية ، نتكلم عن « الثقافات القديمة » و « الثقافة الشرقية » أو « الغربية » ، . ولكن الواقع الذى يحياه معاصرونا هو أن الاختراعات والاكتشافات ، مهما اختلفت ، والأبحاث والتجارب بكل أنواعها ، لم تعد تحمل الطابع الإقليمى ، بل ترمى كلها إلى إغناء الذخيرة العالمية ، عن طريق إثمار الحصيلة الثقافية الوطنية : كل قارة تسهم ، بتقليل أو بكثير ، فى هذا التيار المولد الموحد لحضارة القرن العشرين ، فلا يصل أى باحث ، فى أى مكان من المعمور إلى نتيجة ما ، ولو غير ناجحة ، حتى تردد صداها القارات بمجموعها ، رغم خلوة المخبر ، والبعد عن الأنظار والأسماع . إن مفكرى اليوم وعلماء اليوم ينقادون إلى حاسة مكتسبة ماحة ، هى « حاسة الشمول » : يعيشون فى ميادين جديدة ذات آفاق لا محدودة ، بـ « ذهنية جديدة » . فالقوميات التى لا تدخل فى حسابها تلك الحاسة وتلك الذهنية تعاكس التاريخ فى زحفه القهار ، فيسحقها سحقاً : القوميات تسير على الأقدام ، فى عصر يسير فيه التاريخ العام بالنفاثات ، وهل من يحبو يلحق أبداً من يطير ؟

« ومن لا يحب صعود الجبال   يعيش أبد الدهر بين الحفر
وألعن من لا يماشى الزمان   ويقنع بالعيش ، عيش الحجر »

الشابي ، من قصيدة : « إرادة الحياة ».

النزعة إلى الشمول هي الأوكسيجين الذى تتنفسه القوميات والثقافات الوطنية . فكم من فرض علمى تمخض فى (هيلانسكى) ، مثلا ، وترعرع فى (دلهى الجديدة) قبل أن يكتمل نموه فى (أوكسفورد) ويخرج إلى حلبات الواقع على يد باحثين آخرين ، فى بلد أو بلدان أخرى ، فتصبح النتيجة من مكتسبات الحضارة الإنسانية ، بفضل تعاون باحثين من جنسيات وثقافات مختلفة . ففى « اختلاف ألسنتكم وألوانكم ... » (قرآن 30. 22) آية على وجود تكامل طبيعى ، ضرورى بين جهود التفكير البشرى ، أجيالا عن أجيال ، وبين مختلف الشعوب البشرية .

* * *

هنا يتجلى ما فى مواقف بعض الدول من عبث : بمجرد ما تدعى أمة ما أنها « تحضر » الشعوب ، وأنها « المهدى المنتظر » الذى يجب أن يقود الإنسانية . تسطو عليها نشوة المجاملة مع الذات ، فتحدث خلفاً حتميتياً نحو التاريخ ونحو الرسالة الحضارية الحتميتية التى هى تعاون فى تساو . كلما دفعت نعرة الكبرياء شعباً إلى أن ينتزع الحضارة غصباً ، ويستغل ثقافته القومية للتمويه على الآخرين (عسى أن يسيطر عليهم ، مادياً ومعنوياً ، أو « يستعمرهم ») اضطر أن يتسلح بالكذب والعنصرية ، واستعمال القوى والخداع : يخرب من حيث يدعي أنه « يمدن » ، وبالتالى يضعضع الكيان الخلقى الذى تنبنى عليه ثقافته القومية : لصالح القومية الضيقة يصيب الحضارة فى أسمى أهدافها .

فبإسم « الدم الآرى » ، وباسم « الحضارة الآرية » ، هجمت الجيوش

الهيتليرية هجمات همجية فظيعة على شعوب لـ « تمدنهم » رغم أنفسهم ، بالدبابات والمفرقعات الجهنمية . لقد كان ضحية هذا « التمدن » العنصرى الشنيع ملايين من الأبرياء ، من العجزة ، من الشيوخ ، من النساء ، من الصبيان ، وتهدمت بلدان ، وأحرقت أراضى ، وأحرق أيضاً ملايين من البشر الأحياء !...

هذا حادث تاريخي مازلنا نشاهد عواقبه الوخيمة . فألمانيا من أنمى الأمم ، فكرياً ومادياً ، ولها فضل كبير على الرقى الحضارى الإنسانى ، ولكنها ارتكبت جريمة ضد الإنسانية عندما آمنت بتفوق ثقافتها وبضرورة فرضها تلك الثقافة على الآخرين ، وعندما اتخذت العنصرية أساساً لسلوكها السياسى ، إزاء الأمم الأخرى . إن النرجسية تجر ، حتما ، إلى العنصرية ، وعن العنصرية تتولد الحرب ، إن عاجلا أو آجلا . فالذين يغرهم محياهم فى المرآة ، كما أعجب نرجيس بذاته ، مقتنعون بأن « الإمامة العظمى » ملقاة على عاتقهم ، ممايدفعهم إلى التحالف مع دعاة « التمدين » والتبشير بالآرية وبمحاسن الاستعمار ! لكن الأجدر بهم أن يستمعوا ، بدورهم ، إلى نصائح ودروس الشعوب اللا ـ آرية ، والشعوب المتخلفة . يقول الكاتب الجزائرى (جان عمروش) : « إن أوربا مازالت فى حاجة ماسة لأن تتعلم أشياء كثيرة من الهمج ، بالرغم عما أعطتهم(...) ولكنها لن تصل إلى ذلك لأنها منغلقة على نفسها ، داخل عوائدها وكبريائها الجريح من جراء ما أصاب اقتصادياتها من تضعضع منذ الحرب الأخيرة »[1].

---

(1) J. Amrouche in Rencontres Intern. de genéve (entretien du 7 – 9 - 1946, t 1, p 125)

ألم يأت الساميون ، من بنى إسرائيل وعرب، برسالة عملت على ترقية الإنسانية ، فى حين أن كثيراً غيرهم لم يأت إلا بشعارات رنانة، ظاهرها براق وباطنها من قبله الأنانية القومية والسعر السلالى واستغلال الآخرين؟ . فلنتصفح التاريخ ، منذ موسى حتى أينشتاين : من بداية السلسلة إلى آخر حلقاتها ، نجد أسماء لامعة ، كل اسم يعادل أمة كاملة وعصرا لوحدة ، مثل عيسى بن مريم ، ومحمد بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وكارل ماركس وسيجموند فرويد ... إننا لانقصد أن هاته النماذج الخالدة نماذج فريدة لأنها من أصل سامى، ولا ندعى ، مطلقاً ، أن سلالات أخرى لم تعط عباقرة أفذاذاً للإنسانية ، ولكننا ذكرنا أولئك الأفراد ، على سبيل المثال ، لنلفت نظر العنصريين إلى أن الآريين ليسوا وحدهم صانعى الحضارة الإنسانية ، وإلى أن الحضارة ليست ملكا موقوفاً على فئة خاصة دون الباقى من البشر . إنها تشبه حب الأم لأبنائها، كل واحد منهم له حظه منه،وهو بمجموعه لهم جميعاً ، كما يقول (فيكتور هيجو).

* * *

نعم ،لقد أعطى الإغريق للعقل مرتبة مرموقة ، ولكن الديانات الإبراهيمية (اليهودية والمسيحية والإسلام) قد جعلت العقل فى الدرجة الأولى . فالعهد القديم يصرح ، فى أول آياته ، بأن « فى البداية ، كانت الكلمة » ، أى أداة التعبير للتقارب والتعاون بين البشر ، ومن ثمة تعتبر « الكلمة » بمعنى «المنطق» والقدرة على تسمية الأشياء لمعرفتها والسيطرة عليها.[2] الكلمة مفتاح لمشاركة الإنسان

---

(2) « وعلم آدم الأسماء كلها » (قرءان ، 2 : 31) .

الله فى الفعاليات الخلاقة المبدعة فى العالم. فالإسلام يقرر أن : « أول ما خلق الله العقل » (كما جاء فى الآثار) .

وإن أعظم ما أتت به الديانات الإبراهيمية ، هى المحبة : حب الناس لله (لأن الله حب وعدل ورحمة ، ...) ، وتحابهم فيما بينهم :

« ... لا تباغضوا ، ولا تقاتلوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ... »(حديث).

فالنموذج الإنسانى لم يعد هو « المواطن الحر » الأثينى أو الرومانى الذى يلاحظ ويتمنطق ويتفلسف ،داخل بيئة استرقاقية . بل إن الإنسان النموذج أصبح هو من يستعمل العقل،وفى نفس الوقت يخاف الله ، فلا يظلم ، ولا يستعبد غيره ، ولا يكذب . فلابد من مخافة الله ،لأن الله هو حامى الضعفاء ، هو ضمير الكون النابض : « الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » (قرءان 255:2) . إن اللهمع «الذين أحسنوا الحسنى» (قرآن 26:10). «إن الله مع الصادقين» أو «التصاديكيم»، كما فى الكتب المقدسة اليهودية : إن « التصيديك » العبرية تدل على العدل والرحمة والمحبة . وهي أسس الأخلاقية فى الإتجاة الإبراهيمى . نجد ذلك فى نفس الجذر اللغوى العربى (ص . د . ق .) الذى منه اشتقت الكلمات : صداقة ، وصدق ، وتصديق ! .. إن الساميين يجعلون المثل الأعلى للأخلاق فى العدل والرحمة :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان ،

وإيتاء ذى القربى ،

وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي » (قرآن 16 90) .

وجاء فى حديث قدسى :

« يا عبادى ! إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم ، فلا تظالموا ... » .

فالإنسان الكامل ، هو الإنسان ـ الكل ، الإنسان الذى ينظر إلى الواقع على أنه واقع ، بما فيه من محاسن ومساوىء : الإنسان — كل ، فيه كمال ونقصان إنه كائن ضعيف، ولكنه « كائن يحمل قلباً يدفعه إلى أن يرى الناس كإخوان، كقطعة من لحمه على حد تعبير النبي أشعيا ، ويحبهم كما يحب نفسه ، كما قال موسى. فالفرق إذن شاسع بين السكينة التى دعا لها الفلاسفة الإغريقيون وبين الروح المتأججة المتفتحة على النبل الإنسانى » فى الديانات الإبراهمية[3] :

* * *

عندما يرجع بعض العنصرين إلى أنفسهم ، فى تلك الفترات العابرة التى ينتصر فيها العقل والضمير على الذهنية الأسطورية وعلى غريزة السيطرة ، يتنازلون ، إلى حد ما ، فيصرحون : « حقاً ، ربما جاز الاعتراف للساميين ببعض الفضل ، فى الماضى... وعلى كل حال، إنهم ينتمون إلى الجنس الأبيض!.. أما الأفارقة السود ... » .

إن العنصرية انحراف نفسانى فظيع يعمى ويصم ، فيتنكر السلاليون إلى البديهيات والواقع مهما عظمت كثافته ، ويعفسون على الحقيقة بالرغم من إعترافهم بحرمتها .

---

(3) H. Baruk, La sagesse de Maïmonide (in R. d'Hist. de la médecine hébraïque, no 31, mai 1956, p. 58 - 59) .

إنهم أبناء إفريقيا ، القارة التى تضم « أقدم بقايا الإنسانية ، سواءمنها آثار الصناعة ، أم آثار النشأة الأولى للكائن البشرى »[4]. وتدعم هذا دراسات عديدة قام بها علماء معاصرون ، من بينهم اختصاصيون فى ما قبل التاريخ أو فى تاريخ السلالات ، وآخرون فى علم الحفريات وفى الجيولوجيا ... وعلى سبيل المثال، يمكن الرجوع إلى كتاب غيرنيي عن «ما أعطته إفريقيا للتفكير الإنسانى» (ص . 17 إلى 20 حيث توجد لائحة ببعض العلماء المشار إليهم[5]). ان الناظر إلى تآليف أولئك الباحثين ، يستنتج بوضوح أن «القارة الإفريقية» بناء على ما أثبتته اليوم الأبحاث قد لعبت دوراً هاما فى الغصن المؤنسن[6] (فى التطور الحيوانى العام) وفى تكوين المعرفة الإنسانية (غيرنيي ، نفس المصدر ، ص 17) . هكذا ينسى ويتناسى ، أو يجهل ويتجاهل العنصريون المعلنون العداء الصريح للإنسان الأسود « أن النور لم يأت إلى أوربا من الشرق فقط ، بل من الجنوب أيضا »، أى من إفريقيا ، كما أقره (غيوفانى بابينى)[7] وعلينا أن نقرأ بتمعن كتاب (أنتاديوب) البحاثة السنغالى لنكشف حقائق مدهشة بالنسبة للعنصريين ولغيرهم[8] .

* * *

---

(4) C. Arambomg, en R. sciéntifique. (15 - 1 - 1948).

(5) Eu. guernier. Les apports de l'Afrique à le pensee humaine, Paris, Payot, 1952.

(6) La rameau homineien.

(7) g. Papini, Un homme fini. Paris, Payot, 195?.

(8) Anta Diop, Nations negres et eulture Paris, Presence africaine, 1954.

تمتاز الهمجية بقساوة القلب المفرطة . إلا أن التاريخ لم يسجل قطوحشية أفظع مما أظهره الإيطاليون بليبيا وبالحبشة قبيل الحرب العالمية الأخيرة ، ولم يسجل ، مطلقا ، وحشية يمكن مقارنتها بما فعله النازيون أيام الحرب .

هوروشيما !

معاقل سيبيريا الستالينية !

فيالق رجال المظلات الاستعمارية ! . .

إن من الذكريات مايجمد الدم فى العروق . . . لقد كانت جيوش المتمدنين البيض تصبها نارا عاتية على مدن الهند الصينى وغابات المامو ، تصليها (نابالم) يحرق الحرث والنسل . نعم ، لو أن بعض الأفارقة أو الساميين كانوا فى جنود الاستعمار ، متوفرين على نفس الإمكانيات ومهيئين فكرولوجيا لأمطروا قنابلهم على أعدائهم، لأننا جميعاً (مهما اختلفت أجناسنا ومستويات حياتنا المادية وثقافاتنا) وحشيون وأن طبيعتنا لم تؤنسن أنسة عميقة واعية .

إن ما يميز « المتمدن » من « المتوحش » ، فى هذا الميدان ، إنما هو مقدار اتفاق الوسائل المستعملة ؛ وكيفية استعمالها ، والحيل المعتمدة فى تبرير الحرب والاستغلال والتخريب ، فى حين أن الأهداف وحشية ، والنتائج وحشية .

لكن ، إذا كان للأفارقة « الوحشيين البدائيين » أساليب ووسائل خاصة للتعذيب والتخريب فإنها لم تصل إلى درجة الإتقان والكمال ، كما وصلت إليه أساليب ووسائل المجتمعات المتمدنة : « ليس لأى سحر قوة أكثر فتكا وتقتيلا

من سحر السياسة المعاصرة التي تنتهي بالسحر الأسود في زنزانات التعذيب والمعتقلات الجماعية . إن أحلام الإنسانية الكبرى المتحمسة لم تمص قط هذا المقدار الهائل من الدم البرىء الذى امتصه القرن العشرون » (لابيير)[9]. فاذا أضفنا إلى ماسبق، الجرائم المدهشة التي فضحها بشجاعة تستحق كل تقدير (كروتشوف) في التقرير الشهير الذى قدمه إلى المؤتمر العشرين للحزب البلشفيكى ، (25 - 2 - 1956) ، وما حصل في الكونغو ، وفي الجزائر .. أخذتنا قشعريرة الحسرة والقلق على مصير الحضارة : إقرار بالإفلاس ولزوم مراجعة ملحة دقيقة لكل مرافقها ومقوماتها ، دون مجاملات أو تعارض . لابد من نقد ذاتي ، على الصعيد العالمى ، علنا نأخذ بناصية مصيرنا ، فنوجهه توجيهاً إنسانيا شموليا .

* * *

إن أخطر آفة تهدد الثقافات القومية المنغلقة ، هى خطيئة نرجيس : ترك نارجيس النشاطات الضرورية للحياة العامة وانكب على ذاته يمجدها ، وعلى جسمه يمتع النظر فيما تعكسه المرآة من ملامحه . إن من يظن أنه قادر على كل شيء ، يجب ، كما يقول (كورنيى) أن يخاف من كل شيء .

أول خطوة نحو النرجيسية هى أن يريد شعب ما الاستحواذ على الحضارة لاحتكارها ، معتقدا أنها له دون مشاركة أى شعب أو جنس آخر : أرصدت الأبواب ، ورفعت الأقلام ، وقضى الأمر ! لكن الأبواب من زجاج رقيق ، والأقلام من قصب يانع .. إن للواقع وللتاريخ ، وهما وحدهما ، أن يحكما ، ولا

---

(9) J. W. Lapierre, Esprit, no. II, 1957.

راد لحكمهما ! فلا حضارة شرقية أو غربية ، ولا حضارة عربية أو أمريكية أو روسية ، . وإنما ثقافات غربية وشرقية ، اسلافية أو يابانية ، ... تتفاعل داخل إطار شامل ، هو حضارة القرن العشرين ، وهى حصيلة إنسانية عامة متوارثة ، كلها للجميع ، والجميع منها .

* * *

زعماء تقليم الحضارة والمحتكرون أحد صنفين : رجال الجيش ، أو أصحاب رؤوس أموال وأتباعهم من صانعى الأسلحة وبائعى النظريات السلالية من أمثال (دونجو بينو De gobineau) ومدرسته،و(روزا مبيرنج Rosemberg) مشرع النازية وصاحب الكتاب الشهير « الذهب والدم » ، وغيرهم من مبدعى الميثولوجيا العنصرية الحديثة .

* * *

السلالية والنرجسية أختان شقيقتان . فى المرحلة الأولى نستعذب مجاملة الذات ثم ندخل طور الهيام بأنفسنا ، وهو طور النرجيسية التى تنسينا عالم الواقع وتمج بنا فى أنانة وأنانية مرضيتين تقذفاننا بين ذراعى العنصرية وميثولوجيتها الخداعة .

ويجدر القول بأن الاحتياط من العنصرية وجرائمها واجب على العنصريين أنفسهم لأنهم ضحايا ميثولوجيا خاصة. لكن،من الواجب ألا نتغاضى عن «عنصرية» أخرى لا تقل فظاعة عن تلك التى تفتك بسلوك من عانوا مرارة الإستعمار والتشرد والهوان. فالساميون والملونون هم ، كذلك عرقيون يتعصبون لعرقيتهم تعصبا مفجعا! فما زال الإسرائيليون يعتقدون أنهم (شعب الله المختار) ، والعرب ...والسود...والصفر... إننا لن نغير ما بالذين استعمروا وأهانوا إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا فنظفناها من النرجيسية المقيتة والعنصرية... فانفعالات الدفاع عن كرامتنا المغتصبة وبلادنا المحتلة أكسبتنا مركبات نفسانية وعقداً تتجلى فى سلوكنا العدوانى أحيانا ، والنرجيسى —

العنصرى أحياناً . لهذه الإنحرافات تفسير سيكولوجى يستحق شيئاً من التفاهم ، لا التأييد والتبرير . إن التحرر من المركبات والعقد يدخل مباشرة فى التحرير المجتمعى والسياسى . فيجب أن نجعل من النقد الذاتى قانوناً أساسياً فى البيداغوجيا .

☆☆☆

فى ندوة ثقافية دولية انعقدت بجونيف حول (الفكر الأوروبى) خلال شهر سبتمبرسنة 1946 ، صرح الكاتب الفرنسى (جان غوهينو guéhen o) بتعنت وكبرياء ، بأن المدنية التى تستحق هذا الإسم عن جدارة مدنية أنتجها الغرب . إذن ، لا حضارة حق إلا غربية . فتدخل الكاتب الجزائرى (عمروش) ليجعل النقط على الحروف (وتحت) الحروف . إذا كان بعض الأوروبيين فى المؤتمرات العالمية يجتمعون ليصلوا إلى شعور واضح واع لما هم عليه فى الواقع، فمن اللائق أن يطلبوا مايراه ويشهد به فى شأنهم ممثلو مختلف الحضارات الأجنبية[(10)] . «ألا يعمل بالأوروبى (لفائدته ولمصلحة الحضارة التى ينتسب اليها) أن ينظر إلى صورته كما تنعكس فى شعور سكان أمريكا الجنوبية ، والسينيغال ، ومصر ؟ إذا اعتبرت أوروبا ، كما ينظر إليها الأجنبى ، تجلت كبلاد مثقل بالخيرات المادية، يتعثر التاريخ من حمولتها الثقيلة ، ويتفجر لطفا وإبداعا ويزخر ذكاء . لكن ، يظهر أن هذه المزايا لكثرتها وتنوعها ، أضحت تتلاشى وتقل ، كما أخذت تعتريها علامات العقم لمبالغات الأوروبيين فى الإعتداد بها . فيا ما أبهى الرفاهية والأساليب الفنية فى الحياة ! ويا ما أكثر الجهود التى تبذل لتكوين ذوق مرهف وزخرفة المساكن

---

(10) Rencontrcs Inter. de generre, t 1, p 24,

الخاصة والعامة ! ويا ما أرق وأدق طرق المناقشات الفكرية ! بيد أن كل ذلك لم يمنع الحضارة من أن تتجه اتجاه التقتيل والتخريب ، حيث أظهرت عبقرية الغرب أقصى ما تقدر عليه من اختراعات، وتنظيمات منهجية فى هذا الصدد . ان كل ما يرويه التاريخ ، وتقصه الأساطير عن حروب الماضى وويلاتها ليعد من ألعاب الأطفال إذا قورن بما يقوم به الغرب اليوم من تقتيل وتخريب . وبعد هذا يتصدى (غوهينو) ليشدق بأن لا حضارة حقيقية إلا حضارة من صنع الغرب؟» .

* * *

من حسن الحظ ، قد أخذت الإنسانية تشعر بتلك الأخطار ، وأقلام الواعين منها تحرك السواكن لتمزق الحجب عن سوء التفاهم وتقرب بين الذهنيات والنظريات. فلربما كنا اليوم أدنى ما نكون من حدوث أنسنة جديدة لطبائعنا وللعالم ، وذلك لأن للأخطار الكبرى جانباً جد جميل ، كما يقول (فدكتور هيجو) : إنها تلقى ضياء على ما يجمع بين الأجانب من أخوة .

* * *

فى هذا العالم الذى يتفتق ويتصدع يكفى أن تتكاثف جهود الجميع ليصل الإنسان إلى التصالح مع نفسه فيحصل التناسق الذاتى فى كل فرد ، وبين جميع الأفراد ، وهكذا سيرى كل واحد منا وجهه دون أصباغ : ستتحطم أقنعة النرجسية والعنصرية، كما سيتطحم الديكور ، وسيبقى الإنسان، كل إنسان، بما هو إنسان، واقفاً .

لقد بدأنا نسبح ، رغم المجرى الخالى الذى يخالف حركاتنا ، ورغم أن الغارقين منا كثيرون . فلا بد من أحقاب زمانية للإنقاذ وتنسيق سلوك الغرقى بسير العالم ، العالم الجديد المؤنسن . إذ ذاك تبدأ حقاً عملية الإنسلاخ عن البدائية،

بدائيتنا المشتركة المتجذرة فى ذهنية جميع الشعوب والأجناس ، فنتجاوز الاستلاب والحرمان ، وندخل ميدان الوعى .

* * *

الشعوب « النامية » (!) (أى المتخلفة اقتصادياً وثقافياً) مصابة بانحراف شنيع : يعدمها مركب النقص الثقة فى قدراتها العقلية ، وفى ذوقها ، وقيمها ، ومقاييسها ، فيتغلغل فيها الشعور بالعجز عن الاقتباس من الآخرين ما يمكن اقتباسه من المفاهيم الحضارية .

ولكن ، رغم الشعور بالنقص والتفاهة والهوان ، ثمة مركب الكمال الذى هو أكبر وأفظع ، إذ عنه يتولد أخطر انحراف أخلاقى ومجتمعى وسيكلوجى يصاب به فرد أو شعب . لمركب النقصان علاج ، أما مركب الكمال فلا التآم له . عالم الأول متفتح قد تتسرب إليه أشعة من الخارج تعين على تبدده ، أما الشعور بمركب الكمال فيغلق المنافذ ، ولا يعرف إليه النقد الذاتى سبيلا .

هناك طبائع مخضرمة من المركبين ، وتلك هى الكارثة الكبرى ، والانحراف الأقصى .

* * *

فالذى يود ، عن صدق ، السير إلى الأمام ، يلزمه ، ، مسبقاً ، أن يتفحص أجهزته المادية والمعنوية ، ماضياً وحاضراً ، لأن ذلك زاده فى الموعد مع المستقبل.

سنخصص هذا الحديث ، والحديث الذى يليه ، لمناقشة بعض الأساطير التى راجت عن ماضى العالم العربى الإسلامى حتى ترعرعت بذور مركب النقصان عند البعض منا .

* * *

الحديث السابع عشر

الشرق كما يراه الغـــرب

التمايز بين الشعوب ، كالتباين بين الثقافات الوطنية ، ليس إلا « فترات » فى الجدل الديالیكتيكى الذى يسير عليه التداخل بين الجماعات البشرية ، فى الميادين المادية والمعنوية . فعلى هذا التمايز تتأس حركات النمو التاريخى والرقى الحضارى .

* * *

بيد أنه ، وياللأسف ، ما زال ، إلى اليوم ، الجانب الخرافى من الذهنية البشرية يحدث خللا فى ذلك التداخل ، فيغير من وجهته الديالیكتيكية الطبيعية ، إلى اتجاه عدائى عدوانى . وهذا ما حصل بالنسبة لموقف الثقافات الأوروبية من الثقافتين العبرانية والإسلامية . وسنضرب على ذلك أمثلة محسوسة تظهر أن الكثير من المفكرين والأساتذة الجامعيين يبتمون ، ضحية لصور ميثولوجية .

* * *

من هؤلاء الكاتب (جورج دوهاميل) عضو الأكاديمية الفرنسية الذى يؤكد فى كتيب سماه « حضارة فرنسا [1] » ، أن الذهنية الشرقية عاجزة ، تمام العجز ، عن التفكير التركيبى وعن تجاوز الذات .

هذا تصريح خطير جداً ، لأنه إقرار للادعاء يروج منذ القرن الماضى ، ويمكن تلخيصه كما يأتى :

الفكر الشرقى ناقص وما ينقصه هو القدرة على عملية التركيب .

---

(1) طبقا للمنظار المستعمل فى أحاديثنا السابقة ، يجب أن نقول « ثقافة فرنسا » . ظهر كتاب (دوهاميل) بباريز ، عند (هاشيط) عام 1944 .

إن التركيب شيء أساسى للعقل البشرى .

إذن : الفكر الشرقى ليس بفكر إنسانى ، أو على الأقل ليس فكراً سوياً .

ينتج عن هذا نتيجة ثانية :

بما أن الفكر الشرقى ناقص وغير سوى :

لا يجوز أن يعامل الرجل الشرقى معاملة العاقل الرشيد .

ومن ثمة : يجب اعتباره دون مستوى الإنسان مما يبيح ، منطقاً وأخلاقاً ، استعباده واستعمار أراضيه .

☆ ☆ ☆

أول من «لاحظ» وروج عدم كفاءة الفكر الشرقى ، هم (إيرنيست رونان) و (لويز بيرطران) وأتباع (دوغو بينو)[1]

يبدأ (رونان) بفرض عام : « ... أما الفكر العتيق السامى ، فإنه ، بطبيعة تكوينه ، معاد للفلسفة ومعاد للعلم »[2] . ويتحدث ، فى الصفحة التالية عن :

---

(1) إن أفكار هؤلاء لم تمت بموتهم ، فإلى اليوم يرجع إليها بعض الكتاب . فقد أصدرت السيدة (Anne Huré) بحثا : « أحاديث مع السيد رونان » (باريز ، جوليار ، 1962) . نجد صفحات كثيرة فى هذا الكتاب عن الساميين ، خصوصا من 65 إلى 72 (الفصل الثالث) ومن 73 إلى 77 (الفصل الرابع) .

(2) Ernest Renan, De la part des peuples semitiques à l'historre de la civilisation (discours d'oureture au Collége de France), Paris, 1862. p. 17.

« إحتقار الساميين العلم » مبرزاً ذلك بما « فى الفكر السامى من سذاجة مهولة تضيق الدماغ الإنسانى ، وتغلقه أمام كل معنى لطيف ، وكل عاطفة رقيقة ، وكل بحث معقول ، ولا تفتحه إلا على تكرار سرمدى تلخصه العبارة : « الله هو الله » التى إنما هى tautologie حصول حاصل .

يختم (رونان) حديثه ، وقد غمرته نشوة النصر ، متوجها إلى مستمعيه : « إن المستقبل ، أيها السادة ، لأوروبا إذن ولأوروبا وحدها ! »» (مقتطف من الدرس الافتتاحى بكوليج دوفرانس سنة 1862 ص 18) .

فما هى « البساطة » التى أعطبت الفكر السامى ؟

* * *

إن الميتافزيقا الدينية ، عند الإسرائليين وعند المسلمين ، ترتكز على : « لاإلاه إلا الله » ، وهذه العبارة ، خلافا لما أدعاه (رينان) ، ليست «بسيطة» ، وليست « تكرارا » . على أننا ، ولو فرضنا أنها عبارة (طوطولوجية) (حصول حاصل) ، فالمناطقة لم يقولوا بأن التعبير الطوطولوجى علامة على عقم فى الذهن .

إن حصول حاصل (الطوطولوجيا) من طرق البحث والتفكير المستعملة (باحترام) عند الإغريق وعند مفكرى العصر الوسيط بل إنها لاتزال تستعمل حتى اليوم ، عند المحدثين الأوربيين . ليس ضروريا أن يعتبر حصول حاصل مرادفا للغلط المنطقى الذى تحتوى عليه أية إعادة بألفاظ مختلفة ، دونما تقدم للتفكير . فعندما يصرح الساميون : (الله هو الله) يستعملون عبارة تعد نموذج الهوية الكاملة : فالمقصود من (الله هو الله) إقرار وحدانية الله . فلنستمع لما يقوله السيد (مانترى Montré)فى قاموس (لالاند Lalande) : « إن كل تعريف ليس فى

الحقيقة إلا حصول حاصل ، لأنه يعبر عن معادلة بين مفهومين. . . » (ص ، 1103 طبعة 1959) .

يظهر أن (رينان) تغافل عن المعنى الحقيقي لـ (لا إله إلا الله) : إنها شهادة ، أي إقرار واقع ارتفع إلى درجة الوعي ؛ إنها انعكاس لإيمان واع . فالمؤمن عندما (يشهد) لايعيد كلمات الشهادة تعبدا بالتكرار ، بل يعلن عن يقينه ، بشيء أصبح عنده من (البديهات) . وكل العلماء ، على اختلاف ميادين اختصاصهم ، يبدأون باقرار (بديهيات) و(مسامات)، لولا تسليمهم ببداهتها ما أمكنهم أن يقوموا بأي بحث وأن يصدروا أي حكم علمي (منطقي) . إذ المبتدأ ، في تلك العبارة ، هو غير الخبر . إن الوحدانية لاتتحمل التكرار ، ومن هنا كانت لفظة (الله) لاتعادل لفظة (إله) بل تنفيها قطعا . فالإسرائيلي أو المسلم ، عندما يشهد أن (لاإله الا الله) لا يذكر المحصول مرتين . فلفظة (إله) هنا لاتفصل عن (لا) النافية للجنس . النفي يتسلط على فكرة الكثرة : لا آلهة، لاتعدد، لا نوع أوجنس إلهي. فإذا تم نفي التعدد ، وآمنا بأنه لا كائن إلهي ، أتت « إلا » لتستثني، أي لتثبت « الله » في وحدانيته . إن المفرد والجمع ، لم يكونا متميزين (بالنسبة للألوهية) تميزاً واضحاً ، عند الساميين ،فأتت الشهادة لتأكيد الفرق بينهما .

إن الوثنية والإيمان بتعدد الآلهة اتجاهان في الفكر الإنساني ، كما تقرره دراسات ذهنية الشعوب « البدائية ». فالوحدانية مرحلة « تقدمية » من مراحل تطور الإنسانية، وأن تاريخ الأديان المقارن قد وصل إلى نفس النتيجة : التوحيد حصيلة قرون من التفكير . إنه اكتساب وليس معطى .

* * *

سؤال آخر : كيف يمكن أن نعتبر لفظة معرفة بـ (الـ) ، (أى الله) (تكراراً) للفظة نكرة (أى إله) ؟ إن التكرير إعادة شيء كما هو ، دون زيادة ودون نقصان . فـ (إله) ، إذن ، ليس هو (الله) ومعنى (لا إله إلا الله) هو: لم يكن قط، ولن يكون أبداً ، تعدد الآلهة ؛ فليس هناك إلا الله الأوحد(1)

إن الشهادة تتجاوز التعبير اللفظى، ف (يهوه)، أى (الله) ليس مطلق اله، إنه الله القديم، الدائم ، الأوحد ، الأزلى .

فلنضرب مثلا : نأخذ (أ) وهى مفهوم ما . هل يبقى معنى ذلك المفهوم كما كان عندما يدخل فى القضية الآتية : (أ هى أ) ؟ طبعاً لا. فالقضية « (أ هى أ) » تؤكد تماثل (أ) لذاتها ، وتقر ، ثانيا ، شيئا آخر ، وهو أن ذلك التماثل حقيقة ثابتة مستمرة .

من هنا نستطيع إبراز ما بين التكرار و (الشهادة) من تباين عظيم :

— فصيغة التكرار هى : أ ، أ ، أ ، أ .... أو الله ، الله ، الله ، ...

— أما صيغة الشهادة فهى: الله هو الله؛ لا إله إلا الله ؛ ليس من الله غير الله.

إذن : إن (الشهادة) ، ليست تكراراً ، هذا أولا ؛

وثانياً : إنها ، وإن كانت فى شكلها ، تقترب من الطوطولوجيا (حصول حاصل) ، فمعناها فى الواقع تماثل كامل .

---

(1) ينطبق هذا على « الشهادة » فى الإسلام ، كما ينطبق على ما جاء فى الكتاب المقدس (سفر الاشتراع ، 4 : 35) : « أن الرب هو الإله ، ليس إله سواه » .

تعتمد الرياضيات ، إلى حد اليوم، على القضايا المتماثلة. هكذا يرى (برطران روسل) أن كل الحساب طوطولوجى لأنه خلو من العنصر الإنسانى أى فى الزمان .

* * *

يمكننا أن نقلص الشهادة بحذف طرفها الأخير ، فنقول : « لا إله » . أليست هذه العبارة قضية تامة متكاملة بذاتها ؟ إنها إقرار لعدم وجود ألوهية : فالجملة قد قامت بمهمتها التعبيرية .

فلنتناول الآن بالطرف الأخير من الشهادة ، على حدة : « الله » . فهذا لفظ ومفهوم من المفاهيم ، قابل لأن يوصف بأوصاف لا تعد ، ويمكنه أن يضم إلى مجموعة من الكلمات ليكون معها جملة ، فيكتسب معنى فى التركيب الجديد ، ويسهم هو بدوره (بصفته جزءا من جملة) كيما تحصل الجملة على معنى .

كل اسم يدخل فى جمل تعتريه إحدى الحالات الثلاث : الإثبات، أو النفى، أو الاستثناء . وكل حالة منها تكون كسبا جديدا للجملة . وهذا ما حصل فى : « لا إله + إلا + الله » .

يجب الآن أن نتعرض للدور الذى تلعبه « إلا » الاستثنائية . إنها فى الواقع أداة لا كلمة ، فلا مفهوم لها خارج الجملة . مثلها فى ذلك مثل «و» ، «أو» ، «إن» ، «إذا» ، «حتى» .

التكرار والطوطولوجيا لا يقعان بين الأدوات ، بل بين الكلمات لأن لكل كلمة مفهومها ودلالة خاصة . فوجود «إلا» ، فى الطرف الثانى من الشهادة أضاف إلى الجملة معنى جديدا ، وهو المعنى الذى اكتسبته من برهان التمانع .

وتحتوى،على هذا المعنى الجديد ، آية قرآنية : «لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا». (21 : 22) .

* * *

الله هو المبدأ الأول ، منشأ الإبداع والتعقل ، « واجب بذاته » ، كما يقول ابن سينا . فالوحدانيـة ، من حيث هى وحـدانية ، لا تحتوى على حيثيات ، ولا تحتاج إلى غيرية ، ولا إلى كثرة ،لأن تـكاملها فى ذاتها. هذا التـكامل الذاتى يصبح كمالا تاما عندما يثبت لدينا أن (أ) هى (أ) باطراد ، ولا تعتريها أعراض أبدا. فلو أن (أ) تحولت شوقا لأحسن مما كانت عليه ، لقلنا : إن (أ) كانت ناقصة فى حالتها الأولى . أما إذا تغيرت (أ) إلى دون ما كانت عليه سابقا ، قلنا : إن (أ) غير مكتملة الذاتية . هـكذا فى كلتا الحالتين ، نستنتج أن (أ) تتغير ، وأن كل متغير ناقص ، وأن كل ماهو ناقص فحادث .

« الله » كامل ، لأن الوحدانيـة كمال : « لم يكن له كفوا أحد » (قرآن 112 : 4) . وأن من صفات الـكمال القدم (فالأوثان حادثة لأنها من مصنوعات الإنسان) . فالله تام الوجـود ، مادامت وحدانيته لا تنقسم ، وكامل الوجود ، لأن الوحدانية استقلال وكمال . فالله ، إذن، وحدة كاملة مستقلة بذاتها، وقديم. إنه : « الأول والآخر ، والظاهر والباطن » (قرآن ، 54 : 3) . الله هو الكائن الأوحد الذى يمتزج فيه الواقع بالمثل . فالقرآن يعبر بـ : « كان الله » لا بـ : « سيكون الله » .

* * *

لقد قمنا ، فى الصفحات السابقة ، بتعليق على مزاعم (إيرنيست رينان) من أن التفـكير السامى طوطولوجى محض ، لا يقدر على تجاوز التـكرار (مع إعطاء

معنى قد حى للطوطولوجيا) . أما الآن فسنوجه اهتماما إلى نظريات غريبة أخرى حول التفكير السامى .

* * *

يدعى (رينان) ، فى مؤلفه عن التاريخ المقارن للغات السامية ، ان الساميين يجهلون ، جهلا كليا ، المنهج العلمى المجرد النزيه عن كل منفعة شخصية ، عند الحكم على الأشياء . فالمنهج الرفيع الذى يصاحب الروح العلمى فى البحث والحكم ، ميزة خاصة بالفكر الآرى [1] .

يظهر من خلال هذا أن لـ (رينان) تفكيرا يتألف من النرجيسية ومن العنصرية الآرية [2] . وسيردد صدى هذا الإدعاء ، فى عام 1936 ، (الويز بيرطران) وهو من العنصريين المرموقين : إن السلالة نتاج الدم « بحيث إنه من الصعب جدا امتزاج الأجناس البشرية » . يذكر تصريح (بيرطران) بنظرية (دوغو بينو) الشهيرة التى تزعم أن السلالة كيان روحى ، وميتافيزيقى أيضا ، وهذه الميزة الأصيلة اللامتغيرة تجعل امتزاج الأجناس محالا .

* * *

من هذين التصريحين ، نستخلص أن بعض المفكرين الغربيين يضعفون إزاء أرستقراطية الثقافة ، مما ينزلق بهم عن الموضوعية .

فالسيد (جرج دوهاميل) كان ، ولا شك ، ضحية خداع مخيلته ، وهو الكاتب الروائى ، ولأنه غير متخصص فى شئون الشرق و « ذهنيته » . ولكن توجد جماعة من المستشرقين ، ذوى جاه جامعى محترم ، لهم آراء فى موضوع

---

(1) E. Renan, Hist. géné. et syst. des lavgues sémitiques Paris, 1878, 5e ed., p. 16.

(2) انظر : الحديث 11 والحديث 16 من هذا الكتاب .

حديثنا ، نرى من المفيد أن نقف عندها قليلا.من هؤلاء الأساتذة (ما كدونال Macdonald) الأمريكى ، و (جيب Gipp) البريطانى ، و (بيلا Pellat الفرنسى) . فأحكام هؤلاء الأساتذة جديرة بالعناية لما لهم من اختصاص .

* * *

حاول الأستاذ (جيب) ، فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » (1) أن يبرز القاسم المشترك لدى مفكرى الإسلام،على اختلاف أجناسهم، فكانت النتيجة هى أن الذهنية الإسلامية تمتاز بـ (atomism « الذراتية»)(2) .

فما هى هذه « الذراتية » ؟

يجيب الأستاذ (جيب) بأنها نزعة الفكر الإسلامى إلى اعتبار المفاهيم وظاهرات الطبيعة وأحداث التاريخ منعزلة متفرقة ، يعنى أن الفكر الإسلامى غير قادر على عمليات التركيب (نفس نظرية رينان ودوهاميل . . . ، ولكن فى قالب آخر !) .

---

(1) اعتمدنا على الترجمة الفرنسية التى قام بها : (فرنيي B. Vernier) ، باريز ، عام 1949 .

(2) اخترنا هذه اللفظة ، رغم ما فيها من زيغ على الإشتقاق العربى ، احتفاظا على المعنى القديم الذى ارتضاه الأستاذ (جيب) ، ولأن (ذرية) مصطلح علمى موقر لا يلائم هنا .

ويرى (جيب) ، أيضا ، أن المعرفة ، بالنسبة لجمهرة طبقة المثقفين المسلمين، تنقصها القوة الدينامية لأنها لا تزال (حتى أيامنا هـــذه) مهلهلة وغير مجهزة ، وذراتية (انظر ص 89) .

* * *

هل تلك هى خصائص الفـكر العربى الإسلامى ؟

فلنفرض أن هناك ميلا ، فى فـكر إنسان ما ، إلى «الذراتية» ، فهل معنى هذا أن ذلك الفـكر معاد، بطبيعته ، لـكل قابلية للتركيب؟هل توجد «ذراتية» محض ، مطلق ؟

إذا أجيب بنعم ، استنتجنا أن صاحب الفـكر الذراتى ليس إنسانا ، وإنما هو كائن ينتمى إلى جنس من الحيوانات التى تفرعت عن غصن عام كان يضم ، من بين ما يضم ، الجنس البشرى : لقد تأنسن وتطور الجنس البشرى ، لـكن جنس الذراتيين وقف عن التطور،لأنهم إخوة أو أبناء عمومة الحيوانات العليا ، مثل الشامبانزى،وأصناف أخرى من القردة ...،وما إخالنى مبالغا فى استخلاص هذه النتيجة ! ..

* * *

من المنهجية العلمية المعاصرة ، أو المنطق الحديث ، يتحقق لدى الباحث أن التحليل والتركيب عمليتان متـكاملتان : فليس التحليل غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل البحث ، أو على الأصح ، جانب (وإن كان جانبا أساسيا) من جوانب كل منهج يقصد تحليل شىء إلى عناصره ، أو تقليص معطى من متشعب المعطيات (الطبيعية أو الذاتية) إلى مكوناته البسيطة . أما التركيب

فهو العملية المضادة : الذهاب من العناصر ، أى من البسيط ، إلى المعقـــد .
فالتركيب يستلزم التحليل ، كما أن التحليل لا يحقق أهدافه إلا بتكامله
مع التركيب .

ربما اعترض علينا الأستاذ (جيب) بأنه ، إن كان لا ينكر التكامل
والاستلزام بين التحليل والتركيب ، يرفض شرحنا لأننا نفرض مسبقا ، قدرة
الفكر العربى الإسلامى على التحليل ، فى حين أن « الذرانية » لا تعنى
التحليل .

يذهب الأستاذ (جيب) بعيدا فى تطرفه ، إذ يرى أن « المفكر » المسلم
يبنى عمليات « تفكيره » على انطباعات متقطعة ، غير متصلة ، لا على معانى
واضحة بينة تنسجم فيما بينها داخل منظومات علمية. وهذا وضع ناتج ، كما يدعيه
(جيب) ، عن انحراف أصيل فى ملكة التخيل عند العرب : إن لها « طبيعة
ذرانية تنقيطية » (ص90) . وان هذه الطبيعة اللاسوية هى التى تجعل التفكير
الإسلامى ، فى مظهره الصوفى ، يميل ، عفويا ، إلى تفضيل الجانب الذاتى من
الحياة ، وتعلقه بتسلسل النقط الفردية الموضوعية جنبا إلى جنب ، مما يجعله عاجزا
عن العمليات التركيبية وينفر دائما من استعمال التحليل (ص90).

* * *

فلنتخذ التاريخ حكما بين المدعى (الأستاذ جيب) والمتهم (الفكر العربى
الإسلامى).

يعرف الأستاذ (جيب) تاريخ الثقافة العربية وإلى أى حد ساهمت فى نمو

الحضارة الإنسانية ، بفضل فعاليات التحليل والتركيت التي قام بها المفكرون المسلمون ، من القرن التاسع (أى منذ أيام الكندى ، « فيلسوف العرب »)إلى القرن الرابع عشر الميلادى (أيام عبد الرحمن ابن خلدون ، صاحب « العمران البشرى») ، كما يعرف أن الفضل فى تقدم الجبر يرجع إلى أولئك المفكرين، فهم الذين نفخوا فيه روحا جديدة ، بعد أن كان جامدا يماوت منذ (ديوفا نتس)[1] فانتعش ودخل فى مرحلة الاكتمال . فكلمة (algebre) الغربية (=الجبر) اصطلاح وضعه الخوارزمى، إذ سمي كتابه الشهير بـ « الجبر والمقابلة»، وهو كتاب يعد أول تجربة ناجحة فى فصل الجبر عن الحساب واعتباره علما قائما بذاته. ونذكر كذلك، بأن الخوارزمى هو أول من عمل جيبا حاول أن يوفق فيه بين الطرق اليونانية والطرق الهندية فى الحسابات الفلكية[2] .

مفكروا الإسلام هم الذين أدخلوا أيضا فى الرياضيات نظام المنازل ، والسلم العشرى والصفر . أخذ الغرب الأرقام التسعة من العرب وسموها « الأرقام العربية ». وإن أقدم نص عربى يذكر (الصفر) ويصف الأرقام هى صفحات جاءت فى كتاب اليعقوبى (سنة 269هـ، 872م): «... وإذا خلا بيت منها يجعل فيه صفر، ويكون الصفر دارة صغيرة »(ص.84) [3] .

* * *

(1) Diophante : رياضى يونانى الأصل ازداد بالإسكندرية حوالى 250 م. إليه ينسب اختراع علم الجبر .

(2) للخوارزمى كتاب آخر : (صورة الأرض) يصحح فيه أخطاء بطليموس فى الجغرافية .

(3) انظر : فى هذا الصدد ، دراسة الأستاذ أحمد سليم سعيدان ، فى مجلة

هذه وقائع تاريخية لن يستطيع نكرانها أحد . فعندما نسلم بها ، يلزمنا أن نسأل : هل تعد تلك المساهمة « علما » والذين قاموا بها « علماء »، أم لا؟ فالذى يشارك فى العلم لا بد له من فكر قادر على « التحاليل » (لا الذراتية)، وعلى التركيب لاختبار ما يصل إليه بالتحليلات !

لقد كان من الضرورى على العلماء المسلمين أن ينقلوا إلى ميادين التركيب ما وصلوا إليه بالفكر « الذراتى »، لأن المرأ لا يصبح « عالما » إلا إذا أظهر القدرة على إدماج ملاحظاته واكتشافاته فى مجموع نظرى متناسق من المعلومات ولا « نظرية » دون إمكانية الانتقال من التحليل إلى التركيب ، والعودة من التركيب إلى التحليل .

أليس البرهان الجبرى نموذجا للبرهنة المنطقية المستوفية لكل شروط العقلانية (المعادية ، طبعا للذراتية) ؟

أيجوز أن يعتقد عالم معاصر أن محمد البيرونى (٣٦٢ - ٩٧٣/٤٤٠ - ١٠٤٨) الطبيب الفلكى الرياضى استطاع أن يحلل المتواليات العددية دون أن يكون ، قبل ذلك ، قد كون نظرة تركيبية عن مجموع المعارف الرياضية على عهده ؟

الأبحاث (بيروت ج 4 ، سنة 1962 ، ص 471 و 472) . إن الأستاذ الباحث يصرح بأنه يكاد يجزم « أن العرب أخذوا الترقيم الهندى فى وقت كان أمر الصفر فيه غير غريب عنهم » ، ثم يضيف : « خلاصة القول أن الأرقام الهندية سامية الأصل ، استعملت فى الهند واستعملت فى خط التجارة البحرية بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط » .

البيرونى أول من وضح أن نصف القطر وحدة ، وأعطى الجيوب النسب التى مازالت مستعملة إلى اليوم .

يقول (كانط) : « إن كل منطوق حسابى لا يعطى إلا صيغة تركيبية » فلو أن الفكر الإسلامى كان « ذراتيا » مصابا بعمى فى كل ما يتصل بالتركيب كما يدعيه (جيب) ، لما احتفظ تاريخ العلم بأسماء لامعة مثل الخوارزمى وأبى الوفاء ، اللذين عملا على تقدم المثلثات . . وجابر بن أفلح الذى أصلح « المجسطى » لبطليموس ، والأدريسى (٤٩٣ — ٥٦٠ / ١١٠٠ — ١١٦٥) الذى أبدع الجغرافية الرياضية . . .

* * *

لا نريد هنا أن نعطى عرضا لتاريخ العلم عند المسلمين ، فهذا ليس من أغراضنا ، وإنما ضربنا أمثلة على موضوعية ومنهجية الفكر الإسلامى لنرسلها حجة لامعة على أسطورة « الذراتية » والعجز عن عمليات التركيب .

* * *

يبدأ العلم عندما الحجة تنادى ما — ضد — الحجة . فالتركيب ، كما يعرفه (كانط) ، ضرورى لنتمكن من قراءة التجربة .

لكن ، إذا كانت التجربة قراءة ، قراءة تفهمية ، وجب أن تشمل ، فى آن واحد ، الكل والأجزاء . فالذى لا يحسن إلا تهجى الكلمات منعزلة كل واحدة عن الباقى ، لن يستطيع ، أبداً ، أن يفهم النص المكتوب . ومن جهة أخرى ، إن فهم النص المكتوب يتوقف على فهم سابق للألفاظ التى يتكون منها . فالمؤرخ يضع مشاكل ويحاول بناء وتلفيق الأحداث ، ثم يقدمها كمعرفة تقريبية (لأنه توجد ، بين الواقع وما يحكى عنه ،

ثغرات : من ضياع الوثائق ، أو تدخل الذاتية ، والتزوير فى الشهادة . .) ، وعلى العكس من المؤرخ ، إن العالم لا يضع مفاهيم مكان « ما ـ قد ـ وقع » ، بل يلاحظ « ما ـ يقع فعليا » : يلاحظ المعطيات الحاضرة ، ويشاهدها الواحدة تلو الأخرى ، فيحللها ، ثم يقارنها مع ما كانت عليه ، فى نظرة عامة ، تركيبية .

* * *

من هنا نرى إلى أى حد ، أن نظريات الأستاذ (جيب) ، ونظريات بعض الغربيين غير واقعية وغير موضوعية ، خصوصاً إذا تعدت ميدان الملاحظة إلى ميدان أحكام القيمة .

لا يكتفى الأستاذ (جيب) بمحاولة « إثبات » الذراتية العربية الإسلامية ، بل يضيف بأن « الطريقة التحليلية حديثة العهد فى عالم الفكر الإسلامي . فمن العسير عليه أن يتحرر من سيطرة الذراتية العتيقة . . . » (ص ٩١) . فلا أمل لنا ، إذن ، فى الإلتحاق بالنوع الإنسانى ، بل سنبقى جنسا من الحيوانات بين الجنس البشرى وجنس القردة ! . . . قضى الأمر !

جف القلم !

* * *

نجد شيئاً يشبه « السيطرة » المذكورة كذلك فى كتاب السيد (جورج دوهاميل) وقد تحولت إلى عدم مقدرة وعاهة من عاهات الفكر الشرقى . فلننظر إلى السيد (دوهاميل) وهو يرتب أنواع الفكر البشرى :

إن شعوب الشرق تظهر جليا ، بواسطة موسيقاها الأحدية النغمة ، عدم كفاءتها على متابعة أكثر من نغم ، فى آن واحد ، وبالتالى عدم كفاءتها على

متابعة أكثر من فكرة فى آن واحد ، فى حين أن شعوب الغرب يقدرون على أن يفهموا وأن يتذوقوا أفكارا كثيرة ، وأنغاما كثيرة ، وجوانب مختلفة تجمع وتقدم طبقا لقوانين الهارمونية » (ص ٣٦) .

فمعنى هذا الحكم ؟

يدعى الأكاديمي المحترم ،

أولا : أن الذوق الفنى ، فى الموسيقى على الخصوص ، منعدم ، أو مصاب بعطب لدى الشعوب الشرقية .

ثانياً : أن هذا العطب ناجم عن عاهة ذهنية الشرقيين (أو أن العطب والعاهة متصاحبتان متلازمتان) .

لاشك أن السيد (دوهاميل) كان ضحية لبعض الغموض والالتباس ، مما ينزلق بالقراء إلى تأويل حكمه تأويلا عنصريا :(1) مجمل كلام الدكتور (دوهيل) أن للغرب ميزة لاتقاس ، وهى الثروة الهائلة من الذوق والفكر ، ثروة خاصة بالغربيين ، دون سواهم . فليس على الشرق إلا أن يقنع بما قسم الله له . تحمل طبعاً ، مثل هذه الأحكام فى طيها ، ضمنيا ، أنه لاحرج على الغرب إذا استعمل السلاح دفاعا عن حضارة الذوق السليم والفكر الخصب ، التى هى ملك للغرب وللغرب وحده . . فلنصح ، إذن ، مع (رينان) مرة أخرى : « إن المستقبل لأوروبا ، ولأوربا وحدها ! » وليقل للباقى من الشعوب : « موتوا بغيظكم ! »

* * *

(1) رغم تصريحه ، فى نفس الصفحة : « أن الفرنسيين يشمئزون وينفرون ، طبيعيا ، من كل خلط يمكنه أن يؤدى إلى الغموض » ص 36 .

إذا قارنا بين هذه الاستنباطات العجيبة والأحكام القطعيـة التى يصدرها بعض المحدثين من رجالات الغرب وبين ما كتبه بعض قدماء مفكرى الإسلام عن مفـكرين أجانب عنهم جنساً ، ودينا ، ولغة ، أكبرنا الإنصاف والتسامح . فلنتمعن هذه السطور التى كتبها ابن رشد عن أرسطو. إنها اعتراف وإعجاب بـ « المعلم الأول»، فلا نرجيسية ، ولا عنصرية ، ولاصليبية ، وإنما الحق فوق كل اعتبار . يقول ابن رشد ، فى مقدمة الطبيعة :

«مؤلف هذا الـكتاب هو أرسطو (...) واضع المنطق والعلم الطبيعي وما بعد الطبيعـة . أقول : إنه مرتب تلك العلوم ومقرر قواعدها ، لأنه لاقيمة لمـا كتب عنها قبله . فهو أول من رتب مسائلها ، وأحسن بسطها ، حتى فاق من تقدمه . وأقول : أنه متمم هذه العلوم ، لأن كل الذين جاؤا بعده أخذوا بمـا ذهب إليه ، واتبعوا فى هـذه المسائل رأيه ، من غير أن يزيدوا عليها شيئـاً أو يجدوا فيها غلطاً . فمن العجب أن يجتمع ذلك كله لإنسان واحد . فهـذا الرجل العجيب جدير ، بما جمـع الله فيه من الحـكمة ، بأن يسمى الرجل الإلهى »(31) .

* * *

إننا لا ننـكر مطلقا ، أن مناهج البحث تختلف من عصر لآخر ، ومن علم لآخر . ولـكن هناك أسسا لا تتغير ، بدونها ما كان بحث ، ولا منهج ،

---

(1) نقلا عن . . (رينان) ! فى كتابه (ابن رشد الرشدية) ، الطبعة السابعة ، ص 55 .

ولا علم : مثل تلازم التحليل والتركيب فى تكاملية تامة ، والتوجيه الشمولى للبحث العلمى .. حقا ، تطرأ على المنهجية تغيرات تبعا لتغيرات المفاهيم والأدوات والمخابر ومختلف الوسائل التى هى فى تطور دائم ، مما يطور البحث ذاته. إنه لخطأ علمى الاعتقاد بأن التفكير يسير على منهج واحد قار . بيد أن أول ما يطلب من العالم هو أن ينظر إلى عناصر أى مشكل فى فردية كل عنصر ، وفى تلاحمه داخل المجموع (وليسم هذا بـ « الذراتية » من شاء !) فالعالم ملزم بعملية مزدوجة أساسية .

فى البداية ، كان موضوع الرياضيات ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، هو الحساب والهندسة . أما اليوم فقد اتسع هذا الموضوع وأصبحت الرياضيات تشمل مجموعة من البنيات ، فاضطر الحساب إلى أن يغير أسلوبه عندما يريد تحديد خاصيات مجموعة رياضية ما .

فلو أتيح لكبار رياضيي العصر الوسيط (من الشرق ومن الغرب) أن يبعثوا اليوم ، لفتحوا أعينهم أكثر من النافذة مفاجأة أمام أسلوب الرياضيات المعاصرة ، ولا اعترفوا بجهلهم لنظام البنيات الترتيبية من نوع (س ⩽ ى) مثلا ، ولبقوا مشدوهين أمام نظام بنيات العلاقات التعادلية ، والبنيات الجبرية، والبنية الطوبوغرافية . ورغم هذا « الجهل » الصريح ، لن يستطيع أحد أن ينكر فضل أولائك الوافدين من القرون الوسطى على تقدم الرياضيات . إن الأكسيوماتيكا (1) المعاصرة ليست فى متناول جميع المثقفين، ولو كانوا غربيين

---

(1) (Axiomatique) : دراسة تحليلية تسبق العرض المنطقى (لفرع من فروع الرياضيات)، وترمى إلى أن تحدد ، تحديدا دقيقا ، المسلمات والمصادرات ، =

من دم آرى صرف . فالقضية قضية اطلاع ، وتعلم ، لا علاقة لها بالجنس ، أو الدين ، أو اللغة .

* * *

فلننظر الآن إلى تصريح الأستاذ (جيب) عن التفكير العربى ـ الإسلامى الذى لا يتسم بـ « التمييز والوضوح » . إنه تصريح يظهر أنه انتقاد ، وقد قصده كذلك صاحبه ، ونحن نعتبره ، على العكس ، مدحا وتقديرا . ذلك أن التمييز والوضوح ليسا من لوازم النتائج العلمية الصائبة والأفكار النيرة ، بل إن التجربة الوضعية الحسية هى التى تكون فى مستوى التمييز والوضوح . فعندما طالب (ديكارت) بأن تكون المعانى « متميزة واضحة » ، نظر إلى القضية من جهة المنهج ، لا من جانب المحتوى ، على أن (ديكارت) قد طالب بذلك انتقادا منه لأساليب البحث والتدريس المتبعة فى عصره (بأوروبا !) ، وقبل زمانه ، عند المدرسيين (الغربيين ، المسيحيين ، الآريين !) . لقد كانوا ، على مايظهر ، منغمسين فى « الذراتية » أو فى شىء من هذا القبيل، كالبيزانطينيات. فحاول (ديكارت) إنقاذهم . فهو لم يفكر ، مطلقا ، فى شعوب الشرق عامة ، وشعوب العروبة والإسلام خاصة ، عندما وضع تأليفه الخالد « حديث المنهج » .

* * *

= أى كل الفروض الأولية (وهى قضايا غير بديهية ولا يبرهن عليها ، ومع ذلك يسلم بها كأساس للاستدلال فى المسائل النظرية والعلمية) .

وتهمة أخرى ، الثالثة ، وليست الأخيرة :

يدعى الأستاذ (جيب) أن الفكر العربى الإسلامى يرفض الحتمية العلمية، رفضاً مطلقاً .

إن الواقع ، هو أيضاً ، « يرفض » هذه القولة رفضاً باتاً . فالحتمية العلمية مبدأ يثبت : أن بين الظاهرات علاقات ضرورية ، بحيث أن وجود أية ظاهرة مقيد بالظاهرات التى سبقتها أو بالظاهرات المصاحبة لها . إذا كان هذا هو التعريف العلمى للحتمية العلمية ، يصعب ، ويستغرب نكران وجوده فى التفكير الإسلامى. أو لم يؤسس العقل العربى — الإسلامى الأدراج الرحبة التى تسلقها « علم الصناعة » كما يسمى علم « الكيمياء » ، وكذلك « التنجيم » كما يغدو علم « الفلك » ؟ إن الكيمياء و « الفلك » يعتمدان على قوانين ، والتفكير فى « القانون » (أى فى القواعد المطردة) ، هو التفكير الضرورى فى الحتمية العلمية ! أيتهم الفكر العربى — الإسلامى بـ « اللاحتيمية » ، وهو الفكر الذى ساهم ، أيما إسهام ، فى نقل التفكير العلمى الإنسانى من الرياضيات الفيثاغورية النظرية ، ومن الماهيات الأفلاطونية ، إلى الجبر العلمى ؟

* * *

لقد تعرف الأطباء المسلمون على الحتمية العلمية . فالتشخيص الطبى ، يدرس الأعراض ، أى يحدد علاقات المسببات بالأسباب ، أى بالعوامل السابقة أو المصاحبة التى نشأت عنها الظاهرة المرضية الحاضرة : علاقات المشروط بالشروط . فهل يتصور أن الأطباء المسلمين ، ومنهم من كانوا أساتذة الشرق والغرب فى هذا المضمار ، خلال قرون ، جهلوا الحتمية ؟ . فلنتأمل كيف يحدد ابن سينا

الطب : إنه العلم الذى بواسطته نعرف حالات الجسم البشرى ، وبواسطته نحفظه فى صحة جيدة . فإن كان كل علم مُلْزَمًا بأن يعرف أسباب المواضيع التى يهتم بها ، فإن الطب ملزم ، هو كذلك ، بأن يعرف أسباب المرض والعافية .

إن كتاب « قانون فى الطب » لابن سينا ، ككتاب « الكليات » لابن رشد ، موسوعتان تعطيان نظرة عامة عن أصول الطب ، إنهما نموذجان مما أحسن إبداعه الفكر الإنسانى المؤمن بالحتمية[1] .

* * *

ففى القرن الثالث عشر الميلادى ، قام أحد الأطباء العرب الدمشقيين (ابن النفيس) بدراسات علمية اهتدى بها إلى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية . ويوجد وصف دقيق لهذا الاكتشاف فى الشرح الذى وضعه ابن النفيس للجزء الخاص بالتشريح من كتاب ابن سينا « قانون فى الطب » .

فى 23 ديسمبر سنة 1453 ، تقدم الدكتور (هيربان Herbin لأكاديمية الطب بباريز بمذكرة أكد فيها أن ابن النفيس قد قام باكتشافه العظيم ثلاثة

---

(1) تقدم فى باريز ، فى عام 1953 ، طالب سورى بأطروحة لنيل الدكتوراة فى الطب ، عن موضوع يهم بحثنا : (الدورة الدموية الرئوية) أو (الدورة الصغرى).

وقبل هذا الدفاع بثلاثين سنة ، كان باحث آخر قد قدم أطروحة ، فى نفس الموضوع ببرلين (راجع :

Max Meyerohf, in Bull. de l'Inst. d'Egypte, T. 16, le Paris p. 1933.

قرون قبل العالم الإسبانى (ميغيل سيرفيتو Serveto) . الذى أحرق بجنيف سنة 1553 .

* * *

آمن مفكرو الإسلام بالحتمية العلمية ، ومارسوا «التحليل» و «التركيب» ، إذ ليس فى ذلك ما يناقض دينهم ، بل إن الإسلام يحضهم على ذلك، كما يوضحه ابن رشد فى صفحات نختار منها ما يلى :

« إن كان فعل الفلسفة ليس سيئاً أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، أعنى من جهة ما هى مصنوعات ، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها . وإنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم ، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك ، فبين أن ما يدل عليه هذا الإسم إما واجب بالشرع وإما مندوب إليه .

فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بين فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، مثل قوله : (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وهذا نص على وجوب القياس العقلى ، أو العقلى والشرعى معاً . ومثل قوله تعالى : (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) ، وهذا نص بالحث على النظر فى جميع الموجودات . وَأعلَمَ تعالى أن ممن خصه الله بهذا العلم وشرفه إبراهيم عليه السلام ، فقال تعالى : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية . وقال تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت) . وقال : (الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض) ، إلى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كثرة .

وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى . وبين أن هذا النحو من النظر الذى دعا إليه الشرع وحث عليه، هو أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس ، وهو المسمى برهاناً .

وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته ، بالبرهان ، وكان من الأفضل أو الأمر الضرورى لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البرهان وشروطها »[1] .

---

(1) فصل المقال ، وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال . الجزائر . 1948. — ص.1— 2.

الحديث الثامن عشر

الشرق كما يراه الغرب

نستأنف تحليلنا لنظريات غربية عن الدهنية العربيـة الإسلامية ، تـكملة للحديث السابق .

* * *

لقد عرضنا آراء الأستاذ (جيب) ، كل رأى على حدة ، فاستخلصنا أنها تتجه اتجاهاً منحرفاً عن الواقع . أما الآن ، فلننظر إليها كمجموعة منسـقة داخل نظرية عامة .

يقول العلامة البريطانى (جيب) بأن الفـكر الإسلامى لا يحسن إلا عمليات التحليل (تحليل « ذراتى ») . فلنفترض أن ذلك حق لا ريب فيه ، فما هى النتيجة ؟

إن اعتبرنا التحليل فى شكله البسيط ، الأولى ، أى الاسـتقراء الصورى ، لا بد أننا منتهون إلى الاستقراء التوسعى الذى هو عملية تعميم ، نعنى عملية تعارض تماماً « الذراتية » .

ومن جانب ثان ، إن الاستقراء ، كطريقة للبحث ، لا يستطيع الصعود من الظاهرات والأحداث إلى القوانين دون أن يعتمد على الإيمان بالحتمية . وقد كاد أن يحصل إجماع المناطقة حول هذه النقطة .

فلنعد إلى المثال الذى أعطيناه سابقاً : اكتشاف الدورة الدموية الرئوية . إن هذا الحدث لم يصبح اكتشافاً حقاً إلا لأن ابن النفيس كان يحسن الاستنتاج ، أى الانتقال من المبادىء إلى النتائج .

يمكننا أن نلخص عمليات الاكتشاف ، من الجانب المنطقى ، فى التخطيط الآتى :

بدأ ابن النفيس (فى المرحلة الفعلية) بالتحليل ، فاضطر أن ينتقل من شروط إلى شروط حتى العنصر الفكرى الذى هو السبب المباشر فى وجود المعطى للتحليل . فعند هذا المستوى ، اضطر العالم الدمشقى إلى أن يضع فروضاً .

المرحلة الثانية : قام ابن النفيس بحركة معاكسة للأولى ، نعنى أنه أعاد العملية من آخرها ليصل إلى أولها أى أنه رجع إلى المعطى الأول علّه يقوم باختيار النتائج ، وتلك عملية تركيب . ثم عمم النتائج ، أى استخلص قوانين (والقانون العلمى هو التعبير عن خاصية وقعت عليه المراقبة بكيفية دقيقة) .

هكذا وصل ابن النفيس ، بعد المرحلتين الصاعدة والنازلة ، إلى تحديد مبادىء سيرورة الدورة الدموية الرئوية .

وهل ذلك سوى الحتمية العلمية ؟

* * *

فعلى هذا ، كان ابن النفيس يعرف «التركيب» ويتقن استعماله. فاكتشاف الدورة الدموية استلزم منه ، ضروريا ، معرفة تامة بنظام وتسلسل المعطيات ، فاضطر أن يلاحظ كيف يخضع كل عنصر إلى العناصر الأخرى ، وإلى أى مدى يؤثر تحرك ذلك العنصر فى تحرك بعض العناصر أو كلها ، وإلى أى مدى يعوقها عن الحركة . وبهذه الوسيلة استطاع العالم العربى أن يترقب ويراقب الظاهرات ويصفها ، ويفسرها . فلولا اعتقاده الجزمى بالحتمية العلمية (وهى ، لزوما ، تحليل وتركيب معا) لما نجح فى أبحاثه .

نعم ، كان ابن النفيس يومن بالحتمية ،ويومن بضرورة التركيب ، بقدر ما كان يؤمن بضرورة التحليل، مما يفند ما زعمه ـ قبل الأستاذ (جيب) ،العالم الأمريكي (بلاك مكدونال) من أن « حاسة القانون العلمي » منعدمة لدى الفكر الإسلامي[1] .

تقتضي محاولتنا الفهم ،ثم الإيضاح ، جهدا تفكيريا يعتمد على البرهنة ،أي على الاستنتاج الذي هو عملية ذهنية تصعد من مبدإ إلى نتائجه . على أن الاستنتاج ، بدوره ، يستلزم الاستقراء ، وهي علمية تنتقل من قضايا خاصة إلى قضية كلية ، وبعبارة أخرى ، إن الاستنتاج عملية تخولنا أن نتجاوز مشاهدة الظاهرات إلى معرفة القوانين . وهل « معرفة القوانين » إلا الاقتناع بالحتمية العلمية ؟

إن استعمال مبدإ الاستقراء ، إذن، إقرار لمبدإ الحتمية. فكل «اكتشاف» لا يفسر ، ليس اكتشافا علميا ، وإنما هو مصادفة .

للعلم قوانين : إنه يرمي إلى إزاحة الحجاب عن الضرورة التي تخضع لها الظاهرات وتجعل كل حدث معقولا .

* * *

بمقتضى ما تقدم ، لايخامرنا شك في أن تفكير ابن النفيس تفكير تركيبي يفرض، مسبقا ،وجود الحتمية . فلولا ذلك لما أمكن أن ينسب إليه بعض

---

(1) D. B. Macdomafd, the Religions and Life in Islam (1906)

مؤرخي العلوم الغربيين اكتشاف الدورة الدموية الرئوية وأن يلقبوه بـ « بيك دولا ميراندول » الشرقي[1] .

تحدث ابن النفيس عن الدم ، ثم بعد شرح علمي ضاف ، انتقل إلى نتيجة بحثه وهي « أن الدم ، بعد أن يمر بعملية التصفية ، يجب أن يمر ، ضروريا ، بالشريان الرئوي إلى أن يصل إلى الرئة . . . »[2] هـذه العبارة وحدها تفصح أننا أمام حدث جديد في تاريخ العلوم : « فثلاثة قرون قبل العلماء الأوروبيين، استطاع طبيب عربي ، في القرن الثالث عشر الميلادي، أن يتصور نظرية عن الدورة الدموية الرئوية ليست بعيـدة عن الحقيقة[3] » . ويزيد البحاثة الألماني (ماكس ميرهوف) قائلا بأن فضل ابن النفيس يتجسم في جرأته العلمية التي دفعته لأن يحارب ، وحده خـلال العصر الوسيط كلـه ، فـكرة من الأفـكار المغلوطة الموروثة عن جالينوس وعن ابن سينا ، وهما العمدتان في المعارف الطبية، طول تلك القرون » (نفس المصدر ، نفس ص) .

أبعد تجارب علمية موضوعية ، مثل تجربة ابن النفيس ، يبقى مجال لما يدعيه

---

(1) عالم ومفـكر إيطالي ، ازداد بقرب (موديل) . أظهر ، منذ صباه ، نبوغا مفرطا . إن جرأة نظرياته اللاهوتية والفلسفية مشهورة . مات مسموما من طرف كاتبه ، سنة 1464 . كان يشاع أن بامكانه أن يناقش أي إنسان ، في أي موضوع من مواضيع المعرفة .

(2) ماكس ميير هوف ، مختارات من أعمال ابن النفيس ، (المصدر المذكور في الحديث السابق) ص 40 .

(3) نفس المصدر ، ص 42 .

المستشرق البريطانى الكبير، أن من ميزات العقل الإسلامى كون المنهج التحليلى ليس أصيلا فيه، وإنما ينتقل إليه عن طريق احتكاك سطحى ؟ ص148 فمحاولات المجددين المسلمين، إن هى إلا تناقضات ناتجة عن « حشر منهج تحليلى خارجى فى بنية عقلية ألفت الذراتية »، وليست محاولات لإبراز نتاج حتمى خاص بالتفكير الإسلامى (نفس المصدر ص ٩١).

* * *

لن يستطيع أحد أن ينكر أن الذهنيات تختلف من شعب لآخر، ولكنه لن يقدر أحد أن يثبت أن تلك الاختلافات أصلية، نوعية، سلالية.

حقاً، إن الذهنيات متغايرة، ولكنه تباين من حيث المستويات لا من حيث الطبيعة. هذا ما تؤكده الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة، خلافاً لنظرية (رينان) وخلفائه التى تصل بنا إلى هذه النتيجة : إن الفكر الأوروبى (او الآرى، على أصح تعبير) كان، وما زال، الفكر الوحيـد القادر على فعاليات الإبداع والاكتشاف. فمثلا، غالباً ما يتحدث الناس عن الفلسفة العربية، لكن، فى رأى (رينان)، تلك عبارة لا تعكس أى واقع تاريخى، لأن الفلسفة العربية : « ليست إلا اقتباسات عن الإغريق، ولم تكن لها مطلقاً جذور فى شبه الجزيرة العربية. إن تلك الفلسفة كتبت باللغة العربية، وهذا كل ما فى الأمر، لا أكثر »[5].

إن أمثال هذه المزاعم تتزاحم فى مؤلفات (رينان): يكفى وضع بعض الآراء كمسلمات، وتزويقها بالأسحاق، وصبها فى قالب الجدية والموضوعية ليستنتج منها واضعها ما يوده!.

* * *

---

(1) رونان، التاريخ العام ... ص 10

« انعدام » الخيال عند العرب

من حلبة العلوم التجريبية ، ننتقل إلى ميدان الآداب .

يدعى (رونان) أن الشعوب السامية تمتاز بـ « انعدام تام لقدرة التخيل » ، وبالتالى بـ « انعدام كل قابلية على الخيال المبدع »[1] .

لو صدر هذا التصريح عن باحث غير (رونان) لحملناه على أنه غفلة من صاحبه ، أو على عدم اطلاع كاف ، أما وأنه من كلام العالم الكبير ، (رونان) ، فإن الأمر يبعث على الحيرة . فـ (رونان) عالم بشئون الساميين ، ويعرف أكثر من غيره أن النزعة الرومانطيقية عريقة فى الآداب السامية ، وأن « ألف ليلة وليلة » ، و « المقامات » ، وأدب الكدية ، وبطولات عنترة ابن شداد ، وقصة دليلة المحتالة وابنتها زينب النصابة ، ... آثار فنية تشهد بخصب الخيال العربى . كما أن النرد والشطرنج (لعبتين أدخلهما العرب إلى أوروبا) لدليل آخر ينم على مخيلة خلاقة[2] . بعكس ما دعاه (رونان) ، يؤكد (جيب) أنه : « عندما ندرس الحضارة العربية ، كثيراً ما تلفت نظرنا قدرة التخيل القوية المتأصلة فى بعض فروع الأدب العربى ... »[3]

* * *

---

(1) نفس المصدر ، ص 11 .

(2) يمكننا أن نضيف أمثلة أخرى كثيرة ، منها : قصة سيف بن ذى يزن وأبى زيد الهلالى ، وهى قصة شعبية مليئة بالمغامرات ، وقصة المهلهل بن ربيعة الذى صرع الأسد بضربة واحدة !، وقصة حمزة البهلوان ، وقصة « حى بن يقظان » الفلسفية ...

(3) نفس المصدر السابق . لكننا نجد (فى ص 148 من نفس الكتاب) =

أصدر الأستاذ (شارل بيلا) ، كتاباً عن تاريخ الآداب العربية[9] يصرح فيه بأن الفكر العـــــــربى مصاب بنزعة فطرية إلى معاداة لكل تجديد (misonéisme) ومصاب باللاموضوعية التى يمتاز بها الفكر البـدائى (ص 215) .

ثم يضيف الأستاذ (بيلا) أن العرب عاجزون ، أكبر العجز ، عن التكيف مع التطور ، وذلك راجع إلى فردانيتهم وفقر مخيلتهم !

فإلى أى حد يمكن قبول تلك الآراء ؟

* * *

إن العرب ، بالرغم من « فقر مخيلتهم » ، قد أعطوا للآداب العالمية « ألف ليلة وليلة » التى أثرت فى المخيلة الغربيـــــة ، وعلى الخصوص فى الاتجاهات الرومانطيقية . فالشاعر الإنجليزى (كولريدج) كان يقرأ « ألف ليلة وليلة » ويعيد قراءتها كل حياته ، إنه كما يقول عن نفسه ، قد أعجب بذلك الكتاب وجعل منه تغذية لروحه . نعم ، بفضل « ألف ليلة وليلة » اكتسب (كولريدج) قدرة خولت جميع إمكانياته من التفتح ، وأغنت صميمته بالعواطف الرقيقة وأشبعت ظمأه إلى المطلق ، وإلى الحنان ، وإلى الاطمئنان الفكرى [10] .

* * *

جواباً على تصريح المستشرق الكبير (بيلا) ، نروى هنا رأى عالم آخر كبير

= عبارة تعديل ما يصرح به هنا المؤلف ، حيث يتحدث عن « الخاصية الذاتية فى قدرة التخيل لدى العرب » فكأنه يؤكد ادعاء (رونان) فى هذا الصدد .

(9) Langue et littérature, Paris, Colin, 1952 .

(10) راجع ، ص 8 D, Hargest, Coleridge, Pasis, Aubrer,

له دراية واسعة عن الثقافة العربية الإسلامية ، هو العميد جميل صليبا . إذا كان هناك صنف أبدع فيه دائماً المؤلفون العرب ، أيما إبداع ،فهو ميدان التصور الحسى والرمزى ، والتخيلى : « إن جميع العرب شعراء ، ويستعملون الصور الشعرية فى أحاديثهم »(11)، ثم ينتقل الأستاذ صليبا إلى دراسة التشابيه الشعرية والرموز التى تنطبع بها الذهنية العربية : إن استعمال التشابيه يرمى إلى إشباع حاجة ملحة عميقة فى الروح العربية .فخصوبة الرموز وكثرتها ، فى الأمثال والقصص ذات المغزى الأخلاقى ، وفى الأساطير الفلسفية ، ... أكبر دليل على ذلك . إن التنبؤ بالغيب والنبوة عند الساميين تتوجه نحو قدرة التخيل لدى جمهرة الشعب .فليكتف من شاء بقراءة التوراة والإنجيل والقرآن ليتيقن من صحة ما جاء فى عرض العميد جميل صليبا . ففى كل كتب الساميين المقدسة توجد رموز ومواعظ مكيفة ، غاية التكييف ، مع حاجيات المخاطبين : فالرموز التى يأتى بها نبى من الأنبياء تصدر عن حدسه : يراها وينشرها بعد أن تتأثر بالحياة المجتمعية ، فتفعل فعلة شديدة فى مخيلة الجمهور .

* * *

إن الأصل ، أو السلالة ، يلعب دورا ثانويا ، وبأصح عبارة ، لا يلعب أى دور ، على صعيد الثقافة : فأبو عمرو عثمان الجاحظ ، بالرغم من أصله غير العربى(12)، يعد فى طليعة كبار الكتاب العرب ، لأنه كان عربى التكوين ، كما كانت عربية اللغة التى اتخذها أداة التفكير والتواصل .

---

(11) انظر جميل صليبا ، مجلة Diogéne ، عدد 10 ، (1955) ، ص98 .

(12) هذا ما يرجحه الكثيرون (انظر مثلا : ابن الأنبارى ، نزهة الألباء فى طبقة الأدبا ، 254 . — المرتضى ، أمالى ، ج . ا . ص 194 — ياقوت، معجم=

وبما أن الأستاذ (شارل بيلا) حجة في الجاحظ والجاحظية ، يسوغ لنا أن نسأله : هل حقيقة أن ذلك الكاتب العربي ، هو أيضاً ، كان من مستوى ابتدائي في تفكيره ومصاباً بعدم الكفاءة ، وعدم القدرة على التخيل؟[13] .

. . .

لقد نشر الأستاذ (بيلا) « كتاب التربيع والتدوير » للجاحظ ، في طبعة منقحة وبمراجعة علمية تستحق كامل التقدير[14] . فبعد أن لاحظ أن للجاحظ ، في هذا التأليف ، « شكا منهجياً » (doute méthodique) ، ارتأى أن يضيف : لو تم استعمال الطريقة المنهجية الجاحظية ، في الآداب العربية : لكان من الممكن أن تعطى خميرة لقدرة خلاقة خارقة للعادة [15] .

يجدر بنا أن نتساءل : لماذا لم يؤد « الشك المنهجي » الجاحظي ذلك الدور الهام المتوخى منه ؟ فلا يخلو ، إما لأنه شك منهجي غير كامل ، وإما لأن الفكر العربي لا يستسيغ التفكير المنهجي . ونخرج من الحيرة عندما نستمع للأستاذ (بيلا) يصرح : من اليقينيات أنه لو كان الجاحظ قد وضع الشك المنهجي « في أمة أقل تعلقاً بالعادات والأعراف والروتينيات من الأمة العربية » لكان خميرة وعي وإنتاج وتقدم[16] . نجد هنا ، من جديد ، ما يسميه الأستاذ (بيلا) بـ « عدم

= الأدباء ، ج 19 ، ص 74) . أما الأستاذ بيلا (ص 53 من أطروحته عن الجاحظ) باريز (1953) فيثبت أن أصل الجاحظ إفريقي ، أي أن أجداده زنجيون .

(13) عباره الأستاذ (بيلا) هي : « inaptitude primaire »

(14) دمشق ، 1955 .

(15) المقدمة ، ص 15

(16) راجع : نفس المصدر . نفس ص

قدرة العرب على التجـــــــــدد » ، هؤلاء العـرب الذين تتبرأ منهم عبقـرية الاختراع [17].

. . .

عندما صدرت طبعة الأستاذ (بيلا) لـكتاب « التربيع والتدوير » ، علق عليها الأستاذ (لوكونت) فى إحدى مجلات المستشرقين بباريز ، وأشار إلى الشك المنهجي الجاحظى . فحمد السيد (لوكونت) الله وسبح له ، لأن الأستاذ (بيلا) لم يندفع إلى مقارنة بين الشك المنهجى الجاحظى والشك المنهجى عند (ديكارت) ! فلو أن الأستاذ (بيلا) فعل لـكان ذلك منه (فى نظر الأستاذ لوكونت) تعسفا ومغالطة [18].

لماذا تعد المقارنة بين منهجين مسا بالواقع والحقيقة ؟ فليس فى ذلك مايمكن أن يحط من عظمة (ديكارت) أو يزكى قيمة الجاحظ . فالمقارنات طريقة خصبة وكثيرة الاستعمال فى تاريخ الحضارة الإنسانية . كاز بودنا لو أن زميلنا (لوكونت) تفضل فأعطى أسباب امتعاضه عن تلك المقارنة .

نحن لا ننازع فى معرفة الأستاذين (بيلا) و (لوكنت) الواسعة لشؤون الثقافة الإسلامية ، ونربأ بهما أن يظن أحد أى ظن بحسن نيتهما . فالغرض من هذه المناقشة هو إرادتنا أن نفهم كيف يتصوران التفكير العربى الإسلامى.

* * *

عقب التصريحات السابقة ، من أساتذة ممتازين ، نضع هذا السؤال :

كيف جاز للفـكر العربى الإسلامى أن يـكشف ، مثلا ، ميزان الضرب

---

(17) انظر كتابه : ص 219 Langue et littérature arabes

(18) G. Leconte, in Arabica, t 3 (lanvier 1956) P. 109.

(ميزان التسعة) ، ويؤسس علم حساب المثلثات ، وهو فكر غير قادر على الشك المنهجي وعلى الاختراع ؟ .

أحقا يعتبر عقيما من « عبقرية التخيل » ومن « عبقرية الاختراع » الفكر الذى نجح فى إدخال (لأول مرة فى تاريخ الحضارة) طريقة علم حساب المثلثات فى الفلك ، وهو « اختراع » لم يقم به لاقدماء اليونان ولا (بطليموس) ؟

* * *

كل المفكرين يسلمون بأنواع من المنطق جديدة غير كلاسيكية، ويعتبرونها علمية مثل المنطق النمطى (la logique modale) والمنطق الحدسى ، فمن الشطط والاعتباط أن نصف بـ « لامنطق » أو بـ « معاد للمنطق » أى تفكير لايخضع لمقاييس أرسطو أو لمنطق (بيكون) أو لمنهج (ديكارت) ! إن الشىء الأساسى الذى أصبح اليوم مكتسبا لحضارتنا ، هو الوحدة المنهجية بالنسبة لمجموع علوم الطبيعة . أما فيما يخص علوم الإنسان ، فقد تأكد أنه ، وإن اختلفت من بعض الجوانب تلتقى جميعا فى وحدة المرمى . إن تكاملها العميق يوحد بين فروعها ، بمجرد ما نتجاوز مرحلة إزالة الأنقاض .

* * *

يجدر أن نحدد نقطة أساسية .

إن المناقشات التى مرت بنا غالبا ما كانت تدور حول مناهج البحث عند مفكرى العصر الوسيط وعند الديكارتيين ، فقيمتها تنحصر ، إذن ، فى عصر ، وفى أمثلة خاصة اقتضاها موضوع هذه الأحاديث . فلم نشعر بحاجة إلى مناقشة آراء (رينان) و (جيب) وغيرهما على مستوى المنهجية الجديدة .

* * *

ومهما يكن من أمر ، نخرج مما سبق ، بأن أحكام (رينان) و(جيب) و (دوهاميل) وغيرهم ، مبنية على آراء فى أغلبها خاطئة ، لأنها تقوم على المبالغة فى النظرية التركيبية التى يمكن وصفها بأنها لاهوتية : لقد أسرفوا فى التعميم ، على حساب التحليل ، كما أنهم لم يوضحوا ، بصورة كافية ، المقاييس التى اعتمدوها للمقارنات والأحكام . فأجلى مايميزها هو نزعة ذاتية ، وبالتالى خاصة ، لاموضوعية ولا علمية . إنها مجرد آراء قبلية منحصرة فى نطاق محدود. فإذا افتقروا إلى البراهين المتينة ، لجأوا إلى الأساليب الخطابية التى يطغى فيها الرأى الشخصى على الحجة الموضوعية القاهرة . أجل ، لقد ظهر حاليا منهج خطابى علمى، تلخصه نظرية الجدل التى وضعها السيد (شال باريلمان) [19]. تتناول هذه النظرية دراسة وضعية ومنطقية لطرق البرهنة دون قبليات ، إطلاقا . غير أن واضع هذا المنهج لايزعم أنه يستطيع القضاء على الصبغة الشخصية للتفكير ، بل استنادا إلى الوسائل الراجحة ، يحول آراءنا غير الأكيدة إلى اقتناع وطيد . وعليه ، يمكن القول بأن المنهج الخطابى يختلف عن المنطق دون أن يناقضه ، إنه يتميز عنه « بكونه لايعالج الحقيقة المجردة ، المطلقة أو المفترضة ، وإنما يهتم بالاقتناع » .

* * *

إذا كانت النرجيسية الوطنية والثقافية تجر إلى العنصرية فإن الفكر « الثنائى » أو فكر المقابلات يهيىء الجو الصالح للنرجيسية[20].

---

(19) Voy. bh, Parelman « Prolémes de logique », in P' des Tribunaux, No. 4011 (1956), p p 272 — 4.

— De même : « Reflexions sur la justice » in R. de Socioloqlie, 2. (1915) p p 251 — 281.

(20) انظر : الحديث 16 .

نقصد بـ « فكر المقابلات » dichotomique النزعة التي تدفعنا لأن نعتقد (ونعمل على أن يعتقد الآخرون) بأن الحياة : إما خير وإما شر ، إما قبح وإما حسن ، . . ونستعمل ما فى وسعنا لنظن ، ويظن الجميع ،أننا نحن فى الجانب الذى فيه يخصب الحق والفضيلة والجمال . . . وغيرنا فى الجانب الآخر يسبح فى الباطل والرذيلة والنفاق . . . أى «هنا» كل شيء كما يجب أن يكون، «وهناك» كل شيء غير سوى... وإن (دوغوبينو) أصدق مثال لأصحاب فكر المقابلات. وللاقتناع بهذا يكفى أن تقرأ المدخل إلى كتابه « قصص آسيوية»[21] .

يعتقد (دوغوبينو) أن من الأخطاء المقيتة الشائعة ، القول بأن « الإنسان هو هو ، فى كل مكان ! » وليشرح المؤلف لماذا يرفض ، رفضاً باتا ، «الزعم» القائل بأن « أى إنسان يساوى أى إنسان آخر » ، يطلب منا أن نأخذ شخصاً أسود : يؤمن الأسود بأن من التقوى أن يقتل كل أجنبى يجده فى طريقه. فهذا القتل،فى اعتقاد الزنوج (على ما يدعيه دوغوبينو)عمل عادى،ومعقول،وأخلاقى. ولنأخذ عربياً : إنه لن يشعر براحة بال إلا بعد أن ينزع عن الأجنبى كل ما يملكه إلى آخر فرنك ! . ، بل وحتى القميص ينزعه عنه ! فلندمج الزنجي بالعربى ، فماذا تكون النتيجة ؟ إننا سنحصل على نتاج بشرى ساقط : فالزنجى سفاك للدماء ، والعربى سارق قطاع للطريق، كلاهما كائن حى ،ولكنه دون الكائن البشرى ! . . . فلنفرض الآن ، كما يطالبه منا (دوغوبينو) ، أن « زنجياً وعربياً

---

(21) Le Comte de gobineau, Nouvelles asiatiques. باريز ، سنة 1913 ، ص 4 .

سيجتمعان فى مؤتمر مع القديس (فانسا دوبول)[22] . فأى جامع مشترك بين هذه الطبائع الثلاثة ؟» (ص 5) . ويلح (دوغوبينو) كذلك بأن ندخل إلى المؤتمر أحد رجال الأخلاق ليلاحظ تلك الأصناف الثلاثة،الصنف البشرى وهو (فانسا دوبول) والصنفين الآخرين اللذين بين البشر واللابشر ، وهما (الزنجى والعربى) . بعد ذلك نطالب رجل الأخلاق بأن يعطى حكما «عادلا» عن إنسانية كل واحد من الأصناف الثلاثة !

إلى أية نتيجة سيصل ذلك الحاكم المنصف ؟

يجيب (دوغوبينو) بأن الحكم « لن يستطيع أبداً أن يدعى أن الناس هم هم فى كل مكان » كما ربما كان يظن من قبل (ص 6)

* * *

فى نظرية (دوغوبينو) أكثر من مغالطة :

نعم ، لن يجرؤ أحد فيؤكد أن الفضيلة لاتجعل من صاحبها إنساناً أصلح ممن لاأخلاق لهم . لكننا نتساءل: هل (دوغوبينو) تنقصه الاستقامة أو يعوزه المنطق أو إنما يتكلم بسوء نية عندما يختار ، للمقابلة ، القديس (فانسا دوبول)؟ فالقديسون نخبة النماذج البشرية ، لا أفراد عاديون . فمن العبث ضرب المثل بالقديس (فانسا دوبول) ، كأن مجموع الغربيين على شاكلته ، تعلقاً بالفضائل وتفانيا فى النسك والخير ! إننا لنأسف إذ سلوك الشرقيين والغربيين، على السواء ، ليس من طراز سلوك (فانسا دوبول) . فلو استطاع الغرب ألا يعطى إلا أشخاصاً

(22) Vincent de Paul راهب فرنسى (1581 - 1660) قضى حياته فى خدمة الفقراء والمرضى . يعد أبرز شخصية عرفتها المسيحية فى القرن السابع عشر .

من ذلك الطين الممتاز ، لا نعدم فيه الفقر والسجون ، ولما عرف الغرب ويلات الحروب العالمية . إذ ذاك فحسب ، يمكننا أن ندعى أن أرض الفساد وكل أنواع سقوط الأخلاق من المتاع الخاص بالزنوج والآسيويين ، ولآمنا وصدقنا بتصريحات (دوغوبينو) كأنها وحى أنزل من السماء ، ولأكد نامعه : أن الشرقيين لا يعون انحرافاتهم الأخلاقية والكذب المتأصل فى طبيعتهم ، الكذب الذى هو سيدهم المسيطر عليهم » (نفس المصدر ، ص 2) .

* * *

إذا كان لزاما علينا أن نلخص الحديثين الأخيرين (السابع عشر والثامن عشر) من هذا الكتاب ، فلن نزيد على هذه الجمل التلائل :

الأفكار المسبقة ، تلك هى العدو اللدود للشعوب ، وعدو الثقافات الوطنية ، وعدو الحضارة الإنسانية .

إن الأفكار المسبقة تجمد بثقلها الوعى والضمير . فلا مناص من ثقافة حق لتحقيق ذلك العبء ولفتح العيون على المطامح العميقة المشتركة بين مجموع الإنسانية ، وعلى المهام التى يجب على كل شعب أن يقوم بها ، بقطع النظر عن لون البشرة والجنس واللغة والطاقات التصنيعية .

الحديث التاسع عشر

ثقافة عالميـــة والتزام

يمكن تمييز ، بكيفية مجملة ، ثلاثة أشكال من الثقافة :

أولا : ثقافة ينتج عنها شعور قلق بعدم التكيف والعبث والدوار : يحس المثقف بعزلة عن زمانه وبيئته وبانفصال عن مصيره . فالاتجاه السريالي ، وفلسفة التمرد الميطافيزيقي ، والفن التجريدي كل ذلك يعطي صورة واضحة عن تلك الثقافة ، ثقافة اللامنتمي . إنها ثقافة تشل الفاعليات وتعطل سير الحياة .

ثانيا : ثقافة تغذي اتجاها فكريا أرستقراطيا : يؤمن المثقف بأن للفكر الأسبقية ، في كل شيء ، ولذا يعمل على أن يقنع غيره بأنه أسمى منه ، ويحاول أن يرغمه على أن يعترف بذلك الجاه والسمو . إن كل واحد من مثقفي هذه العينة يفكر طبقا لخطاطة يمكن تلخيصها هكذا : « إني مثقف ، إذن : أنا شخص خارق للعادة ، إذن : أنا فوق الجماهير ، إذن لاصلة بيني أنا وبين من هم دوني . . . » ربما رفع ، ذاك المثقف صوته أحيانا احتجاجا على مظالم ، ولكنه يفضل « أمته على العدل والعدالة »[1] فبالنسبة إليه ، الحقيقة والحق، والمعايير ، والفضائل ، تمتاز ، في مفاهيمها ، عما هي عند مجموع البشر . فالذاتية تنقلب نرجيسية ، وإن من النرجيسية مايعمي ويصم .

ثالثا : وأخيرا : الثقافة ، باعتبارها منبعا لالتزام واضح متحمس واع ، أي ثقافة مكافحة .

إن الثقافة المناضلة هي وحدها الثقافة الحق . أما ثقافة التظاهر والمظاهر ،

---

(1) تصريح لـ (ألبير كامو) أيام حرب الجزائر الاستعمارية . فهو فرنسي من مواليد وهران (الجزائر) و « تقدمي » في بعض ما كتبه، ولكنه يتنكر لمبادىء العدل والمساواة والأخوة عندما تعارض مصالح أمته وفرنسيي الجزائر !

ثقافة الارستقراطية الفكرية ، فمثلها كمثل حلى مزور ، عقد ذى أحجار مصطنعة . فلربما تفسخت مقومات الثقافة وانقلبت ضررا على « المثقفين » وخطرا على مجتمعهم . إن كل ثقافة لاترتفع إلى مستوى الإنسان ، الإنسان على وجه الشمول ، إنما هى هراء وعبث .

* * *

أول موقف يتخذه المثقف المكافح من أجل ثقافة ترمى إلى أنسنة العالم ، لصالح مجموع الإنسانية ، هو البحث عن الجدية والجديد ، والثورة ضد التقليد الأعمى ، وطبعا ضد النرجيسية . على هذا الموقف تتأسس ثقافة الشمول التى هى وحدها تحتوى على إمكانيات التجاوز حتى صف العبقرية . فكل ماهو عبقرى يقابل ، فى آن واحد ، النرجيسية والانطواء على الذاتية وعلى روح القطيع .

* * *

حقا ، إن العباقرة لاينبتون بطريقة مجانية وعفوية ، كما ينبت الفطر ، بل إنهم مرتبطون ، بتتابع وثيق ومحدود ، مع زمانهم . لكن ، إذا كان التكوين التلقائى يستحيل فى ميدان الفكر والمواهب ، فانه يوجد فى الفعاليات التى تصل إلى مستوى العبقرية ، وهى تجاوز ضرورى للماضى وللحاضر ، ولكل ماهو مبتذل . ويتحقق التجاوز من أجل أهداف جد بسيطة : إنه يهدف إلى الإسهام ، داخل كل الميادين ، فى أن يكتمل الآخرون وعيهم كذوات لها كرامة إنسانية معادية لكل استلاب .

على هذا الأساس ، تتخذ الثقافة مفهوما عميقا آخر : إنها تنقل من الوعى بالكرامة الذاتية إلى الاعتراف بكرامة كل إنسان ، بالتساوى ، وأن لكل

إنسان قابليات على التثقف والإبداع الثقافى . من هذا المنظار يعتبر عبقريا كل من المربى البيداغوجى ، مثل الأنبياء وقادات الحركات الكبرى ، وكذلك العالم المكتشف الذى ينتزع من الطبيعة أسرارها ، أو الشاعر الذى ينفخ فى الكلمات روحا جديدة ، أو النحات الذى يجعل المواد الخام تتفجر تعبيرا ، ويخلقها خلقا ، أو الكاتب الذى يجد طرقا للتواصل الإنسانى ... إن العبقرى يخلق، بفضل تأمله وخدماته وسلوكه ، مجالا شاسعا أمام ثقافته القومية، إذ يجعل من حياته محرضا لثقافة بلاده على أن تتفتح، وتسهم فى سير التراث الحضارى المشترك بين مجموع الشعوب ، هكذا يكون العبقرى الحضارة . إنه أحد صانعى المصير الإنسانى .

* * *

ألقى يوما (غيوم أبولينير) محاضرة تحت عنوان : « الفكر الجديد والشعراء » . ومما جاء فيها هذا التساؤل الساخر الذى يوجهه أقوام غفل إلى الشاعر : «أى فائدة فى البحث عن التجديد ؟ إنه لاجديد تحت الشمس !...» فيجيب الشاعر جوابا حادا وأكثر سخرية من السؤال: « لقد صوروا رأسى ، ورأيت ، أنا نفسى ، جمجمتى ، ومع ذلك يصوغ، ألا يعتبر هذا جديدا ؟[1] يالها من خرافة ! » .

إن صيحة (أبولينير) هى صيحة كل فنان أصيل وكل مفكر حقيق . فما يحياه عالم اليوم ليس مجرد اضطرابات عابرة ، ولكن حركات حبلى بالمستقبل تطبع الحاضر وتجعل منه تحولات أساسية فى الفكر الإنسانى وفى التقدم . هكذا يجد العبقرى نفسه مرتبطا ارتباطا متينا بحياة الجماهير الحالية ، كما يجد اهتماماته الخلاقة مندمجة ، بطريق مباشر أو غير مباشر، فى المستقبل ، وفى مصير

---

(1) إشارة إلى ما حققه العلم الحديث من معجزات .

كل الجنس البشرى. للعبقرى مشاريع ولـكنها مشاريع تتجاوزه: إنه ملتزم التزما يتعدى ذاته ؛ فـكل فـكرة جديدة تنبع من عصرها ؛ وفى نفس الوقت حلقة من السلسلة العامة للتقدم الإنسانى . ومن هنا : كل ماهو عبقرى يـكون دائما مزدوجا ولا تخـــلو بعض جوانبه من مفارقات : إنه ، فى آن واحد ، متأطر فى الزمان ولا — زمانى . فلا هـو فى حاضر محض ، ولا فى مستقبل محض . إنه يستجيب لمصالح عصره ، من غـير أن يستنفد فيه كل طاقاته . وهذا مايجعل استمرار الحضارة الإنسانية ممـكنا . وقد تعتبر أبيات (أبولينير) الآتية توضيحا صادقا لتلك الفـكرة :

« بعض الأشخاص ربوات
يرتفعون من بين الناس
ويرون ، عن بعد ، كل المستقبل
أحسن مما لو كان هو الحاضر
وأكثر وضوحا مما لو كان هو الماضى »

* * *

تحت تأثير الوضع الجغرافى ، اعتبر بعض اليونانيين الأوائل (وقد كانوا يعيشون فى الجزر) أن المـاء هو العنصر الأساسى الوحيد فى تـكوين المـادة . بيد أنه ، بالرغم عن كونهم لم يصوغوا تأملاتهم داخل نسق فـكرى ، قد هيأوا المجال لمفـكرين آخرين : فمع الذريين ، تحولت الطبيعة الموضوعية إلى فـكر علمى .

عرف العصر الوسيط المسيحى (فى القرن الثانى عشر ومستهل القرن الثالث

عشر) أرسطو ، ولكن أرسطو هذا كان يحمل عمامة ويلبس جلبابا عربيا : إنه فيلسوف تأقلم فى الهيئة الإسلامية . لقد وجد المسلمون فى المذهب الأرسطى منبعاالأفكار دافعوا بها عن الميطافيزيقا القرآنية، فأخذوا يؤولونه بطريقة ألصق مايمكن بالاتجاهات الإسلامية. هكذا، عندما اكتشفت الكنيسة الكاثوليكية من جديد أرسطو وجدت أن المسلمين قد تبنوه ووجهوا تفكيره توجيها إسلاميا وألبسوه زيهم الخاص . إذ ذاك ، بدأ العالم المسيحى ينخل ويصفى الأرسطية من المفعول الإسلامى (الإضافات والتحويرات) . بيد أن هناك مفارقة: إن مواقف المسيحيين من الأرسطية لم ترم إلى العثور على « المعلم الأول » ، كما كان فى الواقع (أرسطو الإغريقى الذى وجد تاريخيا) ، ولكن فقط للبحث فى مذهبه عما يمكن أن يدعم رؤية إلى العالم تتلاءم مع تعاليم العهدين القديم والجديد. وها نحن مرة أخرى ، أمام أرسطو جديد وقد كيف تكييفا مسيحيا .

هناك ، إذن ، ثلاثة أنواع من أرسطو : أرسطو المسلمين (أو المسلم) ، وأرسطو المسيحيين (أو المسيح) ، وأرسطو الأصلى الحقيقى !

* * *

يمكننا استخلاص نتيجتين من التحليل السابق :

١ — بما أن رسالة العبقرى تحتوى على عناصر عالمية ، أو قابلة للشمول وتغنى ، حتما ، كل الثقافات حتى الثقافات المتعارضة ، فهى رسالة تتجاوز دائما بيئتها .

٢ — عطاءات العبقرى غير قومية : إنها ليست ملكا لأى شعب ، ولا لأى دين على الخصوص ، بل جزء من مكتسبات الإنسانية .

الحديث العشرون

لا عبقرية دون شمولية

يتناول هذا الحديث مجال النشاطات الفنية .

بواسطة الفن ، ندخل فى تواصل مع الكون ونطبعه بطابع إنسانى . فالروائع الفنية الموروثة عن الماضى تحافظ وتدعم استمرارية الاستعدادات والمواهب التى هى استعدادات ومواهب فطرية ونوعية ؛ إنها تخلد الهيكل الذى شيدت عليه ثقافات الماضى الغابرة ، والحاضر الفتية . فبفضل ذلك الهيكل ، يحصل ترابط مسترسل بين مختلف المراحل التى قطعتها الإنسانية ، خلال صراعها المظفر لتنتزع من الطبيعة أسرارها . فإذا كان هناك من دافع يحرض الفكر على أن يفعل وأن ينفعل ، فليس هو إلا الدافع الذى يحث الكائن البشرى على أن يحاول بسط سلطانه على الطبيعة وعلى أن يخضع طبيعته الخاصة للإرادة . إنها مهمة شاسعة وشاقة توضع على صعيد الإنسانية جمعاء ، ماضيها وحاضرها. تعطى عبارة (طيرانس) الشهيرة ضياء للفكرة التى نحن بصدد توضيحها: «إنى إنسان، ولا شىء مما هو إنسانى بغريب عنى »[1] .

* * *

لقد استطاعت الإنسانية ، بفضل جهودها الجماعية المتتابعة أن تخرج تدريجيا من طور التوحش : تهذب الأفراد وتخلق فى المعاشر قابلية على الحياة المجتمعية. قد تطغى، فى بعض الأحيان ، دوافع عرضية على هذا الدافع الأساسى ، وتطمس وجوده ، فى نظر البعض . لكن ، يجب ألا تتخذ قيمة مما لم يعدو واقعا ومما يقاومه أو يرفضه الواقع. الفن الحق يتجاوز الارتجافات والاندفاع الانفعالى، والإدراكات الفردية المحضة، لأن الفن ، إذا لم يؤد رسالة إنسانيه شاملة ، يغدو مجرد ألعاب وتفجير لكبت مصطنع . الرسالة الحقيقية للفن الحق لا تتمثل فى إعادة إنتاج سابق

---

(1) « Homo sum : humani nihila me aliemum puto » (Terence) .

(وهذا مالاجدوى فيه) أو فى منحنا آثار التخيل والأهواء التعسفية (وهو إنتاج زائل لايهم الآخرين فى شىء) ؛ بل رسالة الفن هى « استيعاب خبايا العالم الخارجى ودخائل النفس البشرية ، بحثا عن الواقع الموضوعى الدائم ، والوصول إلى إدراك ما كانت دائماً تعوقنا عن إدراكه العادة الجارية والقاعدة المألوفة . من هذه الزاوية ، يبدو تاريخ الفن سلسلة من الحملات الرامية إلى غزو العالم المحسوس ، الخارجى منه والداخلى ، لجعله مفهوما ، بطريقة لايستطيعها أى علم من العلوم . دور الفنان هو أن يبدع عمليات أقرب ما تكون من علم الجبر : يضىء عالمنا الباطنى ، ويصير بيِّنا ما هو غامض ويضفى عليه من المعقولية ما يجعله قابلا للتواصل . وهكذا ، فإن بعض المشاعر التى يحس بها اليوم كل واحد منا « لم تصبح موضوعا لإدراك متميز إلا بفضل جهود شاعر استطاع ، فى يوم ما ، أن ينتزعها من الظلام المفزع الكامن فى أعماقنا . وبعبارة أخرى (إذا استعنا بمقارنة مستعارة من الاقتصاد السياسى) : إن الشاعر ينتج مادة للاستهلاك اليومى مما لم يكن ، فى البداية إلا مادة كمالية »[2] .

* * *

الحضارة تراث جد معقد ، ينتج هذا التعقيد عن كونها تتركب من عدد لايحصى من الثقافات المختلفة. على أن أية ثقافة فى ذاتها تكون منظومة من التعقيدات والمعارضات . الثقافة الإسلامية ، مثلا ، تقدم لنا أنماطا كثيرة من هذا التعارض : كفاح المعتزلة (باسم حرية الرأى ، والعدل ، . . .) ضد فرق معارضة كانت تعاصرها. ونجد أيضاً الفلاسفة والصوفيين والذين كانوا ينهجون طريقين متوازيين.

---

(2) Max Scheler, Nature et forme de la sympathie .
الترجمة الفرنسية ، ص 369 .

والثقافة الفرنسية، كذلك، تنطوى على عدد كبير من أنواع التعارض، سواء فى تاريخ الأدب أو الرسم، على اختلاف العصور. فهناك متابلة (رابليه) و(مونطين): «الدماغ المحشو بالمعلومات، والدماغ المنظم»، ومقابلة اليسوعية. الجانسيتية، وديكارت ـ باسكال، وفولتير ـ روسو، ... فى هذه التعارضات تكامل. فكأنها فترات جدليه تتواجد تاريخيا. إنها تعكس حركات فكرية ضرورية للتقدم. فكل واحد من الفنانين الكبار (بوسار) و (كلودلوران) و(شاردان) و (فراكونارد)، و (سوزان) و (مانى) يتوفر على صفات تنقص الآخرين ولكنها تتحد جميعها فى انسجام لتكون الفن الفرنسى والعبقرية الفرنسية: «حيث يتلاقى الشغف بالخطوط مع حب الألوان، والرسم بصلابة المادة، والحركة بالنظام، والأسلوب بالحياة، وحيث تتحد أبيقورية طائشة بتقشف جانسينى، وشعر رواقى باتجاه عقلى[3]».

هذا التنوع بين مدارس الفنون التشكيلية آت من تنوع مصادر الإلهام. فقد تعرض بعض الرسامين الفرنسيين لتأثير الفلاماند، والبعض الآخر لتأثير المدرسة الإيطالية، الخ ... فأصل أية ثقافة ليس كله قوميا. ومن ثم يجب البحث عن الأصول الأولى لأية عبقرية فى التراث الحضارى الإنسانى.

* * *

من هذه الأمثلة، نصل إلى الملاحظة التالية: ليس بضرورى أن يكون ماهو خاص وأصيل، فى ثقافة ما، عبقريا، وبالتالى خالدا: فما فيه قابلية للشمول هو وحده عبقرى. أما الغريب والمتفرد فلايستطيعان إلا أن

---

3) B. Dorival. La peinture française. p S.

يسليانا أو أن يجعلانا نندهش خلال فترة معينة ، قبل أن يفوت أوانهما . إن أنماط الحياة ، والأذواق ، والفولكلور تدخل جميعها فى المكونات الأساسية للثقافات القومية ، وتميزها وتخصصها . فصياغة المحتويات الثقافية ومناهج التفكير فى بعض القيم ، إنما هى مجرد أسلوب عابر يساعد ، مؤقتا ، على توجيه الحياة المجتمعة ، أما ماهو أساسى فيكمن بعيداً عن كل ذلك : إنه يتمثل فى الانطلاقة النوعية التى تدفعنا من الأعماق إلى استكمال حقيقتنا الإنسانية ، أى إلى تجاوز المنغلق نحو المنفتح .

* * *

يمكننا أن نتصور وضع وموقف موسى عندما شعر بالضيق والظلم اللذين كان شعبه يرزح تحتهما وقد أدرك مدى وحشية استعباد العبريين اللا إنسانى « إذ كانت روائح الموتى الكريهة تقتل الأحياء » ، ربما تساءل موسى هكذا :

« إلى متى سيظل الظالمون يعتمدون على سلطانهم للتنكيل بالضعفاء من البشر وتجريدهم من إنسانيتهم ؟

يا إخوتى !

يا إخوتى !

أسفى عليكم !

أسفى على نفسى !

أفلا أستطيع ، من أجل إنقاذكم من الموت ، أن أضحى بحياتى ؟» .

* * *

إن بذل النفس ، وروح التضحية كانا من أسس التقاليد الإبراهيمية . لم ترم أبدا التضحية لإخصاب وادى النيل ، أو تهدئة غضب الآلهة ، ولكن

كان بذل النفس لإنقاذ الأشخاص . من هذا المنظار ، يقوم النبي بدور المرشد والمثل النموذجي ، بصفته محررا ومربياً . فمن سيناء أذاع موسى شريعة ، ذات قوانين شمولية ، ومن قلب فلسطين أيضاً ، نبعت دعوة عيسى إلى المحبة بين جميع البشر . لقد حملت الأديان الإبراهيمية الثلاثة رسالة العدالة والسلام والأخوة ، آخذة بيد المستضعفين ، دون أن تطالب بأي جزاء . ذاك ما سجله القرآن ، على لسان نوح مخاطبا قومه :

« وما أسألكم عليه من أجر ،

إن أجري إلا على رب العالمين »

فرد عليه القوم ساخرين :

« أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟

قال :

وما علمي بما كانوا يعملون .

إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون .

وما أنا بطارد المؤمنين .

إن أنا إلا نذير مبين » . (4)

* * *

هكذا يأتي النبي برسالة ، وللدفاع عنها يلتزم التزام المحب الغيور المستميت ،

---

(4) سورة الشعراء (26 : من 105 إلى 115) . انظر كذلك : 11 من 27 إلى 35 .

ولو أدى به ذلك إلى المحنة ، والطرد ، والهجرة : موسى ينزح مع قومه ، والمسيح عيسى يحاكم و « يصلب » ، ومحمد يهجر موطنه .

إن الالتزام التام ، ونكران الذات ، لايتحققان إلا إذا اقترنا بالرحمة ، وحب الآخرين والمشاركة فى تخفيف بؤسهم :

« فبما رحمة من الله لنت لهم .

ولو كنت فظا ، غليظ القلب ، لانفضوا من حولك .

فاعف عنهم ، واستغفر لهم ! » قرآن ، (سورة آل عمران ، 3 : 158)

* * *

يصرح (رابى يهودا) بأن عشرة أشياء قوية خلقت فى العالم :

« الحجرة قوية ، ولكن الحديد يكسرها .

والحديد صلب ، ولكن النار تذيبه .

والنار قوية ، ولكن الماء يطفئها .

والماء قوى ، ولكن السحاب يحمله ؛

والسحاب قوى ، إلا أن الريح تطرده .

والريح قوية ، ولكن الإنسان يقاومها .

والإنسان قوى ، ولكن الخوف يرهبه ؛

والخوف قوى ، ولكن الخمر يذهبه .

والخمر قوى ، ولكن النوم يبطل مفعوله .

والنوم قوى ، إلا أن الموت أقوى منه .

غير أن المعاملة الحسنة أقوى من كل شيء ، لأنها تبقى بعـد الموت » [5]

حقاً ، رحم الله رابى يهودا ! إن المعاملة الحسنة ، هى أساس كل أمة ، ودعامة الحياة الجماعية .

---

(5) نقلا عن E. Fleg, Moise raconté par les sages, Paris, Albin Michel, 1959, P 24.

خاتمة

إما أن نتغير وإما أن نندثر

« إن للعادلين ، فى جميع الأمم ، حق الخلود »

(التلمود)

* * *

لن ننهى أحاديث هذا الكتاب دون الرجوع إلى فكرته الأساسية : مادامت الحضارة نتاج مساهمات مباشرة وغير مباشرة ، من جميع الشعوب الماضية والحاضرة ، فهى بذلك تتخطى الأطر الإقليمية . إنها إنسانية .

بهذا الاعتبار ، يستحيل أن نسلم بأنه يمكن أن تقتصر الحضارة على قطر واحد ، فى اكتفاء ذاتى . فإن هى فعلت تشابه أمرها وفقدت المقومات الأساسية الحضارية فلن تدوم قيما تتحرك ، بل ينتهى بها المآل إلى التجمد . إن الاقتصار على الإعجاب الدائم بالماضى القومى معناه ولوج صحراء حيث نفحات الحياة لم تعد تهب . فمثل المجتمع الذى ينغمس فى تلك المجاملات الذاتية نحو ماضيه ، كمثل من يدق أجراس الإعلان عن موته . فكل ثقافة تستسلم ، تلحقها الشيخوخة وتأخذ فى التفسخ ، نتيجة للخرافات التى تنخرها من الداخل وتصيرها جدباء ، قشور ولا ثمار .

فالرسالة الحقيقية التى يضطلع بها العالم الحق ، والفيلسوف الحق ، والمربى الحق ، والفنان الحق ، هى التفكير والعمل على الصعيد الإنسانى . فلا الخوارزمى قصد بأبحاثه خدمة العالم الإسلامى فقط ، ولا (جاليلى) أوقف نتائج اكتشافاته على المسيحية ، ولا (باستور) قصر اختراعاته على فرنسا ، بل هدفوا كلهم إلى

خدمة الإنسانية جمعاء . ذاك هو الشأن بالنسبة لجميع العباقرة : إنتاجهم يرمى إلى أبعد من الحاضر ، والمنفرد ، والخاص ، ليصل إلى القانون (أى القاعدة العامة المطردة الشمولية) . إن الفردى والخاص لا يمثلان الأساس. ففى وعى أولئك الذين عملوا على تقدم الإنسانية (أمثال أقليدس وابن سينا ، وديكارت ، وسبينوزا ، وكوش) كانت الفردية ترتبط بالشمول ، خاضعة ، بمحض حريتهم ، إلى نظام محكم أساسه الحق والخير ، وهما قيمتان تقودان ، رغم تفردهما ، لى الشمولية .

* * *

فمن هم دعاة الحضارة ومبدعوها ؟

ليسوا أولئك الذين يحلون المشاكل عن طريق الأسلحة، بل أولئك الذين يقدمون للإنسانية ، دون تحيز وتعصب ، أفضل ما يتوفرون عليه ، حتى ولو اقتضى الأمر أن يضحوا بالجاه وبالحياة . وعلى ضوء تعاليمهم وتضحياتهم ، يخامرنا الأمل فى أن نشاهد بزوغ بوادر الحضارة الشخصانية ، الحضارة التى تهتم بدعوة الناس إلى تفكير شخصى ، من منظار جماعى أو شمولى ، وفى نفس الوقت ، تتابع توسيع آفاق بحث مستمر :

« إننا (معشر الشخصانيين) عند ما نؤكد ارتباطنا بالعالم وبالمصير الشامل للإنسانية ، نطالب بتاريخيتنا . بيد أنه ، بقدر ما نحرص على وضع هذه التاريخية أمام عملنا، بقدر ما نحرص على إبعادها عن تأملنا الأساسى ، وتوفير الاستعداد الحقيقى لمشروعنا الشخصانى . إنه استعداد لا يمكن فى حالات ولع متتابعة ، بل هو جواب كائن مطمئن فى إيمانه ، مدرك لهدفه[1] » .

---

(1) J. - M. Domenach, Esprit, No 2, 1956, p 162.

* * *

أى إيمان ؟

أى هدف ؟

يجيب القرآن ، بكلمة واحدة ، هى : إسلام .

أليس معنى إسلام الخضوع لله ، وللحقيقة ، ومسالمة للنفس وللناس (وأنه النجاة ، عن طريق السلم من أجل سلامة الروح وتحقيق السلام بين البشر) ؟ الإسلام هو التحية والخلاص والسلام (بالعبرية شلوم) :

* * *

« تطمئن نفسى إلى الله وحده .

خلاصى من لدنه (. . .)

هو مصدر رجائى (. . .)

من الله خلاصى ، ومجدى ، وصخرة قوتى[2] » .

* * *

فى هذا الميدان وحول هذا المقصد ، تلتقى وتتفق الأديان الإبراهيمة الثلاثة ، (إذا نظرنا إليها من جهة مبادئها الأصلية)[3] . إنها تتفق فيما بينها من جانب ، وتلتقى ، من جانب آخر ، مع جميع المناضلين الذين يكافحون للقضاء على العبودية ، والاسترقاق ، لتحقيق تحرر إنسانى كامل .

---

(2) سفر المزامير ، 62 ، 2 و 6 و 8 .

(3) « وما جعل عليكم فى الدين من حرج . ملة أبيكم إبراهيم » . (قرآن ؛ سورة الحج ؛ 22 : 78) .

فبدلا من المدينة البرغسونية التى تجعل من البطل ، والقديس ، والصوفى ، نماذج عليا (ولكنها ، رغم كل شىء نماذج معزولة) نفضل مجتمعا شخصانيا لا تطفىء فيه نور العقل انطلاقة القلب ، وحيث يتوفر الرقى والعدالة والسعادة للإنسانية . هذه الترقية الشاملة ـ الشمولية هى مايلخصه حديث نبوى ، إذ يجعل المثل الأعلى الذى يجب أن ننزع إليه جميعا ، هو أن يجسد كل إنسان الصفات الإلهية فى حياته : إن الله كريم ، ورحيم ، ومدبر ، . . . فعلى جميع الناس أن يعملوا دائما لأن يكونوا كرماء ، ورحماء ، ومدبرين . . . ذلك ما يجب أن نرمى إليه ، لكن ما نحتاج إليه الآن هو مشروع بسيط ، واقعى وممكن التحقيق ، إلا أنه أكثر المشاريع استعجالا وأهمية . هذا المشروع هو تعاون الجميع ، لسعادة الجميع ، وإعادة تقييم الإنسان مستقلا عن الاعتبارات القومية ، والجنسية ، والدينية ، بحيث ، عندما تتحدث الأجيال المقبلة عن عصرنا ، عصر ازدهار الصناعة ، والسرعة ، والمخترعات التقنية ، والصواريخ والاقتصاد الموجه ، يمكنها أن تضيف : لقد كان ، كذلك ، عهد نزعة إنسانية جديدة .

لن تتم هذه الأمنية إلا إذا تقبلنا ما نحن مطالبون به من تضحيات فأبعدنا عن عصرنا خطر الأسلحة المدمرة . الحقيقة أننا أمام اختيارين : إما أن تستمر القنبلة الذرية مسيطرة على مصيرنا ، وإما أن تتوفر ثقافاتنا على الوعى الكافى لتعتبر السلام واستقرار الإنسانية جمعاء هدفا يمكن تحقيقه فتسخر كل إمكانياتها من أجل ذلك .

ساعة الاختيار قد دقت ، والدليل ملموس : فإما أن نغير العالم والإنسان ، وإما أن نندثر .

* * *

لقد حاولنا ، فى غير هـذا الـكتاب[4] أن نلقى بعض الأضواء على مفهوم الـكائن البشرى فى سذاجته وبصفته معطى خاما ، ثم موقفنـاه أو نطولوجيا ، وتتبعنا تطوره نحوالأنا . بعد ذلك درسنا أبعادالشخص ، والمرحلة التطوريةالتى يقطعها ليتعالى نحو الإنسان (إذ الشخصانية مجرد مرحلة مؤقتة فى التطلع نحو الأنسنة الـكاملة) . أما فى كتاب اليـوم « أحاديث عن الثقافات القومية ، والحضارة الإنسانية » فقد اكتفينا بتشخيص الجو الثقافى الذى تتفتح فيـه الذات وينصهر الـكائن فى الشخص . وبفضل شمولية الثقافة أولا ، والتعاون الوثيق بين جميع الثقافات القومية ، فى نطاق التراث المشترك ، ثانيا ، ستحقق الحضارة تجاوز الإنسان لذاته ، أى أنها ستحقق تأنسن الإنسانية والـكون معا . فبدون هذا التأنسن ؛ لن يكتمل أبدا تحررنا ، أو على الأقل سيبقى متعثراً من غير دعامة تسنده. فالنفحة الإلهية تمر عبر الإنسان ، وإن حلم الإنسانية يرتـكز على الجماعة: إننـــا معشريون .

* * *

بما أن الشخصانية فـكرة نضالية ومجموعة من النظريات والمواقف ، أصبحت مضطرة لأن تتخطى الدعوة إلى التوعية لتصبح ، فى مرحلتها النهـائية ، نزعة إنسانية جديدة . بذلك ستكتسب ، فى نفس الحين ، قيمة فلسفة الإنسان وقيمة فلسفة العمل : أى أنها ستصبح تحريراً .

---

(4) De l'Etre à le Personne (essai de personnalisme réaliste). Paris, P. U. F., 1954.

صدر منه ج 1 باللغة العربية ، عن دار المعارف بالقاهرة ، تحت عنوان . « دراسات فى الشخصانية الواقعية : ج 1 ، من الـكائن إلى الشخص» .

وتلجأ الشخصانية ، فى المرحلة الراهنـة من تطورها ، إلى وسيلة تربوية أساسها القلق المتفائل :

« فبين التشاؤم الرجعى الذى يقضى على الإنسانية بأن تبقى محاصرة بالفشل وبين التفاؤل التقدمى الذى يغفل ، أحيانا ، امتداد موجة التاريخ ، هناك نزعة متفائلة بمستقبل الإنسانية تدرك أخطار النـكبات المحتملة ، ولاتعارض فى وجود وعى واقعى لبطء سير التاريخ وغوامضه » [5]

* * *

نعم ، إن ماهو اليوم مجهول وغامض سيصبح ، غـداً ، مجرد مشكلة تلفها الصيرورة بين طياتها .

تنسج جدلية دينامية فصول التاريخ ، ولـكل عصر جدليتـه ، حسب حتميته الخاصة ، أو كما يقول القرآن :

« لـكل أجل كتاب » (سورة الرعد 13 : 38) .

وفى آية أخرى :

« لـكل أمة أجل ،

إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » . (قرآن ، سورة يونس 10 - 49) .

* * *

إن الإنسان هو السر الوحيد الذى ما زال مجهولا غامضاً : فهو وإن نجح فى فك الـكثير من الألغاز ، لم يتوصل إلى كشف القناع عن لغزه الخاص فيطلع على حقيقة نفسه . نعم ، لم نتمكن بعد من معرفة نفسنا معرفة كاملة ، و إن كنا نستطيع استقبار

(5) E. Mounier, Esprit, no. 1948, p 704.

أغوار ما يحيط بنا ، ونعرف أننا نعرف ، وندرك حدود معلوماتها : إننا نعى ما نحن عليه، وما نصيره .

الإنسان حوار مسترسل ؛ ولكنه ليس مجرد حوار الذات لذاتها : يتكون الأنا « فى » و« بـ » الـ «نحن» داخل عالم يتغير باستمرار ، على غرار قول القرآن عن الله سبحانه :

« كل يوم هو فى شأن » (الرحمن 55 : 29) .

كتب اخرى للمؤلف

- مفكرو الإسلام (نفد)
- بؤس وضياء (ديوان شعر) أربع طبعات بالفرنسية (باريز) (نفد)
- بؤس وضياء (ديوان شعر بالعربية) بيروت ، دار عويدات
- من الكائن إلى الشخص (بحث فى الشخصانية الواقعية) باريز (بالفرنسية) (نفد)
- أحرية أم تحرر؟ (دراسة فلسفية) باريز بالفرنسية(نفد)
- دراسات عن الشخصانية الواقعية (بالعربية) ج : 1 ، القاهرة دار المعارف . (ط 2: 1967)
- من المنغلق إلى المنفتح (أحاديث عن الثقافات الوطنية والحضارة البشرية) (بالفرنسية) الدار البيضاء ، دار الكتاب . الطبعة 2 ، الجزائر ، 1971
- الشخصانية الإسلامية (باريز) ، الطبعة 3 ، عام 1967 (بالفرنسية) .
- مختارات من الشعر العربى والشعر البربرى ، (بالفرنسية) ، باريز . (نفد)
- صوتى يبحث عن طريقه (شعر بالفرنسية) باريز . (نفد)

— ابن خلدون (فلاسفة كل العصور) ، بالفرنسية

(باريز) ط .3 1971.

— الشخصانية الإسلامية (القاهرة،دار المعارف 1969)

* * *

صدر عن الندوة التى يشرف عليها الأستاذ الحبابى ، بكلية الآداب فى 1964 ، « المصطلحات الفلسفية» (بالفرنسية والعربية) وهى تهيىء الآن قاموسا آخر (بالعربية والفرنسية والإنجليزية) .

— جيل الظمأ (رواية بالعربية) ، بيروت .

— عصر المواجهة (بيروت،محاضرات الندوة اللبنانية) (بالفرنسية) .

— العض على الحديد (مجموعة قصص بالعربية) تونس

* * *

من آثار الأستاذ الحبابى ما ترجمه إلى لغات أجنبية :

(الصينية ، والإنجليزية ، والروسية ، وغيرها)

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(*) كثيراً ما ينقل Renan هكذا : « رينان » .

(ش)

(ل)

(م)

تصويب

وقعت بعض الأخطاء المطبعية نثبت هنا أهمها راجين القارئ الكريم تصويبها مشكوراً وهى :

صفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٨	١	(٦٧ : ١٥)	(١٥ : ٦٧)
١٨	٣	(٦٢ : ١٠)	(٩ : ٦٢)
١٨	٦	(٦٢ : ١٠)	(١٠ : ٦٢)
١٩	٣	يوم لدين	يوم الدين
١٩	٤	ولا نزر	ألا تزر
١٩	٧	ثم يجزى	ثم يجزاه
١٩	٧	٣٧	٣٨
٤٤	٧	٢ : ١٩١و٢ : ٢١٧	٢ : ١٩١
٥٣	١٢	ونما	وإنما
٥٣	١٤	فاذ لامرن	فإن الامر
٥٣	١٧	لاأنه	إلاأنه
٥٩	١٥	(28 : 76)	(77,76 : 28)
٥٩	١٦	بملئ	بملء
٧١	٥	للتواطئ	للتواطؤ
٧٣	١٠	من عزم	لمن عزم
٨٦	١	عربا	غربا
٩٧	١٥	مصدر	مصدر آ

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٠٣	٦	أولم	أملم
١٠٣	٨	(6:166)	(38,37,36:53)
١٢٣	٢	حملتنى إلى	حملتنى على
١٢٤	٤	مواطنيهم	ومواطنيهم
٢٤	٦	جيرانهم	وجيرانهم
١٢٥	٦	(99:6)	(1:4)
١٢٥	٩	(10) (2;6)	(2,1;6)
١٢٧	٨	دونها	دونما
١٢٧	١٦	فى أراضى	فى أراض
١٢٨	٤	جلايها	جلاديها
١٣٣	٣	فللفروق	فالفروق
١٣٦	٦	الغرت	الغرب
١٣٩	٩	سواءا	سواء
١٤٠	١٢	يجانب	بجانب
١٤٥	٣	الحضرى	الحضارى
١٤٥	١٤	بالهند	بالهندى
١٥٠	٤	٣٠ : ٢١	٣٠ : ٢٢
١٦٦	١٣	باسميى	باسمى
١٦٨	١٩	(210 : 2)	(213 : 2)
١٧٢	٤	مهاجورون	مهاجرون
١٨٢	٤	المهر	المظهر
١٨٩	١٥	لتفسج	لتنسج
١٩٠	٤	الاحتكار	الاحتكاك
١٩١	١٥	اللاهوت	واللاهوت

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٩٢	١٧	(16 : 12)	(76 : 12)
١٩٣	٦	(12 : 50)	(16 : 50)
١٩٥	٩	مما	ما
١٩٥	١١	73	74
١٩٦	٥	42	24
٢٠٢	١٥	ينقبلون	ينقلبون
٢١٠	١٩	الحر	الحفر
٢١٢	٤	أراضى	اراض
٢١٧	١٢	أنسة	أنسنة
٢٢٠	١١	ألا يعمل	ألا يجمل
٢٢١	٦	ليشدق	ليتشدق
٢٢١	١٠	فدكتور	فيكتور
٢٢١	١٥	كما سيتطحم	كما سيتحطم
٢٢٥	٣	تأس	تأسس
٢٢٥	١٣	للادعاء	لادعاء
٢٣١	١٥	54	57
٢٣٣	١٥	احتفاظا	حفاظا
٢٣٧	٦	المرأ	المرء
٢٤١	١٤	(31)	3)
٢٤٥	١٠،٤	« قانون فى الطب »	« القانون » فى الطب
٢٤٧	١	الموجدات	الموجودات
٢٥٣	٧	وهى علمية	وهو عملية
٢٨١	١٧	105	109
٢٨٢	٧	158	159

محتويات الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٢٠ لسنة ١٩٧١

مطابع سجل العرب